

الممالك والبحرمانية

في أوروبا في العصور الوسطى

تأليف

دكتور محمد رشدي الشيب

مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
جامعة القاهرة



الممالك والبحرمانية في أوروبا في العصور الوسطى

الأستاذ الدكتور -

الشيخ أحمد

تأليف

دكتور محمد موسى الشيخ

مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية



Coordinated Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Public Library Alexandria - Egypt

١٩٧٥



تقديم

كان أم حدث شهدته الإمبراطورية الرومانية قرب نهاية التاريخ القديم هو غزوات القبائل الجرمانية ، وإقامة ممالك الجرمان في قلب العالم الروماني ، بل وإنهاء عهد الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وليس من شك في أن هذه الغزوات ، وما أسفرت عنه من إقامة ممالك جرمانية كان عاملا جديدا في تكييف التاريخ الأوروبي ، والسيطرة على مقدراته في العصور الوسطى ، وبعبارة أخرى فإن العالم الروماني القديم دلف إلى أعتاب العصور الوسطى تحت وطأة ظروف جديدة وغزوات متتالية لقبائل متبررة ، لم تنحصر مواجهتها هذه المرة وإنما قادت لإقامة ممالك جديدة ثابتة وسط العالم الروماني ، الذي طسلا تطاعت إليه في حشد وغيرة تبغى الإفادة من تراثه وحضارته .

وكان أثر هذه الممالك الجرمانية بعيدا في تاريخ أوروبا بصفة عامة وتاريخ البلاد التي أقيمت فيها بصفة خاصة ، لاسيما وقد عاشت بعض تلك الممالك قرون طويلة أثرت في مظاهر الحضارة الرومانية ، وتأثرت هي بها ، واستطاع العالم الروماني في النهاية أن يتشرب أعقاب تلك الممالك ويقضى على تمايزها ويذيبها في محيطه ، لاسيما وقد اختارت طائفة كثيرا من مظاهر الحضارة الجديدة وأساليب الحياة الرومانية ، كما فقدت حماسها القديم وأبرز سماتها القبلية .

وإذا كانت موجات الجرمان قد تعددت وتلاقت موجة بعد أخرى فإن تلك الموجات أسفرت عن قيام ممالك جرمانية ثابتة ، ظلت قرات متفاوتة تمارس دورها في التاريخ الأوروبي الوسيط ، فملكة القوط الغربيين في أسبانيا ، وملكة القوط الشرقيين في إيطاليا ، وممالك الفرنجة والبرجنديين في غالة ، وملكة الوندال

في شمال إفريقية ، وممالك الجوث والإنجلز والسكون في بريطانيا ومملكة أدواكر في إيطاليا ، كانت حصاد الموجة الأولى من غزوات الجرمان بقسميها الغربي والشرقي ، كما كانت مملكة الساردين في إيطاليا حصاد الموجة الثانية من تلك الغزوات ، وكانت ممالك النورمان في نورمانديا وصقلية وجنوب إيطاليا حصاد موجة غزو النفاكينج بعد ذلك بمدة قرون أي حصاد الموجة الثالثة من موجات الغزو الجرمانى .

وعلى الرغم من أهمية هذه الممالك وذورها الخطير في تاريخ أوروبا الوسطى فلأن الاهتمام بالتاريخ لما يزال مشغلا في الغرب وفى الشرق على حد سواء ، وبما استنادا إلى أنها عاشت ما اصطلاح على تسميته بالعصور المظلمة في تاريخ أوروبا حين ذوت الامبراطورية الرومانية واندثرت معالمها ، واضمحلت الحضارة وتهاوت صروحها ، وتضاءلت قوة أوروبا وتقطعت أوصالها ، وانزوت أطرافها تحجب حكم بدا بفيض الرومان في ذلك الوقت .

وحين أعيد تقييم دور هذه الممالك في تاريخ أوروبا برزت بعض المؤلفات تناولها بالدراسة وتحلل بعض تاريخها وأيامها ، وإن بدت تلك المؤلفات أقل بكثير من أن تظهر ذلك التاريخ العريض وتبرز كل مخفياها ، ولعل ذلك راجع إلى أن عهود الممالك المندثرة منها بصفة خاصة ، أعقبتها فترات جديدة حاولت أن تولى هذه الممالك ظهرها باعتبارها فترات قائمة في التاريخ الأوروبى ، لا يجب الإغفالات لإليها ، فضلا عن أن هذه الممالك لم تعط العلم حقه من الرعاية ولم تشجع المؤرخين وتسجيل التاريخ ، فأحس الكتاب بفجوة كبيرة تلف ذلك التاريخ وتجهل كثيرا من جوانبه غامضة فى حاجة إلى إيضاح . ويبدو أن ذلك جعل بعض الكتاب الغربيين يتوه فخرأ بأنه تمجسيرا وعالج بإسهاب تاريخ بعض تلك

الممالك مثلما فعل Oman حين ذكر في مقدمة كتابه مزهوا أنه بذل جهدا مضنيا ليضم إلى مؤلفه : 918 — 476 The Dark ages ، فصلا عن ملكة القوط الغربيين في أسبانيا على الرغم من أن بعض الكتاب قد فعل نفس الشيء وإن كانت كتاباتهم عن تلك الممالك بالذات أقل حجما وأكثر اختصارا ، ومن هؤلاء Lot في كتابه :

The End of the Ancient World and the beginning of the middle ages .

— والكاتب Altamira في كتابه :

A History of Spain :

— Harold Livermore ، في كتابه :

A History of Spain from the beginning to the present date.

فضلا عما كتب عن تلك الممالك وغيرها من الممالك الجرمانية في المؤلف الكبير : Cambridge Med. Hist. ودوائر المعارف المختلفة ، ومقالات الموسوعات التاريخية مثل : كتاب التاريخ ، :

The Book of History. The History of all nations,

وغیرها من الكتب الأخرى .

أما في المكتبة العربية فليس هناك — للأسف — مؤلف يتناول كل تلك الممالك ويعرض لتاريخها باستثناء ما كتبه أستاذنا الكبير الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه القيم « أوروبا العصور الوسطى » ، من صفحات عن هذه الممالك وما كتبه الأستاذ الدكتور إبراهيم علي طرخان في هذا الميدان وكتابه القيم عن : دولة القوط الغربيين ، وما عدا ذلك فتاريخ هذه الممالك ضائع أو خاف وسط زحمة التاريخ السياتي والحضاري لأوروبا في العصور الوسطى أو هو على أحسن الفروض سطور قليلة تثبت زمن قيام كل مملكة ووقت انقراضها مع الإشارة إلى أبرز ملوكها .

ويسعدني كثيرا أن أقدم للمكتبة العربية كتابا يتناول كل هذه الممالك ويعرض لتاريخها سياسيا وحضاريا ، حاولت فيه أن أبرز دور كل مملكة في حياة القطر

الذي عاشت في أروحة وأسهمت في صنع تاريخه ، مستفيدا من عدد وافر من المؤلفات الأوربية والنصوص القديمة والمقالات الهامة في اللوسوعات التاريخية الغربية ودوائر المعارف الأجنبية . ويستخرج للقارئ مدى الجهد الذي بذله لإخراج هذا الكتاب ، إذ ليس من اليسير كتابة مؤلف باللغة العربية عن عمالك جرمانية عاشت قررات متفاوتة في تاريخ أوروبا المظلم ، تداخلت فيها سياساتها ومخاربات أحيانا مصالحها ، واندلعت بينها الحروب واستمر بينها القتال ، وتباينت علاقاتها بالقوى المحيطة من ناحية وبالأهالي الرومان من ناحية أخرى بما يتطلبه كل ذلك من أمانة في العرض ودقة في الإثبات وحسن في التنظيم .

ولا يسن في النهاية إلا أن أقدم بوافر الشكر والامتنان لاستاذي الكبير الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح حاشور لجيـل رعايته وإرشاده لي ولهدام قدسيه لي ، فله ولكل من تفعل بتدجيمي أقدم خالص شكرى وعظيم امتنانى .
والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل .

محمد محمد موسى الشيخ

الاسكندرية في فبراير سنة ١٩٧٥ .

محتويات الكتاب

صفحة

١ -

تقديم الكتاب

الباب الأول

الجرمان وغزواتهم في أوروبا

١٧ - ٣

الفصل الأول: الجرمان :

غزوات الكلت (ص ٣) - الوطن الأصلي للجرمان (ص ٦) -
صفات الجرمان (ص ٧) - النظام الاجتماعي للجرمان (ص ٨) -
حياة الجرمان الاقتصادية (ص ١٠) - تنظيماتهم
السياسية (ص ١١) - الحروب بين القبائل الجرمانية (ص ١٢)
الإمبراطورية الرومانية والجرمان (ص ١٢) - أسباب
تحرك الجرمان إلى تخوم الإمبراطورية الرومانية (ص ١٤)

٤٦ - ١٩

الفصل الثاني: غزوات الجرمان:

القسوط الغربيون (ص ١٩) - أثر ضغط الهون في تحرك
القوط الغربيين (ص ٢١) القوط الغربيون والإمبراطور
فالنز والإمبراطور ثيوديسيوس العظيم (ص ٢٢) - آلاريك
الجنود وغزو إيطاليا (ص ١٣) - الوندال وتزوج جندريك
إلى شمال إفريقيا (ص ٢٦) سياسة جندريك في شمال
إفريقية (ص ٢٨) - البرجنديون وغزوم لفساله
واستقراهم بين جبال الألب ونهر الرون (ص ٢٩) -

صفحة

المون وولاية أتيلا (ص ٣٠) - حصار أتيلا لروما
 وانسحابه ثم وفاته (ص ٣٤) - نهاية الامبراطورية الغربية
 سنة ٤٧٦ على يد أداكر (ص ٣٥) - غزو القوط
 الشرقيين لإيطاليا بقيادة ثيودريك (ص ٣٧) - الفرنجة
 وغالة (ص ٣٩) - انتصار كلوفس على - ياجريوش (ص ٤٠)
 تمایز الفرنجة عن بقية العناصر الجرمانية (ص ٤١) - احتياق
 كلوفس المذهب الكاثوليكي وأثر ذلك (ص ٤٢) - غزو
 الإنجليز والسكسون والجوت لبريطانيا (ص ٤٤)

الباب الثاني

الممالك الجرمانية

الفصل الثالث: مملكة القوط الغربيين بأسبانيا وجنوب غالة : ٦٥ - ١١٣

- تأسيس المملكة (٤١٠ - ٥٣١ م) : أتولف (ص ٥٦) -
- واليسا (ص ٥٧) - ثيودريك الأول (ص ٥٧) - ثيودريك الثاني
- (ص ٥٨) - إيبورك (ص ٥٨) - آلاريك الثاني (ص ٥٩) -
- أطريك (ص ٦١) .

- عهد القوة والازدهار في عمر المملكة (٥٣٩ - ٦٠٣) :
- ثيوديس (ص ٦٤) - ثيوديميول (ص ٧١) - أجيل (ص ٧٢)
- أثالاجلد (ص ٧٣) - ليوفيجلد (ص ٧٥) - ويكرد
- ص (٨٢) .

- نهاية المملكة (٦٠٣ - ٧١١) : ويترك (ص ٩٠) -

صفحة

- جندمار (ص ٩١) سيسوت (ص ٩٢) - سوثيلا
(ص ٩٤) - سيساد (ص ٩٥) - شثيلا (ص ٩٦) تولها
(ص ٩٦) - شنهاسوت (ص ٩٧) - فواين شنهاسوت
(ص ٩٩) - وكسوت (ص ١٠٠) - وامبا (ص ١٠٢) -
فواين وامبا (ص ١٠٤) - الملوك الأواخر في ملكة القوط
الغربيين (ص ١٠٦) - إرويج (ص ١٠٦) - إيجيكا (ص ١٠٢)
وتيزا (ص ١٠٩) - رودويك (ص ١١٠) - غزو العرب
لأسيابيا (ص ١١٠) - أسباب سقوط ملكة القوط
الغربيين (ص ١١١) .

الفصل الرابع : ملكة الوندال بشمال إفريقية: ١١٥ - ١٢٥

جيزريك وفتح شمال إفريقية (ص ١١٥) - مواهب جيزريك
وسجاياء (ص ١١٦) - سياسته المالية والدينية (ص ١١٨) -
السنوات الأخيرة في عهده (ص ١٢١) - هوريك (ص ١٢٢)
جوثاموند (ص ١٢٥) - ثراساموند (ص ١٢٥) -
هفريك (ص ١٢٦) - جليمار ونهاية ملكة الوندال بشمال
إفريقية (ص ١٢٨) - جستنيان وملكه الوندال (ص ١٢٩) -
سقوط قرطاجة في يد بلارديوس (ص ١٢٢) - استسلام
جليمار ونهاية ملكة الوندال (ص ١٢٣) .

الفصل الخامس : ملكة البرجندبين بجنوب شرق غالة : ١٢٧ - ١٤٨

تأسيس المملكة (ص ١٢٧) جندوباد (ص ١٣٩) - جندوباد
والفرجة (ص ١٣٩) - احتساق جندوباد الكاثوليكية
(ص ١٤٢) - علاقته بالإمبراطورية الشرقية (ص ١٤٣)

صفحة

- سجموند (ص ١٤٣) - سجموند والبيزنطيين (١٤٤) -
- سجموند والفريجة (ص ١٤٥) - جدومار (ص ١٤٥) -
- نهاية للملكة (ص ١٤٦) - النظم الداخلية في المملكة :
- الإدارة المالية والضريبة ، الإدارة المحلية ، نظام
- القضاء (ص ١٤٧) .

الفصل السادس : ملكة أدواكر في إيطاليا : ١٤٩ - ١٥١

- احتملال الامبراطورية الغربية (ص ١٤٩) - أدواكر
- (ص ١٥٠) - حكومته في إيطاليا (ص ١٥٠) - مملكة
- الخارجية : إزاء القوط الغربيين (ص ١٥١) -
- دالماتيا (ص ١٥٢) - أروجين (ص ١٥٢) - الوندال
- (ص ١٥٣) البيزنطيين (ص ١٥٣) - عوامل ضعف ملكة
- أدواكر (ص ١٥٤) - غزو ثيودريك القوطي الشرقي
- لإيطاليا (ص ١٥٥) - مقاومة أدواكر (ص ١٥٦) -
- فشل أدواكر واغتياله (ص ١٥٩)

الفصل السابع : ملكة القوط الشرقيين بإيطاليا : ١٦١ - ١٨٦

- ثيودريك العظيم (ص ١٦٢) - حكومة ثيودريك في
- إيطاليا (ص ١٦٣) - اهتمام ثيودريك بالحضارة الرومانية
- (ص ١٦٧) - ثيودريك والإمبراطورية البيزنطية
- (ص ١٦٨) - ممالك ثيودريك بمسيراته في الغرب :
- الفرنجية . القوط الغربيين . البرجندين . الوندال
- (ص ١٦٩) - السنوات الأخيرة من عهده (ص ١٧٥) -
- وفاة ثيودريك العظيم واحتملال المملكة (ص ١٧٨) -

صفحة

خلفاء ميودريك في إيطاليا (ص ١٧٩) - جستنيان وغزو
إيطاليا (ص ١٨٠) - المقاومة الباسة لقوط الشرقيين فيها
(ص ١٨١) - نهاية للملكة (ص ١٨٤) .

الفصل الثامن : ملكة الفرنجة في حالة : ١٨٧ - ٢١٤

كلوفيس وتأسيس الملكة (ص ١٨٨) - تحوُّله إلى
الكاثوليكية وأثر ذلك (ص ١٨٩) - علاقته بأبرجندين
والقوط الغربيين (ص ١٩٠) - وفاة كلوفيس وتقسيم
للملكة بين أبنائه (ص ١٩٢) - إعادة توحيد للملكة على
يد لوثر الأول (ص ١٩٢) - أحوال للملكة بعد وفاة
لوثر حتى اعتقاله داجوبرت العرش سنة ٥٤٨ (ص ١٩٢) -
عهد داجوبرت (ص ١٩٤) - النزاع بين نستريرا وأوستراسيا
وظهور رؤساء البلاط (ص ١٩٥) - سبوت النشاك في
أوستراسيا وكلوفيس الثاني في نستريرا (ص ١٩٦) - بين
الصغير (الثاني) أو بين مرستال (ص ١٩٨) - شاول مارتل
(ص ٢٠٠) - بين التمهيد (الثالث) (ص ٢٠٤) - لإنهاء
عهد الميروفنجيين وتأسيس البيت الكارولنجي (ص ٢٠٠) -
خصائص الملكة الفرنجية (ص ٢٠٧) - المجتمع العالي على عهد
الميروفنجيين (ص ٢٠٨) - التنظيمات السياسية . الإدارة
المحلية . القضاء . السياسة الدينية . النظم الاقتصادية
والمالية . الجيش (ص ٢٠٩) .

صفحة

الفصل التاسع : ممالك الجرمان في بريطانيا : ٢١٧ - ٢٢٦

بريطانيا والتاريخ القديم (ص ٢١٧) - الفتح الروماني
لبريطانيا (ص ٢١٨) - انتصار المسيحية بين عناصر
الكلت (ص ٢١٩) - سحب الفرق العسكرية الرومانية من
بريطانيا (ص ٢٢٠) - غزو الجرمان لبريطانيا (ص ٢٢١) -
بروز الممالك القبلية السبع ببريطانيا (ص ٢٢٤) - عقد
الوفاة لمملكة كنت (ص ٢٢٥) - ثم لمملكة نورثمبريا
(ص ٢٢٦) - ثم لمرسيا (ص ٢٢٧) - ثم لوسكس
(ص ٢٢٧) - الفريد العظيم ملك وسكس (٢٢٨) -
إدوارد الأكبر (ص ٢٣١) - النستان (ص ٢٣١) -
إدجار (ص ٢٣١) - إيلرد الثاني (ص ٢٣٢) - غزو الدانين
وقيام كانوت في الحكم (ص ٢٣٢) - عودة بريطانيا إلى حظيرة
المسيحية (ص ٢٣٣) - بعثة القديس أوغسطين إلى إنجلترا (ص
٢٣٤) - أوغسطين الصغير وأول رئيس لأساقفة كانتربري (ص ٢٣٥).

الفصل العاشر : مملكة البارديين بإيطاليا : ٢٣٧ - ٢٥٣

ظهور البارديين وأحوالهم قبل غزوهم لإيطاليا (ص ٢٣٧) -
الغزو الباردي لإيطاليا سنة ٥٦٨ (ص ٢٣٩) - مقتل
ألبرين واختيار كليفلد ملكا (ص ٢٤٢) - السلطة البيزنطية
في إيطاليا (ص ٢٤٢) - مدى انتشار البارديين فوق
الأرض الإيطالية (ص ٢٤٣) - عودة البارديين إلى
اختيار ملك جديد (ص ٢٤٥) - التحالف بين البيزنطيين

صفحة

والفرجة لمحاربة البياردين (ص ٢٤٥) - ملوك المباردين :
 أوشارى (ص ٢٤٦) ، أجيلوف (ص ٢٤٧) . أدوالد
 (ص ٢٤٩) . رونارى (ص ٢٤٩) . ليتورال (ص ٢٥٠) .
 استولف (ص ٢٥١) - ازدياد نفوذ البابوية (ص ٢٥١) -
 حروبه . استولف ضد البابوية واستنجد هذه بالبابوية
 (ص ٢٥٢) - غزو شارلمان لإيطاليا ونهاية المملكة
 المباردية (ص ٢٥٢) .

الباب الثالث

ممالك النورمان بأوربا

الفصل الحادى عشر : غزوات الفيكنج : ٢٥٧ - ٢٨٤

من م الفيكنج (ص ٢٥٧) - صفاتهم (ص ٢٥٩) - أسباب
 غزوات الفيكنج في أوربا (٢٦٥) - الأدوار التي مرت بها
 غزوات الفيكنج (ص ٢٦٣) - غزو الفيكنج لإنجلترا
 (ص ٢٦٤) إنجلترا والدايين حتى الفتح النورمانى
 (ص ٢٦٧) - غزو الفيكنج لأيرلندا (ص ٢٦٨) - أيرلندا
 والنرويجيين (ص ٢٦٩) - الفيكنج السويديين (ص ٢٧٠) -
 غزوات اليكنج في روسيا وشرق أوروبا (ص ٢٧١) -
 دوقيات الفيكنج السويديين في روسيا (ص ٢٧١) - دوقية
 كييف (ص ٢٧١) - الفيكنج والإمبراطورية الكارولنجية
 (ص ٢٧٢) - هجمات الفيكنج على فرنسا (ص ٢٧٥) -

صفحة

ظهور رولفو (ص ٢٧٨) بدولية نورمانديا (ص ٢٧٩) -
 تأمر النورمان بظاهر الحضارة الأوروبية (ص ٢٨٠)
 حضارة الفيكنج (ص ٢٨١) - المجتمع الفيكنجي (ص ٢٨٢) -
 نظمهم السياسية (ص ٢٨٢) - مجمع أيطلندا الفيكنجي
 (ص ٢٨٢) - تراث الفيكنج الأدبي (ص ٢٨٣) الديانة
 المسيحية (ص ٢٨٣) .

الفصل الثاني عشر : ملكة نورمانديا في غالة : ٢٨٥ - ٣٠٦

غزو النورمان لنورمانديا وتأسيس مملكتهم فيها (ص ٢٨٥)
 رولفو (ص ٢٨٦) - استمرار الصلات بين نورمانديا
 وبلاد الشمال (ص ٢٨٧) - اعتناق النورمان للمسيحية
 الكاثوليكية (ص ٢٨٨) - بداية تحول النورمان إلى
 مواطنين فرنسيين (ص ٢٨٩) - أشهر أدواق نورمانديا
 (ص ٢٩٠) - وايم دوق نورمانديا السادس (ص ٢٩٠)
 علاقاته الخارجية (ص ٢٩١) - علاقته بأنجو (ص ٢٩٢) -
 علاقته بملك فرنسا (ص ٢٩٢) - التنظيمات الداخلية
 في نورمانديا في القرن الحادي عشر (ص ٢٩٤) -
 نورمانديا مجتمعا إقطاعيا (ص ٢٩٤) - القضاء (ص ٢٩٥)
 النظام الإداري (ص ٢٩٥) - الشؤون المالية (ص ٢٩٥) -
 وليم والكنيسة (ص ٢٩٦) - وليم وابلترا (ص ٢٩٧) -
 أمر وليم القابع في التاريخ الإنجليزي (ص ٢٩٨) -
 إمبراطورية وليم العظيم (ص ٢٩٩) - الظروف التي

صفحة

فيها فتح إنجلترا على يد النورمان (ص ٢٠٠) - معركة
هاستنجز (ص ٢٠٢) - نتائج الفتح النورمان (ص ٢٠٤)

الفصل الثالث عشر : مملكة النورمان بجنوب إيطاليا وصقلية : ٢٠٧ - ٢٣٠

تأسيس المملكة بجنوب إيطاليا (ص ٢٠٧) دور أبناء
موتفيل في تأسيس المملكة (ص ٢٠٩) - قدوم روبرت
جويسكاردي إلى إيطاليا (ص ٢١٠) جويسكاردي يرمي دعائم
حكم النورمان هناك (ص ٢١١) - موقف البابوية من
نشاط النورمان (ص ٢١٢) - النورمان وجزيرة
صقلية (ص ٢١٤) - أحوال الجزيرة قبيل الغزو النورمان
(ص ٢١٥) - الغزو النورمان لصقلية (ص ٢١٦) - سقوط
بالرم في أيدي النورمان (ص ٢١٨) - مقتل ابن هباد
واستلام الجزيرة للنورمان (ص ٢٢٠) - وفاة روجر
الأول (ص ٢٢١) - عهد سيديون (ص ٢٢١) -
روجر الثاني (ص ٢٢٢) - سياسته الداخلية (ص ٢٢٤) -
سياسته تجاه مسلمي مملكته (ص ٢٢٥) - علاقاته الخارجية
(ص ٢٢٦) - وفاة روجر الثاني (ص ٢٢٨) - السنوات
الآخيرة من عهد مملكة الصقليتين (ص ٢٢٨).

الباب الأول

الجرمان وغزواتهم في أوروبا

الفصل الأول

الجرمان

غزوات الكلت لأوروبا - الوطن الأصلي للجرمان - صفات الجرمان -
النظام الاجتماعي الجرمانى - حياة الجرمان الاقتصادية - تنظيماتهم
السياسية - الحروب بين القبائل الجرمانية - الإمبراطورية الرومانية
والجرمان - أسباب تحرك الجرمان إلى تقوم الإمبراطورية الرومانية

كانت الفترة الممتدة بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع فترة
انتقال حقيقية بين العصور القديمة في أوروبا والعصور الوسطى ، وضمت تلك
القارة على أعقاب مرحلة هامة في تاريخها دون شك ، فالعروف أن نعمة عوامل
كيفت التاريخ الأوروبي وسيطرت على مصائره حتى نهاية القرن الثالث ، منها :
الحضارة اليونانية ، والإمبراطورية الرومانية ، والديانة المسيحية ، لكن تظل
الجرمان في جوف الإمبراطورية الرومانية وغلبهم عليها غير مجرى التاريخ وأعلى
حامل آخر لتكييف التاريخ الأوروبي . (1)

ولم تكن غزوات أولئك المتبربرين من الجرمان هي أول غزوات واجهتها
الإمبراطورية الرومانية واصطلت بناءها عن إمتداد تاريخا الطويل ، وإنما سبق
لها أن تعرضت لغزوات ربما كانت أشد ضراوة ، وأكثر عنفا ، ونجحت إلى

(1) Heyck: "Rise of the Germanic races and the Coming of
the Barbarians" in the Book of Hist. V, VII. pp. 3423-5

حد كبير في إمتصاص إلتدافها وإستيعاب حضارتها ونظمها ، والتأثير فيها
تأثيرا كبيرا ومن بين هذه الغزوات غزوات الكلت Celts ، الذين مالبشوران
فقدوا شمع سلام وإستقرار وزراعة وشمع وغناء . (١)

والكلت هم أحد عناصر الجنس الهندو - أوروبي ، الذين تغدوا إلى أوروبا في
هجرة ثم صوب الغرب منذ أزمنة سحيقة ، حيث نزلوا أولا في الغابات الواقعة في
شمال أوروبا والجهات المعروفة الآن بجنوب ألمانيا ، ووديان أقال الدونوب والمادين
وأواسط الراين ، حتى نهر الإلب شرقا ، غير أنهم إضطروا تحس وطأة ضغط
الجرمان من الشمال ، إلى ترك هذه المناطق والانسحاب جهة الجنوب والجنوب
الغربي والجنوب الشرقي (٢) ، منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد فزولوا غالة
والجزر البريطانية ، بل اضطروا إلى الرحيل إلى إيطاليا ذاتها وبلاد اليونان
وآسيا الصغرى ، فأصبحوا يتناثرون في منطقة واسعة تمتد فيما بين شواطئ البحر
الاسود والمحيط الأطلسى ، غير أنهم مالبشوران ذابوا وسط محيط العالم الروماني (٣)
وقدبوا كثيرا من مقوماتهم الشخصية ، بل إصطبغوا بالصبغة الرومانية ، واغتفروا
المسيحية ، وأضحوا في نطاق الرعايا الرومان ، وإن ظلت بعض صفاتهم المميزة
ومقوماتهم الشخصية باقية في الجزر البريطانية وأيرلندا لتتطرف موقعا وبمدها
النفسى عن دائرة التأثير الروماني البحث . (٤)

(1) Cantora Medieval History. p. 121

(2) Katz: The decline of Rome and the rise of Medieval
Europe. p. 99

(3) Heyck: op. cit. p. 342/

(4) Trevelyan : Hist. of England. Part I. pp. 10-11

وإذ ذاب الكلت وسط محيط السكان الرومان ، وإستمر اندفاع الجرمان نحو الجنوب والغرب ، إلى وادى الدانوب والراين وفي اتجاه الحدود الرومانية ، طوال القرون الأربعة الأخيرة قبل الميلاد ، أصبح الرومان وجها لوجه أمام العناصر الجرمانية على طول الحدود^(١) ، على الرغم من أن الرومان لم يتموا اكتشاف هذه العناصر المتغيرة أول الأمر ، نظرا لانشغالهم بشؤونهم الداخلية وتوسيعهم الخارجي ، ولعدم اكتراثهم بعد ذلك^(٢) ، فضلا عن أن الجرمان لم يكونوا قد بدؤوا بعد غزوهم للعالم الروماني ، لكن ترتب على نقاط الرومان في القرن الأخير قبل الميلاد ، والقرن الأول الميلادي ، أن أصبح الاتصال مباشرا بالجرمان ، وسرعان ما اتضحت هذه العناصر المتغيرة أمام الرومان وفهم الرومان كثيرا من صفاتها^(٣) . وكان الجرمان في اندفاعهم نحو الجنوب تجاه غالة قد دفعوا أمامهم الكلت من كل الأراضى الواقعة شرقي الراين وأصبحوا قاطب قوسين أو أدنى من احتلال غالة ذاتها^(٤) ، ونظم على الرومان أن يسبقهم إليها إذا كان لهم أن يحتفظوا وحدة إمبراطوريتهم ، وسحين قام يوليوس قيصر بهذه المهمة في القرن الأول قبل الميلاد ، غدا وجها لوجه أمام هذه العناصر الجرمانية ، هذا فضلا عما ترتب على توجيه الحملات الرومانية إلى الحدود ، والقيام بالنشاط

(1) Lot: *The end of the ancient World*. p. 167

(2) Fagnalot: "Barbarian assassination" in: *The Medieval World 300-1300*, by Cantor. p. 16

(3) Hayek: "The rising tide of tonton power" in the *Ek Hist*, V. VII. pp. 3431-33

(4) Cantor: *Med. Hist.* p. 121

التجارى من ازدياد الاتصال المباشر بهذه العناصر ، وحدث الاحتكاك بين الهمايين^(١)

والموطن الأصلى للجرمان هو المناطق المحيطة بالبحر البلطى ، لكنهم انتشروا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين فى أواسط أوروبا وشرقها ، وأصبحوا أقرب الشعوب المتبريرة إلى حدود الامبراطورية الرومانية . وعما رواه يوليوس قيصر عن حملاته فى غالة من وصف للجرمان^(٢) ، فى مذكراته الواردة فى كتابه de bello-gallico ، وعما ورد فى كتابات تاكيتوس فى أوائل القرن الثانى الميلادى ؛ تتضح صورة الحياة التى كانت تحياها هذه العناصر المتبريرة ، وطرقها فى المعيشة وأساليبها فى الحياة العامة وحياتها الحربية^(٣) ، وتظهر الروايات إلى أنهم قوم من البدو الرحل ، يعشقون الحرب ويؤدون شغفا بالصيد ، ولا يميلون كثيرا لامتثال الزراعة ، على أن أممضا لهم كرم الضيافة ، واحترام العهد والشجاعة الفائقة والنظافة والعفة ، وأنهم يتخذون من جلود الرنة لباسا يغطي جانبها مشتبلا من أجسادهم^(٤) ، ويستمتع ذكورهم وأنثاهم معا فى الانهار ، وغذاؤهم اللحم والجبن والبن ، ويجوسون خلال الغابات والمستنقعات وهم دائما على أهمية الرحيل من مكان إلى مكان ، وليس لهم دخل سوى ما يمكن أن يحصلوا عليه بطريق الحرب والنهب^(٥) ، وقد أسهب فى ذلك تاكيتوس كثيرا .

(1) Kotz: op. cit. p. 100 .

(2) Trevelyan: op. cit. p. 13, p. 29

(3) Tacitus: "Germanic institutions" in Med World. pp. 48 - 60.

(4) Ibid, p. 56

(5) Keen: A History of Medieval Europe. p. 12

على أن تاركيتوس جعل هدفه في كتاباته عن هذه العناصر البدائية ، أن يثاقن بين مثالية حياتهم وبساطتها وبعدها عن الانحلال ، وبين الفلاس المجتمع الرومانى فى حياة الترف والدعة والاغراق فى الرفاهية ، وأن يضع أمام عيون الرومان صورة الحياة البسيطة لهذا العنصر البدائى بما تعطى عليه من حرية وببل فى الصفات لتكون مادة لتطهير المجتمع المتحضر من شوائب الانحلال والرفاهية وإثارة العافية ، وهو أمر جعل كتابات تاركيتوس تقتدر أسبانيا إلى الدقة ، ويعتمد إلى حد ما عن الحقيقة (١) ، إلا أنه مع ذلك أعطى صورة عن الشعوب الجرمانية فى أوائل القرن الثانى الميلادى فيها جانب كبير من الوضوح قبل أن ترداد معرفة الرومان بهذه الشعوب لإدراكها مطردا ، ليصبح الجرمان معروفين تماما لعالم الرومان فى القرنين الثالث والرابع (٢) .

وجرمانيا كما وصفها تاركيتوس كانت منطقة تكتنفها الغابات وتغطيها المستنقعات انعكست وحشتها وما كان يكتنفها من غموض على طباع سكانها ، لكن العنف لم يكن هو كل ما أختص به الجرمان من صفات ، فهم كذلك أصحاب أجسام قارحة وبشرة ناصعة البياض وعيون حادة ورق وشعر أشقر

(١) نعمة : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى - ج ١ - ص ١٨

ابراهيم طرخاوت : تاركيتوس ص ٥١

ول ديوانت : قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٣ ص ١٥

(2) The most Valuable description of Germanic life by any ancient historian is "Germania" of Tacitus written in 98 A.D. which comes to about fifty pages in modern print. Cantor : Med. Hist. p. 122

مرسل ، ثم كانوا يشربون الخمر حتى الثمالة ، ويتبهون في عالم الشراب والإسلام
ويهودن التماجر والمقامرة ، ويقتون ويشغفون بالفناء ، ولا ينفق إخلاصهم
الشديد للسيد والمسيحة سوى شهواتهم الجاهلة دائماً نحو المغامرات الحرية (١) .

ويستمر رباط الأسرة القوي لدى الجرمان ، وروايتهم للبراء ، وكرمهم لتعدد
الزوجات وحبيبهم للاكتثار من الذرية ، فضلاً عن تمتع الأب بسلطة تامة على
زوجته وأولاده ، من أهم عياداتهم الاجتماعية ، وهي صفات لم تتغير باختلاطهم
بالرومان (٢) ، وحازت في نفس الوقت إعجاب الرومان المحافظين الذين ما فتئوا
يعلنون إعجابهم لانحراف قومهم عن الطريق المستقيم . والواقع أن مبدأ الاكتثار
من الذرية في الأسرة الواحدة ، أدعى إلى تفوق الجرمان على الرومان تقسوا
عددياً حاسماً حين اندلعت الحروب بينها وأستمر بينها القتال (٣) . وتعتبر الأسرة
وحدة النظام الاجتماعي الجرمانى ، وكانت أسرة متأسكة يتمتع فيها الزوج بسلطة
تامة على أفرادها وقد بلغت هذه السلطة حد قتالهم والتكليف بهم ، على حين كان
جميع أفراد الأسرة مسئولين مشتركة عما يرتكبه أحدهم من جرائم ،
ومتضامين في الأخذ بثأر قتلهم أو الحصول على دية مرضية عنهم (٤) ، وتأنف

(١) نصر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . ص ١٩

Ripley: The Races of Europe. p. 106

The Med. World. by Cantor. pp. 49-50

(2) Heyck: op. cit. p. 3443

(٣) نصر : نفس المرجع ص ١٩

The Med. World. 300-1300. by Cantor: p. 49-50

(4) Katz: op. cit. pp. 100-1

المشيئة من مجموعة الاسرات ذات القرابة ، ولم يلحق المشيئة الجرمانية تفسير كبير بمرور الاجيال ، بل ظلت تحتفظ بكثير من خصائصها وسماتها ، إذ عاشت دائما في صخب ، وتمتع رئيسها بمكانة متأزة وسلطة تكاد تكون مطلقة (١) ، وحصل من وفائه المحاربين على يمين بالولاء وعهد بالدفاع عنه وحمايته (٢) ، وتعتم على ذلك الرئيس أن يبالغ في إظهار كرمه وسخائه نحو وفائه فيبذل لهم الجياد والمحارب ، ويقيم لهم الحفلات والولائم من حصيله الحروب والنهب والسلب . ومن مجموعة المشائر المختلفة كانت تتألف القبيلة الكبرى أو الفرع الجرمانى الكبير أو الدولة الجرمانية (٣) ، وأنتظم الجرمان من حيث بناء المجتمع في ثلاث طبقات طبقة النبلاء وطبقة الاحرار وطبقة العبيد ، فبينما كان العبيد يقومون بأعمال الفلاحة وزراعة الأرض وغيرها من الاعمال اليومية ، لاقتصر دور النبلاء وهم صفوة المجتمع الجرمانى على ممارسة الحرب . والتمتع بشرف الانتساب للقبلة المميزة في المجتمع وهى فئة المحاربين (٤) ، وكذلك قضاء فترات السلم في حياة لاهية ، وممارسة الصيد والقتل وإبراز سمات الأرستقراطية الجرمانية ، ولم يحتل أحرار الجرمان منزلة هامة في هذا البناء الاجتماعى ، إذ لم يزيدوا كثيرا عن طبقة الفلاحين من العبيد ، وإن تميزوا عنهم بملكيتهم قطعيا صغيرة من الأرض (٥) لأن الحرية في هذا المجتمع أرتبطت إلى حد كبير بملكية الأرض مثلا أرتبط

(1) Heyck: op. cit. pp. 3439-40

(2) Camb. Med. Hist. V: 1: p. 8,31

(3) Keam: op. cit. p. 11

(٤) موس : بلاد المصور الوسطى (ترجمة جاويد ومراجعة النرائى) ص ٨٠-٨١

(5) Cantor: Med. Hist p. 126

و التبل ، بالوراثة وشرف الملوك بصرف النظار عن ملكية الأرض (١) .

ونظرا لما اكتنف أرض جرمانيا من غابات ومستنقعات ؛ فقد كانت حياة الرعي تمثل عصب الحياة الاجتماعية في العصور الأولى ، ورغم أن مساحات متفاوتة من تلك البلاد كانت تصلح للزراعة ، ولهذا حددت قطعان الماشية والحيل ثروة الأسرة أو المعائر الجرمانية ، وعينت قدرماني المنجم (٢) ، وتجمع الجرمان في قرى صغيرة وكثور متناثرة ، حول منابع الماء والمرعى والأحراش ، وغدت القرية تشتتل في الغالب على حقل مزدروع ومرعى تخرج فيه القطعان وغابة تحمي القرية وتمدهما بالأعشاب وحيوانات الصيد ، وكانت منازل القرية الجرمانية لا تزيد على أكواخ مقامة من أغصان الفجر ومدعمة بالطمي (٣) ؛ وكان طعام الجرمان بسيطا خاليا من الإسراف ، قوامه الحبوب ولحوم الصيد وألبان الماشية والفاكهة ، وشرابهم يصنعونه من الصبر . وظلت الماشية تعد ثروة الجرمان ، وكانت الزراعة تمثل جانبا ضئيلا في حياتهم الاقتصادية حتى تحولوا زمن هجراتهم من الرعي إلى الزراعة ، فلما استقروا داخل حدود الإمبراطورية الرومانية ، لم يعد ثمة فارق كبير بين حياتهم الزراعية وحياة المجتمع الروماني ، ولهذا تعاونت القرية الجرمانية مع المزرعة الرومانية في إظهار نظام الضياع في أوروبا الذي غدا عصب النظم الزراعية في العصور الوسطى (٤) .

(١) Heyck: op. cit. p. 3440-1

(٢) Ibid. p. 3440

(٣) Kats; op. cit. p. 99

(٤) كوبلاند وفينوجرادوف : الاصلح والعصور الوسطى (ترجمة زائدة) ص ١٠٢-١٠٤

وعلى إختلاف الوحدات السياسية التي أنتظم فيها الجرمان ، وجدت مجالس أو جمعيات تضم جميع الرجال الأحرار في الوحدة ، سواء أكانت قرية أم مائة أم مقاطعة أم قبيلة جرمانية أم دولة قبلية كبيرة (١) ، فكل من هذه الوحدات يجلسها العام ، وكان للقرية وهي أصغر هذه الوحدات مجالسها أو جمعياتها العمومية التي تضم جميع رجالها الأحرار ، كما كانت للدولة الجرمانية ، وهي أكبر هذه الوحدات ، جمعياتها العمومية ، التي تجتمع كلما عن أمر يتصل بمصلحة القبيلة بأسرها كالحرب أو الهجرة (٢) ، غير أن تلك الأمور الهامة كان ينظرها رؤساء العشائر قبل أن يجرى عرضها على الجمعية العامة التي تضم جميع المحاربين الأحرار والوجهاء ورجال الأسرات النبيلة ، ويحدث فيها الزعماء والقادة كل حسب عمره ونبل أصله وفصاحة بيانه وصيته في الحرب . فإذا قبل العاضرون رأيه وحاج إلى إعجابهم أحشوا صنبا وقارها الجراب ، وإذا لم يحر رأيه رضاهم أعطوا ورفضهم له بالصياح (٣) . وفيما عدا الجمعية العمومية الدولة الجرمانية أو القبيلة الكبرى ، التي لا تجتمع إلا لتنظر فيما يتعلق بمسائل الحرب والهجرة ، والنظر في القضايا الخاصة بإعدام الخوثة والمارقين ، وقذف الضعفاء والجبناء ودعاة البريعة في المستنقعات ، ومتركبي الجرائم المخلة بالصرف ، كانت الجمعيات الصغيرة تنعقد في أوقات السلم أيضا لتنظر في المسائل المدنية التي تهم الأفراد (٤) ، وفي الجمعية

(1) Heyck; op. cit. p. 3441

(2) Tacitus: "Germanic Institutions" in "Med. world" by Cantor. p. 53

(٣) موس : ميلاد الله ور الوسطى ص ٨٠ 7-126 pp. Cantor: Med. Hist.

(4) Heyck; op. cit. p. 3441

العمومية الكبيرة. كان يجري اختيار القادة الكبار طبقاً لدميتهم الحربية ودوجة بنائهم ، تم جرى اختيار الملوك بعد ذلك وفقاً لمراقبة أصولهم ودرجة بلبلهم^(١)

ومن العجب حقاً أن يحيا الجرمان برغم وحدة أصولهم وتشابه عاداتهم ، حياة خالية من الروح القومية ، طافحة بالحروب الداخلية والمنازعات القومية ، فقد حاربت القبيلة أختها من القبائل وشاجرت العشرة جاراتها من العشائر ، حتى لم يعد الجرمان سوى جموع من القبائل المتحاربة المتشاجرة ، كما أن نظرتهم لجاراتهم الامبراطورية الرومانية اختلفت أيضاً ، فنظر اليها بعضهم على أنها عدو ينبغي محاربتها ومناهضته ، فى حين نظر اليها البعض الآخر على أنها موطن يرحى إستيطانه ومصدر للرزق يمكن الإفادة منه بيلد الخدمة العسكرية^(٢).

والواقع أن الامبراطورية الرومانية أصدمت بمجموعتين كبيرتين انقسم اليها الجرمان ، بعد انسياب الجباب الأعظم منهم من شبه جزيرة اسكنديناوه الى جوف القارة الاوربية ، فضمت جموعة الجرمان الغربيين : الفرنجة والإنجليز والسكسون والسوفييين والالمان وضمت جموعة الجرمان الشرقيين : القسوط والوندال والجيدياي والبرجنديين والمبارديين والرومانيين وغيرهم^(٣) . وفى حين بقى فريق من الجرمان فى شبه جزيرة اسكنديناوه ، حيث تضرعت الامم السويدية والنرويجية والدانايه العاليية ، وصل فريق فى رحلته جنوباً بنزول عبر المانيا - سميانوزاء العيش أو الجرالداني- أو حبسا فى المغامرة والحرب - الى حوض نهر الراين ، فى حين اتجه فريق ثالث وجهه شرقية ،

(1) The Med. World. by Cantor. p. 51

(٢) نصر : نفس المرجع ص ٢٠

(3) Katz: op. cit. pp. 99-100

فرصل إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود ، وهذان التياراتان المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الإمبراطورية الرومانية (١)

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اختلاف كبير بين الجرمان قبل هجراتهم فإن الاختلافات ما لبثت أن ظهرت بينهم بعد الهجرات بسبب اضطراب كل فريق إلى موامعة حياته في البيئة التي حل بها ، فبينما انساب جماعات الفرنجة والسوفييين والنسكون والألمان من مواطني نهر الجنوب إلى بلاد لا تختلف كثيراً في طبيعتها عن بلادهم ، فصاروا إلى شيء من الزراعة والاستقرار قبل أن يغيروا على الإمبراطورية الرومانية (٢) ، نجد القسوط والوندال واللبسارديين في الفرع الشرقي قد هاجروا إلى سهوب البحر الأسود وإلى بلاد بالغة الاختلاف عن بيئاتهم ، ولذا ظفروا حياة يضربون في مناكب الأرض الوعرة والقفاريات بساكنتهم وهراباتهم طلباً للعيش وللرحى ، كما ظفروا فرساناً شديدي البأس (٣) وهكذا ظل الجرمان الشرقيون في حالة بدو لم يصيبهم كثير من التغير ، وظفرواهم ليست سوى هجرات وتحركات تبدأ وتنتهي عن آن إلى آن بحثاً عن مراع جديدة ومواطن صالحة لهذه الحياة ، بينما اتخذت غزوات الجرمان الغربيين حفة الوصل الدائم مع الاحتفاظ بالآصول والموطن تمد وتدعم وتقوى بانتظام (٤) . وظل الجرمان يختلفون اختلافاً بيناً عن سكان الإمبراطورية الرومانية حتى بعد انقضاء

(1) Ortom: The Shorter Caml. Med. Hist. V.I. pp. 360-64

(2) Cantor: Med Hist, p 125

(3) Heyck: "The great Teutonic deluge" in B.H. V.VII p. 3447

(4) Heyck: "Rise of the Frankish dominion" in B.H. V.VII. p. 3471;

إلى تخوم الدولة ، فبقوا قبائل متحاربة ، وعشائر متساجرة ، وظلوا أعباء متخلفة من الناحية الحضارية تقتصر إلى نظم إدارية وثقافية وفكرية ، وبقيت حياة البداوة تغلب عليهم ، وليس لهم شيء من التجارة والصناعة ، لكنهم كانوا شديدي التحمس للإفادة من مظاهر الحضارة التي غدوا بقرىها^(١) ، وعلى استعداد لتقبل كل ما من شأنه أن يرقى بهم ، حتى ليصبح من الصعوبة بمكان أن نفرق بين ما هو من أصل جرمانى بحث وما هو من أصل رومانى^(٢) .

جل أن الإفادة من مظاهر هذه الحضارة والإفادة من ثروة الأراضي الرومانية وخصبها كانتا من بين الأسباب التي أدت إلى تحريك الجرمان إلى تخوم الإمبراطورية الرومانية ، فضلا عما اكتسفت المنطقة من حولهم من تفرعات ساهمت في دفعهم إلى جوف الدولة الرومانية ابتداء من أواخر القرن الثاني الميلادي^(٣) ، فقد ضاقت بهم سهل الميـش نظرا لتزايد أعدادهم وفقر أراضيهم ، وشغل مساحات شاسعة منها بالغابات والمستنقعات وعدم كفاية زراعتهم البدائية لحاجة السكان ، فضلا عن تعرضهم لكراثس الطبيعة من جفاف ومجاعات وفيضانات وحرائق في الغابات وصواعق أدت إلى تحريكهم إلى مواطن جديدة^(٤) ، هذا بالإضافة إلى ما حدث من ضغط قبائل أخرى كالمـقالبة والسلاف من جهة الشرق ، كل هذا جعلهم يتحركون التماسا لمواطن جديدة ، عبر نهري الراين والدانوب ، يتطلعون في حـد وغـيرة للأراضي الوادعة والحقول المزروعة والمدن الصاخبة على الجانب

(1) Pirennes op. cit: 22

(2) Kats: op. cit. p. 10

(3) Heyck : " The Rising tide of Tenton power " B. H. VII, p. 3443

(٤) موس : المرجع السابق ص ٨٧-٧٨ ، Cantor: Med. Hist. p 122

الأخر من صفاف النهرين الكبيرين (١). غير أن تحرك فريق من الجرمان الشرقيين
وم القوط إلى داخل الإمبراطورية الرومانية كان نتيجة لتحرك شعب أسوي
آخر أشد حرارة وأكثر وحشية ، وهو شعب الهون ، إذ يبدو أن الظروف
المناخية كانت قد تغيرت في آسيا الوسطى ، وازدادت البيئة فيها قسوة ، فأدى
ذلك إلى اندفاع شعوب متديرة ومنقطها على سكان الجهات المجاورة (٢) ، وكان
تحرك الهون صوب الجنوب والغرب بمثابة قارة آسيا إلى حوض نهر الدون في
النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي فهزموا القوط الشرقيين ، وراحوا
يدفعونهم وغيرهم من الجرمان إلى جوف الإمبراطورية الرومانية (٣) .

والواقع أن علاقة الجرمان بالإمبراطورية الرومانية مرت بأدوار مختلفة ،
وانتهت بنزوح الجرمان لأراضي الإمبراطورية وإقامة ممالك جرمانية بين وبوعها
ويشير كثير من الدلائل إلى أن هذه العلاقة بدأت بفترة من السلم والتعاون بين
الجهابيين استمرقت نحو قرنين من الزمان (٤) حتى نهاية القرن الثاني الميلادي
وبالتحديد بنهاية عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠ م حيث أخذت
القبائل الجرمانية للرابطة على حدود الدولة إلى السكنى في حين تكفلت استحكامات
الدفاع الرومانية بكبح جماح هذه القبائل ووضع حد لاطلاعها ، لكن الأمور

(1) Camb. Med. Hist, V. I. p. 188

(2) Hayek: "The great Teutonic deluge" in B. H. VII.
pp. 3453-4

(3) Grant: Outlines of European Hist. p. 127

(4) Hayek: "The rising tide of Teuton power", B.H. VII.
pp. 3443-5

أخذت تقبل في غير صالح السلام ابتداء من أواخر القرن الثاني ، حين علقت
قبائل الجرمان في حوض نهر الدانوب (١) ، واتخذت مجاهتهم طوال هذا
الدور طابع الهجمات المتفرقة والمعمليات الحربية المتقطعة المنفصرة للرباط أو
الوحدة أو الحطة الشاملة والمعتمدة على الظروف المتغيرة والعوامل المحركة كمنطق
التقابل الأخرى وحدوث الجماعات ، غير أن عبث القوط امتد في البلقان سنوات
طويلة خلال القرن الثالث حتى تمكنت الإمبراطورية من هزيمتهم سنة ٢٧٠م (٢)
وتأخير تغفلهم في أراضيها ، وساعد على كبح جماح هذه القبائل حينذاك ما حدث
من تنازل الإمبراطورية عن إقليم داشيا بالبلقان ليقبم به القوط ، فاستقروا به
واخلدوا إلى السلم فترة ، وتأثروا بالمسيحية ، وأخذوا يفيدون من مظاهر
الحضارة الرومانية (٣) ، واستمر تغفل الجرمان في جوف الإمبراطورية بالهجوم
تارة وبالقرب البطيء تارة أخرى ، حتى أواخر القرن الرابع الميلادي وساعد
على ذلك ما حدث من اتجاه الإمبراطورية للاستفادة من هذه العناصر المتمسكة
الوافرة النشاط واستخدامهم جنداً مرتزقة في الجيوش الرومانية ، وأصبح بعض
المبشرين على مصائر الإمبراطورية من القادة يهيم في عروقهم دماء جرمانية (٤)
بعد أن أصبح التفاعل والتزاوج بين الجائين أمراً مألوقاً في القرنين الثالث
والرابع . على أن الهجمات الجرمانية ما لبثت أن تجددت في الربيع الأخير من
القرن الرابع بطريقة جديدة تبين بداية مرحلة ثالثة في العلاقات بين الجائين ، ذلك

(1) Katz: op. cit. p. 21 .

(2) Camb. Med. Hist. v. I. p. 188

(3) Heyck : "The great Teutonic deluge" B. H. VII p. 3447

(٤) رستونزت : تاريخ الإمبراطورية الرومانية (ترجمة د. زكي علي) ص ١٧٤ ،

Hussey : The Byzantine World. p. 15

أن مجتمعات الجرمان في هذا الدور اتمسكت بطابع المجتمعات المنظمة والمجسرات
الجماعية الكبيرة^(١)، المرتكزة على خطط حرية هامة واستمرت هذه الحركة
نحو قرفين من الزمان استطاعت خلالها القبائل الجرمانية الكبيرة إخضاع
أقاليم رومانية كبيرة وفرض استقرارها داخل حدود الإمبراطورية الرومانية
قهرأ، وإقامة ممالك جرمانية معروفة ظلت قائمة فترات متفاوتة تساهم في صنع
التاريخ الأوروبي الوسيط^(٢).

(1) Heyck : op int. pp. 3447-8

(2) Oman : The Dark ages. p. 4

الفضل الثاني

غزوات الجرمان

القوط الغربيون - أمر ضفط الهون في تحرك القوط الغربيين -
القوط الغربيون والإمبراطور فالنز والإمبراطور ثيوديسيوس العظيم -
الآريك المسور وغزو إيطاليا - إبعاد القوط الغربيين عن إيطاليا إلى
جنوب غرب غالة - الوندال ونزوح جيزريك إلى شمال إفريقيا -
سياسة جيزريك في شمال إفريقيا - البرجنديون وغزوهم لغالطة وإستقرارهم
بين جبال الألب ونهر الرون - الهون وولاية أتيلا - غزو أتيلا لغرب
أوربا - هزيمته عند شالون - حصاره لروما وإسحابه ثم وفاته -
نهاية الإمبراطورية الغربية سنة ٤٧٦ م - على يد أداكر - أهمية هذا
الحدث - غزو القوط الشرقيين لإيطاليا بقيادة ثيودريك - الفرنجة وغالة -
انتصار سياجريوس - تمايز الفرنجة عن بقية العناصر الجرمانية -
إعتناق كلوفس للمذهب الكاثوليكي - أثر هذا في تاريخ الفرنجة - سياسة
كلوفس في غالة - غزو الانجليز والسكسون والموت لبريطانيا -

تميزت هجرات الجرمان منذ أواخر القرن الرابع إذن ، بطابع الهجمات
المنظمة والهجرات الجماعية الكبيرة ، وانتهى الأمر باستقرار الجرمان الدائم داخل
حدود الإمبراطورية الرومانية ، وتأسيس ممالك جرمانية معروفة ، ظلت قائمة
قرون متفاوتة ، لتصبح أحد العناصر المكونة للتاريخ الأوروبي الوسيط .

ويمثل غزو القوط لأراضي الإمبراطورية الرومانية أكثر الغزوات إثارة
وأشدّها قسوة ؛ فمن موطنهم الأصلي في اسكندنافيا ، عبر القوط البحر البلطي

ووصلوا إلى مصب نهر الفستولا ومنه بدعوا سيرهم وطسرافهم ، قرب منتصف القرن الثاني الميلادي ، جهة الجنوب الشرقي واستقروا شمال البحر الأسود ، مكونين مجموعتين كبيرتين : هما القوط الشرقيون Ostrogoths والقوط الغربيون Visigoths (١) . وفي حين إتجه القوط الشرقيون نحو حوض نهر الدون وسهول روسيا الجنوبية ، إتجه القوط الغربيون نحو بلاد البلقان وإقليم داشيا . الذي تنازلات عنه الامبراطورية مرغمة (٢) . وسمحت للقوط بالإقامة فيه نحو قرن من الزمان (٢٧٥ - ٣٧٥ م) قبل أن يعبروا إلى داخل الامبراطورية ويقيموا ملك مستقرة ، ويقوضوا نفوذ الحكومة الغربية وسلطانها (٣) . على أن القوط مالبثوا أن أظهروا من الحماسة لتقبل الحضارة التي أحضروا بقربها ما جعلهم شديدي التأثر بعناصر تلك الحضارة ، صرعى التعلم لكل ما كانت الإمبراطورية تود أن تعلمه لهم (٤) ، فسرعان ما اعتنقوا المسيحية الأريوسية على يد مبشر يدعى أولفلاس (٣١٠ - ٣٨٠ م) ، وهو يوناني من إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، نال قسما من التعليم في القسطنطينية ، وترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية (٥) واهتم بنشر المسيحية بين أهل البلاد التي اتخذها موطنها ، وساعده على ذلك ما حدث من إقبال القوط على تفهم الدين الجديد ، لإتحاذه وسيلة للتلاؤم على الحياة الجديدة التي حرصوا على المشاركة في ركبها (٦) .

(١) Cantor : Med Hist. pp. 121-2

(٢) Hayek : op cit. p. 3447

(٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ١٠ (ترجمة د. عبد الحيد محدي)

(٤) Pirenne: op. cit. p. 22

(٥) Rafael Altamira : A. Hist. of Spain. p. 76

(٦) نفس المصدر نفس المرجع ص ١٢ ، Grant ; op. cit. p. 120

غير أن الهون مال بشوا أن نفذوا إلى ريوخ داشيا سنة ٣٧٦ م ، وهدموا
 هضائر القوط الغربيين وأجلوهم عن تلك المقعدة (١) ، فتوسل القوط الغربيون
 إلى الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨ م) أن يهبهم طعناً ثانياً يحتمون
 به من خطر الهون ، فسمح لهم الإمبراطور بعبور نهر الدانوب والالتجاء إلى
 الأراضي المهجلة في تراقيا ومحاولة استصلاحها ، ويبدو أن الإمبراطور كان يهدف
 إلى الإفادة من القوط لحماية حدود الإمبراطورية عند الدانوب ، واتخاذهم
 حاجزاً بينه وبين الهون (٢) ، إلا أن الإمبراطور ما لبث أن أدرك مقبة هذا
 العمل ، وعرف أبعاد هذا الخطأ ، إذ لم يكن بوسع السلطات الرومانية توفير
 سبل العيش والحياة المستقرة لهذه الجموع الكثيرة ، وكبح هاجمها عن العبث
 بالمجتمعات المجاورة ، وسرعان ما أحس القوط بالضجر والضييق من الوضع
 الجديد ، وقاسوا شغل العيش في معاديرهم الجديدة ولم يقتنعوا بأن يكونوا
 مواطنين ، فأخذوا يفرضون سلطانهم على السكان المجاورين ، ويستولون لحسابهم
 الخاص على كل المنطقة حتى نهر الدانوب (٣) ، وإذا طغى الكيل بهم في النهاية ،
 أعانوا الثورة على الإمبراطور فالنز والتجشروا إلى السلاح ، فاستبد القوط بالإمبراطور
 فالنز ، وكان حينذاك أنطاكية ، فبادر بالنهوض في جيش من الشرق غير منتظر
 قدوم إمدادات من الغرب ، فتمرضع لهزيمة ساحقة في موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ م (٤) ،

(1) Camb. Med. Hist. V. 1. pp. 215-6 , "Ammianus
 Marcellinus. pp. 576-9" tran. by Yonge. in: The Med.
 World, by cantor. pp. 68-70

(2) Heyck : op. cit. p. 3449

(3) Jordanes : "The Visigothic Conquest" tran. by Microw
 pp. 89-96. in Med. world, by Cantor. p. 71

(4) Heyck : op. cit. p. 3450.

ولقى حتفه على أيديهم ، بعد أن اجتاحتها . بخيالهم الثقيلة جيوشه الراجعة ، وحصلوا على نصر كبير بدءوا به مرحلة هامة في علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية (١) .

أدرك الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨ - ٤٢٩ م) خليفة فالز أن معاداة القوط ليست من الحكمة في شيء ، ولهذا حرص على عاولة استرضائهم ، ونجح بفضل مهارته السباحية في تحويل القوط الغربيين إلى معاهدين أوفياء ، وذلك حين هيا لهم موطناً آمناً في إقليم تراشيا ببلاد اليونان (٢) ، وسمح لمن يرغب منهم بالانخراط في الجيش جنداً مرتزقة ، ووافق على احتفاظهم باستقلالهم القبلي وخصائصهم القومية واحتفاظهم بقوانينهم وعقيدتهم الآريوسية ، وأعطاهم من الضرائب نظير تقديم الخدمة العسكرية ، وكان ذلك بمعاهدة عقدتها معهم ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للأحداث اللاحقة (٣) . على أن أجماد ثيودوسيوس التي كفلت له التمتع بلقب ثيودوسيوس العظيم هي التي منحت الإمبراطورية سلاماً مع هذه العناصر المتبربرة ، امتد قرابة ثلاث عشرة سنة منذها منهم صداقة عزمنا لها لفترة طويلة وجمراً إيماناً على العيش في سلام مع الرومان (٤) ، غير أن الظروف مالبت أن تغيرت في غير صالح الإمبراطورية بعد وفاة هذا الإمبراطور العظيم سنة ٤٢٩ م ، إذا احتل العرش بعده ابنان ضميان أحدهما أركاديوس الذي كان وقتذاك في الثامنة عشرة من عمره ، والذي

(١) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 48

Katz : op. cit. pp. 88-9

(٢) للمرة نفس المرجع في ١ ص ٧٧

(٣) Katz : op. cit. p. 30

(٤) Pirenne: op. cit. pp. 23-4

وصف بأنه كان قليل الحجم بادی الکآبة بطیۃ الحدیث ، ویبدو دائماً کأن لو کان نائمًا ، بینما کان الآخر هنوریوس فی الحادیة عشرة من عمره ، ورغم تدبیه ومظهره المہذب فقد کان قاصرًا مثل أخیه ، فضلًا عما اتم به من عناد وقلة کفاية (١) ، وقد احتل الأول القسم الشرقي من الإمبراطورية وعاصمته القسطنطينية ، فی حين احتل الثاني عرش القسم الغربي من الإمبراطورية وعاصمته رافنا Ravenna (٢) ، وهد ذلك أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة لتاریخ الإمبراطورية الرومانية بصفة خاصة والتاریخ الأوروبي الوسيط بصفة عامة ، إذ انقسمت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت إلی قسمین ، وبدأت وحدتها تفتت وقوتها تضعف (٣) ، ونضع أركاديوس فی القسم الشرقي لسلطة طراشی یونانی ، يدعی یوتروپیوس ، وفتح الآخر - هنوریوس - فی القسم الغربي بسلطة شکیة فی ظل قائد وندالی قوي يدعی ستيلاکو (ستيلخو) (٤) .

اتهر القوط الغربيون هذه الفرصة وأخذوا يعيشون فسادًا فی البلاد التي نزلوا بها غیر قانعین بما حصلوا علیه من امتیازات علی عهد ثيوديسيوس العظيم ، بل إنهم بادروا بانتخاب ملك عسكري عليهم فی سن الثلاثين مثلي - بالחסاس والمجسرة وهو ألياريك Alaric ، الذي أفضى مناجع الرومان ، وأفوج بمسارحة الحربية أقنعة المعاصرين (٥) ، إذ قاد عشائرہ من القوط الغربيين وهاجم أينما

(1) Lot : The end of the ancient world. p. 201

(٢) ديفز: نفس المرجع السابق ١٧-١٨، pp. 50، Ostrogorsky

(3) Heyck : op. cit. p. 3450

(4) Hussey, "The Byzantia world, p. 14

(5) Lot: op. cit. pp. 203-4

وتساليا واستولى على كورنثه وإسبرطة وراح يعمل بحماس للحصول لخدمة على إقليم خصب من أقاليم الإمبراطورية ، ولم تن عزيمته حين لحقته بعض الهزائم على يد القائد ستيلكو ، بل إنه بدأ يعد العدة لغزو إيطاليا ذاتها (١) ، وإذا كان القائد ستيلكو قد نجح في رد الأريك عن إيطاليا سنة ٤٠٢ م ، فإن الظروف مالبثت أن تغيرت في سنة ٤٠٨ حين اختفى استيلكو من مسرح الأحداث بعد اتهامه بالخيانة وإعدامه بأمر إمبراطور الغرب هنوريوس (٢) ، وكان ذلك في حد ذاته كافيا لفتح الطريق أمام الأريك لحصار روما ، وفعلًا تعرضت روما لحصار القوط الغربيين ثلاث مرات ، حتى اضطرت في النهاية لفتح أبوابها سنة ٤١٠ م للأريك ، فأباحها لقومه يعيشون فيها فسادا (٣) ، غير أن دخول القوط الغربيين إيطاليا واستباحتهم روما وهبها لم يكن في حقيقته سوى مرحلة من مراحل سعيهم للغزو بموطن دائم خصيب يقيمون فيه ، بدليل أن الأريك فكر في غزو إقليم شمال إفريقية الذي كان يمد روما بالغلل ، وسار بقومه نحو جنوب إيطاليا توطئة لعبور البحر المتوسط ، ولكن الموت لم يحمله إذ توفى في نفس العام (٤) ، قبل أن تتضح الخطط القادمة لتحرك هذه المجموع الغازية (٥).

وبصرف النظر عما حدث من صدمة للمعاصرين حين اقتحمت روما واستبيحت على يد القوط الغربيين ، وما حدث من مهارات أحدثت حينًا إلى حد التساؤل :

(1) Jordanes : op. cit. pp. 89 - 96 in Med. World. p. 71

(2) Heyk : op. cit. pp. 3451-2

(3) Bury : Hist of th later Roman Empire. V. 1 p. 180

جيون : اضلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٢١٦ (ترجم) .

(4) Pirenne : op. cit. p. 25

(5) Katz : op. cit. p. 91

أكان ذلك انتقاما لوثنية وآلحتها ومعايدها السالفة ، أم جزاء لاعتناق المسيحية
والتمسب لها ؟ فقد تلاشت تلك الصدمة سريرا وابتلعها المعاصرون في فتور^(١) ،
وبخاصة أن روما كانت قد ذوت مكانتها وتزعزع مركزها ولم تعد العاصمة
السياسية للإمبراطورية ، ولم تكن حمن المسيحية أصلا ، قبل أن تقيق من
غيوبتها وتمهض من عثرتها لتستعيد مجدها الثالث وعزها القديم^(٢) . ولقد أصحى
القديس جيروم باللائمة على سياسة ستيلخو فقال إن كل ما أصاب روما لم يكن
بسبب أباطرتها ولكن بسبب سياسة هذا الرجل الذي كانت تهرى في عروقه دماء
نصف بربرية^(٣) .

على أن الإمبراطورية الغربية ما لبثت أن أدركت أن بوسعها صرف أولئك
الغزاة من إيطاليا ، بمنحهم إقليبا آخر يوجهون إليه ، في أدك القوط الغربيون
أنه ليس من المصلحة في شيء هدم كيان الإمبراطورية والقضاء عليها وأن هذا الهدف
ليس واردا في خطتهم ، ولهذا التقى الطرفان في منتصف الطريق ، وكانت
جحور الوندال والآلانيين *Alans* والسويفين (*Suevi*) قد انسحبوا
نحو غالة واستباحوها ، وغدت تلك البلاد شبه مفقودة بالنسبة للإمبراطورية^(٤) ،

(1) Heyck: op. cit. pp. 3452-3

(2) Lettop. cit: pp. 197-80

(3) "... not by the fault of her emperors ... but by the
crime of a half-barbarian traitor (stilicho) ... who with our
money has armed our foes against us" انظر رسالة القديس جيروم بعنوان
The Barbarian Traitor في كتاب The Med. World, 300 - 1300
by Cantar. p. 11

(4) موس : قس ص ٤٤ Camb. Med. Hist. V, I. pp. 266-8

فلم يجد الإمبراطور هونوريوس غضاخة في صرف القوط الغربيين عن إيطاليا
بمنحهم إقليم أكويتين في جنوب غرب غالة في المنطقة الممتدة من نهر القوار حتى
حدود البرانس، على أن يستخلصوه من تلك المجموع وبذلك تضمن الإمبراطورية
تحقيق هدفين في وقت واحد، إبعاد القوط الغربيين عن إيطاليا، ودفع تلك
الجماعات - وهي أكثر منهم بربرية - عن غالة، ولذا حصل الإمبراطور
هونوريوس على موافقة مجلس السناتو، وأكدها بموافقة الدنخسية وهرمها على
القوط (١) ويبدو أن القوط الغربيين لم يحدوا غضاخة في الدفاع عن مصالح
الإمبراطورية، وفي نفس الوقت تحقيق أهدافهم الذاتية في الاستقرار، فقد مضوا
بحو غالة سنة ٤١١ م، بعد أن حل أنزل ملكهم الجديد الفئام التي حصل عليها
قومه إلى الموطن الجديد المزمع استخلاصه (٢)، ولم تمض عدة سنوات حتى كان
القوط الغربيون قد استقروا في الجزء الجنوبي من غالة في المنطقة الواقعة بين نهري
القوار والجاردون ومن بينها تولوز وبودو وبواتيه، قبل أن ينحسروا
السويشين والوندال عن أسبانيا ويقيموا بها مملكة مستقرة ظلت قائمة
لفترة طويلة (٣).

ولذا عدت هجمات القوط أكثر غزوات الجرمان إثارة في تاريخ الإمبراطورية
الرومانية، فإن غزوات الوندال وهم من فرع الجرمان الشرقيين أيضا تعد أكثر
تلك الغزوات لجأ وأحدها قسوة على الإطلاق (٤)، فقد اضطرت هؤلاء الغزاة

(1) Jordanes: op. cit. pp. 89-96 in Mod. World Canter. p.72

(2) Hayek: op. cit. p. 3452

(3) Ostrogorsky: op. cit. p. 53

Altamira: A. Hist. of Spain. p. 76

(4) Hayek: op. cit. p. 3452

تحت ضغط القوط الغربيين إلى ترك أسبانيا والنزوح إلى شمال إفريقيا عبر البحر المتوسط ، وذلك سنة ٤٢٩م تحت قيادة ملكهم ذائع الصيت جيرريك *Gaiseric* الذي حتى بشهرة واسعة فألفت شهرة كثير من قادة وملوك البرابرة في تلك الفترة (١) ، فقد ألمحت ذلك الرجل القصير الأعرج ، أنه على جانب كبير من البراعة في الفنون السياسية والحربية ، وبطل مهابم وقائد هتك ، لكنه انسم بمسحة من القسوة والنف وسمت حركة الوندال بالوحشية وحولت غزوم إلى عنة حقيقية لأهل البلاد التي نزحوا إليها (٢) ؛ فقد انتهز جيرريك فرصة اضطراب أحوال الإمبراطورية ، ونزل بقومه الذين بلغ عددهم نحو ثمانين ألفا من الرجال والنساء والأطفال ، إلى الساحل الإفريقي ، وشرع في الاستيلاء على السهول الخصبة في شمال إفريقيا ، ولم يسقط القائد إيتيوس أن يمنع سقوط شمال إفريقيا في يد الوندال نظرا لافتقاره إلى أسطول قوى (٣) ، فدانت البلاد لجيرريك ، من طنجة في أقصى الغرب حتى طرابلس في الشرق وسقطت في يده قرطاجة سنة ٤٢٩م أم مدن الغرب وأكبر مركز حضاري وعمراني بعد روما ، فأصبح يملك لاصية ولاية شمال إفريقيا وأم مصدر لإنتاج القمح في الإمبراطورية ، فنسلا عن القود بقاعدة بحرية ضخمة على الساحل الإفريقي (٤) ، ويبدو أن الوندال أدركوا مبكرا أنه يتعم عليهم حيازة أسطول بحري قوى إذا كان عليهم أن يعمروا البلاد التي اغتصبوها ، وهي تتمتع بساحل طويل سهل مهاجته بحرا ،

(1) *Firenze* : op. cit. p. 29

(2) *Oman* : The dark ages. pp. 7-9

Grant : op. cit. pp. 126-7

(3) *Lot* : op. cit. p. 207.

(4) *Ostrogorsky* : op. cit. p. 57

ولهذا لم يمض وقت طويل حتى غدوا أكبر قوة بحرية في غرب البحر المتوسط، فهاجروا صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار^(١)، وأنزلوا بصقلية وسردينيا الخراب والدمار، بل بل إنهم تحولوا إلى إيطاليا نفسها ونزلوا بالساحل الإيطالي وهاجروا روما نفسها سنة ٤٥٥م واستباحوها أسبوعين^(٢).

على أن محنة الغزو الوندالي لا تكمن في مجرد الفرصة البحرية وإلحاق الخراب والدمار بالجبهات التي هاجمها بقصد ما تمكن في السياسة الاستبدادية التي اتبعها جيزريك في حكم مملكته الجديدة، إذ أضمن في مصادرة الأملاك وإنزاع الضياع من أصحابها وفرض الضرائب وأظهر القسوة في جبايتها، واضطهد رجال الدين الكاثوليك^(٣)، وصادر أملاكهم وتمسب بحكم أديوسية ضد الكنيسة الكاثوليكية وأنتج نهجا فريدا في إلحاق الضرر برجالها، ويبدو أنه اضطر إلى اتخاذ هذه السياسة ودا على المؤمرات التي كانوا يمحكونها ضد دولته الناشئة، فضلا عما تعرضت له دولته من ضغط قبائل البربر الأفريقين في جنوب المملكة^(٤)، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اضطر الإمبراطور فالنثيان الثالث في سنة ٤٤٢م إلى الاعتراف بمملكة الوندال، ولم تلبث سنة ٤٥٨ حتى كان جيزريك قد بسط سلطانه على بقية شمال إفريقية، فأصبح يحكم من طنجة إلى طرابلس^(٥). غير أن المملكة الوندالية التي أجهد جيزريك نفسه لإقامتها، ما لبثت أن اضطجعت

(1) Heyck: op cit. p. 3453

(2) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 306-8

Cantor: Med. Hist. p. 65

(3) Oman : op. cit. p. 8

(4) Ibid. p. 9

(5) Lot : op. cit. p. 210

وتداعت بعد وفاته سنة ٤٧٧م ولم يتحقق لها البقاء والاستمرار بعد ذلك، إلا بسبب اضمحلال الجزء الغربي من الإمبراطورية وانفعال أباطرة الشرق بأمور أكثر أهمية (١)، فلما تغيرت الظروف في الشرق، واعتلى العرش الإمبراطور جستنيان بمك قائده بلواريوس ليضع حداً لعدم تلك المملكة المتداعية، ويعيد ولاية إفريقية إلى حظيرة الدولة، فنجح بلواريوس في استردادها من الوندال سنة ٥٣٤م، بعد أن هزمت دولة الوندال بها نحو قرن من الزمان (٢).

أما الإرجنديون فهم فرع آخر من الجرمان الشرقيين، بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث في القرن الثالث الميلادي، حينما تقدموا من موطنهم في وادي نهر الماين إلى الجزء الأوسط من حوض نهر الراين، وقرب أواخر القرن الرابع الميلادي اتخذوا فورمز عاصمة لهم (٣)، ثم تحركت جموعهم إلى الجزء المعروف حالياً ببلجيكا، لكنهم اضطروا تحت ضغط الهون إلى شق طريقهم في غالة بشيء من العنف حتى نزلوا بموافقة الحكومة الرومانية في سافوى قرب نهر الساون سنة ٤٤٣م (٤)، وعلى الرغم من أن السلطات الرومانية كانت تعتبرهم حلفاء معاهدين، فإنهم كانوا يشكلون في الواقع مملكة أريوسية مستقلة، أخذت تتوسع حتى كادت تبلغ شاطئ البحر المتوسط، وغدت في سنة ٤٩٨ تبتلع كل المنطقة الواقعة بين جبال الألب والرون، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تحتفظ بإقليم

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 64

(2) Keen : op. cit. p. 5

Hussey, op. cit. p. 18

(3) Heyck : "Rise of the Frankish dominion" B: H. V. VII p. 3474

(4) Lot : op. cit. p. 207, p. 213

Bury : op. cit V. I. p. 249

بروفانس الغنى أو تناهض الفرنجة الذين تطرقوا إلى غالة ، وأوقفوا توسعات
البرجنديين في تلك الجهات (١) .

وليس بخاف أن اندفاع العناصر الجرمانية إلى جوف الإمبراطورية الرومانية
سأم في صند هجمات أخرى أكثر بربرية وأشد هولاً ، ذلك أن الهون وهم عنصر
أسيوى من جنس الهنول كانوا قد نفذوا إلى جنوب شرق أوروبا قادمين من
أواسط آسيا عبر البرارى والسهوب الآسيوية في أواخر القرن الرابع الميلادى (٢)
وأحدث الهون الخراب والدمار وأنزلوا أصناف العذاب بالبلاد التى مروا بها في
اندفاعهم نحو الغرب حتى ليقال إن الأرض التى يرهون فيها خيلهم تصبح صحراء
قاحلة (٣) ، ونظراً لما انصفوا به من سرعة الحركة ودوام الإرتحال والقسوة البالغة
في معاملة الشعوب ، والقبائل المغلوبة على أمرها ، جرى الاعتقاد في تسخيرهم
لقسوى سحرية فى حروبهم ؛ وبولغ في تقدير أعدادهم وأوصافهم مع أن جابجا
كبيراً من جموعهم تألف من قبائل مزومة ساقوما معهم أثناء زحفهم صوب
أواسط أوروبا (٤) . غير أن الهون ظلوا مقيمين على شواطئ البحر الأسود في
المنطقة المعروفة حالياً بالبحر ، منذ أواخر القرن الرابع حتى سنة ٤٢٥م حين أخذوا
يتحركون في البلقان ويهاجمون الجهات المجاورة . وحين تولى حكم الهون أتيللا
Attila ذائع الصيت سنة ٤٢٣م بدأت مرحلة هامة في تاريخ ذلك الشعب

(1) Pirenne : op. cit. p. 32.

(2) Ammianus Marcellinus: "The Huns. pp. 576-79 trans. by Yangs" in Mod. Worl. Cantor. p. 68

(3) Rice : Byzantium, p. 26

(4) Renouf : Outlines of General Hist. p. 180

Katz : op. cit. pp. 103-4

المتبربر ، فقد أكد الهون تحت زعامة أتيليا سيطرتهم على معظم القبائل الجرمانية وغير الجرمانية النازلة في حوض نهر الدانوب (١) ، وفيهم القوط الشرقيون والعقالية بجنوب روسيا ، وأخذ يفرض الآتارات الكبيرة على الإمبراطورية الشرقية ، ويصر على تحصيلها ذهبا ، فأذهن الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، ورضى أن يعقد معه صلحا مبهنا ويقدم الجزية الكبيرة نظير تعهد الهون بعدم الإحتداء على أراضي الإمبراطورية الشرقية (٢) . ولكن حدث أن خلف مرقيان ، ثيودسيوس الثاني سنة ٤٥٠م ، فتشجع هذا الإمبراطور الجديد ورفض دفع الآتاة لآتيليا ، وحذا حذوه إمبراطور الغرب فالنسيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٠ م) ، وعند ذلك قرر أتيليا الزحف غربا للاستيلاء على إمبراطورية الغرب (٣) ، نظراً لضعفها واضمحلالها وعبث الجرمان بها ، وتقدم الهون تحت قيادة أتيليا غربا بحذاء نهر الدانوب ، فألقوا الخراب بالآقاليم التي مروا بها ثم عبروا نهر الراين إلى غالة سنة ٤٥١م وأجبروا الآمالى على الفرار وأمنوا في نهب المدن الكبيرة فيها (٤) .

وعلى الرغم من أن إيتيوس قائد الإمبراطورية الغربية الشهير كان مشغولاً بخطط حربه ضد القوط الغربيين ، وأنه انتهز فرصة وصول الهون لبيت الذعر في نفوس القوط توطئة لهزيمتهم ، فإن تقدم أتيليا عبر الحوض الأدنى لنهر الراين سنة ٤٥١م ورحله إلى أورليان ، جعل هذا القائد يفكر في التحالف مع القوط

(1) Lot : op. cit. p. 209

(2) Vasiliev: The Byzantine Empire, p. 98

(3) Ostrogorsky : op. cit p. 53

(4) Bury : op. cit. V. I pp. 291-4

لصد هذا الخطر المشترك (١) ، وفي تلك الظروف أعظمس القوط قلبها ملحوظا
لإبعاد الخطر المحدق بالجميع فتحالفوا مع الرومان لحرب الهون ، وحين اندلعت
الحرب في سهل موريك قرب شالون في نفس العام ، دارت الدائرة على أتيل
وقومه وخرج الحلفاء من تلك الموقعة منتصرين ودفع القوط ثمن ثقاتهم في تلك
الحرب فلقى ملكهم حتفه في ساحة القتال (٢) . غير أن القائد إيتيوس رفض أن
يمضى قدما لتعطيل قوة الهون نهائيا ، برغم هذا النصر الحاسم ، وقد جعل ذلك
أتيل يجمع شتات جيشه ويهيئ نفسه من القوة ما يسكنى للهجوم على إيطاليا في
العام التالي (٣) ، ولا تعليل لموقف إيتيوس سوى أنه ربما خشى إن هوجم على
أتيل وقومه ، أن يقع تحت رحمة القوط للغربيين ، فحاول الإفادة من هذا
الاتصاف بالاكتفاء بإضعاف خصومه جميعا مع عدم المضي في إزاحة أحدهما حتى
لا يقع فريسة للآخر .

ولا شك أن هزيمة الهون في غالة سنة ٤٥٦ و تراجعهم عنها كان أمرا بالسخ
الأهمية بالنسبة لغرب أوروبا قاطبة فقد قدر له أن ينجو في تلك المرة من وحشية
هذا الشعب المتبربر ، ويلفظ هذه الجحوش العابثة (٤) ، لكن قدر الإيطاليا قلب
الإمبراطورية الغربية — أن تذوق بعض أصناف العذاب على أيدي أولئك
المتبربرين قبل انحصار موجتهم وتراجعهم عن الغرب ، إذ وجدت روما نفسها

(1) Pirenne : op. cit p. 29

(٢) لغمر ، نفس المرجع ص ٩

(3) Grant; op. cit. p. 127

(4) Hayek : "The great Teuton deluge" in B. H. V. VII.

فجأة في مواجهة هذا الخطر الداهي سنة ٤٥٢ م قلم يسه البابا ليو الأول أو العظيم إلا أن يخرج لقاء أتيلا يلتصق منه الانصراف عن إيطاليا (١)، وحين أسرع أتيلا بالانسحاب إلى شمال جبال الألب وسحب قواته من إيطاليا راج كثير من التمس والاساطير حول ذلك الانسحاب السريع، وجرى الاعتقاد في حدوث معجزات كان لها ضلع في إفراجه وهربه (٢). والحقيقة أن الأخبار كانت قد أخذت تتوالى بقرب وصول جيش روماني تحت قيادة إتيوس، فضلا عن تنشئ الأمراض في جيش أتيلا ونفاذ المؤن والأقوات في معسكره، كل ذلك جعله يسرع بسحب جيوشه من إيطاليا ويسود أذواجه صوب الشرق، حيث توفي بمعسكره في بالونيا سنة ٤٥٣ م وتداخت إمبراطوريته بعد وفاته (٣)، وانتهزت القبائل الخاضعة لحكم الهون الفرصة وطرحه طاعتهم وتمردت عليهم بل جدت في طردهم إلى ما وراء الدانوب، ولم يبق على وفاة أتيلا أكثر من عشرين سنة حتى كانت دولته قد ولت وتفككت، ولم يد ثمة ما يرهب الجرمان أو يشي الخوف في نفوسهم (٤).

غير أن تراجع أتيلا عن إيطاليا ونجاة روما من عبث الهون لم يكن ليحول بين هذا الجانب من العالم الروماني وبين مصيره المحتوم، أو ليمنع ما قد ينزل به

(1) Hearder and Waley : A short Hist. of italy. p. 27

(٢) جيوف : استسلام الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٢٨٩.

Bury: op. cit. p. 294

(3) Rice : op. cit. p. 26

(4) Let; op. cit. p. 208

Camb. Med Hist. V. I. p. 366

Reynaf : op. cit. p. 181

من كوارث في مستقبله القريب ، ذلك ان الإمبراطورية الغربية كانت قد وصلت إلى درجة من الضعف والاضمحلال عقب وفاة فالنسيان الثالث سنة ٤٥٥ م كانت كثيفة بأن تضع نهاية لهدمها في غرب أوروبا بعد أن عبث الجرمان بمصائرهم وطافوا في أقاليمها قنادا ، بل إنهم أقاموا دويلات مستقلة داخل حدودها (١) ، وبعد أن تسلط على أقدارها قادة عسكريون تجري في عروق بعضهم دماء جرمانية وليس لهم اهتمام بالحفاظ على أجماد روما وضرورة ضمان سلامتها (٢) ، ولقد تلبثت الإمبراطورية في الغرب إلى خطر أولئك القادة من الجرمان وخططهم البعيدة ، برغم كل ما أظهره من حماسة لمحب الفزاة ودفع أخطار المهاجمين من الجرمان وغير الجرمان ، فأزول الإمبراطور هيربوس نعمته على قائدة استيلكو قبل أن يستغل خطره ويصبح حارقه ضالاً ، وأسرع بإعدامه سنة ٤٥٨ م (٣) ، ثم حينئذ حذوه الإمبراطور فالنسيان الثالث قبل وفاته بعامين حين أعدم قائداً آخر سمى همته ليرمين على مصائر الإمبراطورية الغربية وارتقت آماله ليمسك بزمام الأمور فيها ؛ وهو القائد الشهير إتيوس الذي أعدم سنة ٤٥٣ م (٤) ، إلا أن قائداً آخر من الجرمان الشرقيين ما لبث أن برز على مسرح الأحداث ليحقق ما فشل في تحقيقه استيلكو وغيره من القادة الجرمان ، ألا وهو أودواكر Odoacer أو Odoacer ، قائد الإمبراطور الروماني الصغير ورومulus أوغسطس Remulus Augustulus ، الذي أدركن في سنة ٤٧٦ م أن لديه من

(1) Prienne; op. cit. p. 29

(2) "St. Jerome: The barbarian traitor" in Med. World by Cantor. p. 11

(3) Cantor; Med. Hist. p. 134

(4) Cambr. Med. Hist. V. I. pp. 418-20

القوة ما يمكنه من خلع الإمبراطور الغربي، ويكتفى لإدارة شئون إيطاليا (١) ، ولكنه سلك في ذلك طريقاً آخر ، إذ هول على الوصول إلى حكم إيطاليا ببذل ولائه للإمبراطورية الشرقية والارتباط بالتبعية لها (٢) ، وفي سبيل ذلك حتى من مجلس السناتو على موافقة شكلية بالاتصال بالإمبراطور الشرق زينو Zeno لطلب تفويضه بحكم إيطاليا في ظلل التسمية القسطنطينية وخلق الإمبراطور الغربي (٣) .

وإذ رحب الإمبراطور زينو بعودة إيطاليا وما بقي لها من نفوذ اسمي في الغرب لطبيعة الإمبراطورية الشرقية تشجع أدواكر وخلق أخيراً الإباطرة في الغرب سنة ٤٧٦ م ، واكتفى بنفيه إلى جنوب إيطاليا والأفراد بقبول دقة الحكم في إيطاليا ، فوضع بذلك نهاية أليمة للأحساد روما ، وعهد لها السالف ، وبقي غرب أوروبا بدون إمبراطور حتى توج شارلمان سنة ٨٠٠ م (٤) . ومما قيل في أهمية هذا الحدث ، وفي أنه جاء حداً فاصلاً بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، فإن آثاره كانت بعيدة المدى فعلاً بالنسبة للملك الجرمان بغرب أوروبا ، فقد ساعد خلو الغرب الأوروبي من إمبراطور روماني وتكبير ما يحسبه ملكه جرمانية في إيطاليا على انقراض الإمبراطورية الرومانية الغربية بزعيمها أدواكر (٥) ، ساعد كل ذلك في تطوير بقية للملك الجرمانية ، وأعطى زعماً

(1) Hearder & Walsey: op. cit. p. 29

(2) Haysk: The great Teutonic deluge. B.H. VII p. 3454

(3) Vasiliev: op. cit. p. 107

(4) Bury : op. cit. V: I. p. 406

(٥) ديفر: شارلمان: ١٧٨ - ١٧٩ ، p. 73٤

(5) Helms: "Italy" in B.H. VII: p. 3455

طوائف الجرمان فرصة ذهبية لتأكيد استقلالهم ، والتحرر من أية ضوابط قد تحد من غلاوتهم (١) ، كما جاء هذا الحدث عاملا هاما في تطور البابوية في إيطاليا بعد أن أفسحت لها السلطة الزمنية المجال الفوز بولاء الإيطاليين والالتفاف حول البابا ونموه الزعامة في غياب الإمبراطور ، وانظر إلى الكنيسة في روما على أنها الحصن الباقي للدفاع عن إيطاليا والسند الأكيد لاستعادة مجد روما وعمرها وكان لذلك دون شك أبلغ النتائج بالنسبة لغرب أوروبا بصفة عامة وتاريخ البابوية بصفة خاصة (٢).

ولا شك في أنه سنة ٩٧٦ م جاءت خاتمة لمرحلة بائسة في تاريخ الإمبراطورية الفرنجية ، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ أوروبا الغربية ، التي أخذ ينقلب عليها الطابع الجرمانى ، لكنه كان تأثيرا بطيئا ، بدأ قبل هذا الحدث واستمر بعده رويدا رويدا ، حتى ليصبح من المبالغة وسوء التقدير تحميل هذا الحدث كل ما ترقب من نتائج ، بدت مقدماتها قبل ذلك بوقت طويل ، وظهرت إرغاساتها قبل سقوط الإمبراطورية الفرنجية بأجيال كثيرة (٣). فقد كان القوط الغربيون قد أقاموا لهم مملكة في جزء من غالة وكل أسبانيا ، وبرزت مملكة الوندال بإفريقية لتلعب دورها في غرب البحر المتوسط ، في حين نجح البرجنديون في إقامة مملكة مستقلة غربي جبال الألب حتى وادي الرون ، في الوقت الذي دانت فيه إيطاليا لسيادة اللومباردين (٤) ، ونزل الإنجليز والسكسون والجموت بريطانيا ، وتهدم

(1) Pirenne : op. cit. p. 29

(٢) موس : ميلاد الدولة الوسطى ص ٥٠

(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 430-433

(4) Helmolt : op. cit. p. 3455

الفرجة إلى شمال غالة ، وجرى طبع غرب أوروبا بطابع جرمانى ، ولم يعد سقوط العرش الإمبراطورى فى الغرب سوى أحد المعالم البارزة فى تطوور التاريخ الأوروبى (١)

هل أن أدواكر لم يمتأ بحكم إيطاليا طويلا ، فقد تطورت الاحداث فى غير صالحه ، وجرى من الامور ما كالى كفيلا بوضع حد لمشروعاته وحياة نفا ، رغم أن ذلك لم يخلت تغييرا فى وضع إيطاليا ذاتها ، ولم يرد الأمر عن نوع البلاد من يد متبرر إلى يد متبرر آخر ، وإجلاء فريق من الجرمان وإحلال فريق آخر مكانهم (٢).

وكان القوط الشرقيون هم فريق المتزبرين الجدد ، الذين أمروا فى أقدار إيطاليا فترة طويلة . ويتمى القوط الشرقيون لفرح الجرمان الشرقيين ، كما سبق الإشارة ، وكانوا قد نزوا بالجهات الواقعة شمال البحر الأسود فى المنطقة الممتدة من نهر الدنيستر غربا إلى نهر الدون شرقا ، وكان ذلك قرب منتصف القرن الرابع ، لكنهم تعرضوا لخطر الهون حوالى سنة ٣٧٥م (٣) ، ولم ينجحوا فى الفرار عبر الدانوب ، كما فعل القوط الغربيون ، وظلوا لذلك عاضعين للهون أكثر من ثلاثة أرباع قرن حتى وفاة أتيل سنة ٤٥٢م ، وعندئذ طرخوا طاعة الهون ، وشاركوا فى تدمير إمبراطوريتهم وأخذوا يلعبون دورهم الخاص كبقية الطوائف الجرمانية (٤) . بدأ القوط الشرقيون التجول والعلوف فى أقاليم

(1) Keen: op. cit. p. 6

(٢) ديفز: أوروبا فى العصور الوسطى . ص ٢٠ ، 29 ، Hearder & waley: op. cit.

(3) Ostrogorsky : op. cit p. 48

(4) Oman: op. cit. p.15

البلقان يحرقون حياتهم الصاخبة ويمشون في بلاد اليونان فسادا ، يأسرون وينهبون ويسبونون ضغنا شديدا على القسطنطينية ، ولم تفلح جهود الأباطرة الشرقيين في كبح جماحهم أو إجبارهم على الإخلاء إلى السكينة ، ولم تفلح استضافة ثيودريك في القسطنطينية سنة ٤٦١ ، — وقد خدا أشهر زعماء القوط فيها بمسد (١) — ليقضى بها عشر سنوات من شبابه وسط مظاهر الحفاوة والتكريم ، في صرف هؤلاء القوم عن مناوأة الإمبراطورية ، وإحداث تغيير جذري في سياستهم تجاهها ، واقتصرت نتائج هذه الاستضافة على إطلاق هذا الجرمان الجسافي على ما اتسمت به الأمم المتحضرة من نظام وما اختصت به من تمدن (٢) ، اسكنها لم تستطع أن تخرج من نفسه حب قومه والإخلاص لثرائهم ، فقد أصبح ثيودريك في سنة ٤٧١ م زعيما لقوط الشرقيين ، ولم يسعه إلا أن يودع القسطنطينية ، ويغزو إلى قومه ليبدأ دوره سنة ٤٧٤ ، ثم يصبح ملكا لهذه الطاقة الجافية من الجرمان سنة ٤٨٠ م (٣)

ولما تفاقم خطر القوط الشرقيين بالنسبة لأقاليم البلقان ، رأى الإمبراطور زينون أن يهد إلى ثيودريك بإدارة شئون إيطاليا ، حتى يبعده عن البلدان ، ويتخلص من عبث قومه ، ولا بد أنه أراد بإحداث الصدام بين ثيودريك وأدواكر إسماعيل الجانيين وشغلها عن دولته ، فقد نزل ثيودريك إلى إيطاليا ، ودخل في معارك طاحنة مع أدواكر انتهت أنقراضا سنة ٤٩٠ م بهزيمة ساحقة

(1) Pivenne : op. cit. p. 43

Oman : op. cit p. 40

(2) Helmolt: op. cit. p. 3455

(3) Cantor: Med. Hist. p. 140

لأدواكر وتحطيم قواته (١) ، ثم سحاره في وائفا وإجباره على الاستسلام ،
وعده ذاك أمر يهوديك بقتله ، وسارح مجلس السناتو بتأييد يهوديك
والاعتراف به سيدا على إيطاليا ، في حين وقعت مذبحه كبيرة بين جنود أدواكر
المرتقة ، وحل محلهم للقوط الشرقيون ، الذين كانوا تحت زعامة يهوديك
ملكه مستقلة في إيطاليا في ظل تبعية اسمية للامبراطورية الشرقية (٢) . وقد
اتسم غزو القوط الشرقيين لإيطاليا بأنه كان غزوا جماعيا وهجرة عامة ، نزل فيها
القوم بنسائهم وأطفالهم وسائحتهم بنبة الاستقرار والاستيطان ، ثم كانوا الفئة
الأرستقراطية الجرمانية الحاكمة واحتل زعيمهم مكانة بارزة بين معاصريه
طوال فترة حكمه التي امتدت من سنة ٤٩٣م إلى سنة ٥٢٦م ، وكان يحق أبرز
رحماء البرابرة في تلك الفترة (٣) . حتى إن اختفاه من المملكة كان كفيلا بإضعافها
فلم تكده تضي سنوات قليلة على وفاته حتى لولت قوات جستنيان العظيم لإيطاليا
ولم تبدأ حتى انزعجتا من يد القوط ، وقعت على دولتهم نهائيا ، قرب منتصف
القرن السادس الميلادي ، كما سوف تفصل (٤) :

وكما دخلت إيطاليا في حوزة القوط الشرقيين وزعيمهم يهوديك ، صارت
غاية أيضا إلى يد الفرنجة وزعيمهم كلوفس . والفرنجة أحد عناصر الجرمان
الغربيين الذين غدوا في القرنين الثالث والرابع قوة جرمانية كبيرة ، فانسابوا

(1) Grant: op. cit. p. 120

(2) Ostrogorsky: op. cit p. 58.

Vasiliev: op. cit: p. 107

(3) Hearder & Waley: op. cit p. 20

(٤) ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٥ - ٣٨

إلى شمال غالة ، مكونين مجموعتين كبيرتين هما الفرنجة البحريون أو الساليون
 Salians ، والفرنجة البريون أو الريوياريون Ripuaires (١) ، وظل الفرغان
 مصدر خطر كبير على سلطات الإمبراطورية الرومانية في غالة فترة طويلة
 ودوجوا على عبور نهر الراين في حملات متلاحقة بنية السلب والنهب (٢) ، على
 الرغم من جهود الإباطرة الرومان لصدّهم ، ووضع حد لخطرهم في غالة ، غير
 أنهم تحولوا إلى محالفين ومعايدين للإمبراطورية ، على الأقل منذ عهد إتيوس ،
 فحاربوا تحت لوائه ضد جيوش الهون سنة ٥٤١ م (٣) ، وفي أواخر القرن
 الخامس تفاقم خطر الفرنجة تفاقمًا كبيرًا ، وسمت حمة الفرنجة البحريين بصفة
 خاصة لتزول غالة واستيطانها (٤) ، ثم كان سقوط الإمبراطورية الغربية سنة
 ٤٧٦ عاملاً مساعداً لتحقيق هذا الهدف ، خاصة وقد تداعت سلطات الرومان
 فيها ، واقتصر الأمر على بقاء يمثل للإدارة الرومانية في حوض نهر السين (٥) .

ولقد نجح كلوفيس Clovis زعيم الفرنجة البحريين ومؤسس دولتهم أن يلحق
 الهزيمة بيساجريوس Syagrius ، يمثل الإدارة الرومانية في غالة سنة ٤٨٦ ،
 أي بعد انبعاث الإمبراطورية الغربية بنحو عشرين سنة ، وبهد السيل لقومه
 للانتشار فوق الجهات الشمالية من غالة (٦) . وهكذا غطت غالة في نهاية القرن

(1) Lot: op. cit. p. 214, pp. 312-13

(2) Oman : The Dark ages. pp. 55-6

(3) Lot : op. cit. p. 313

(4) Cantor: Med. Hist. p. 147

(5) Heyck : "Rise of the Frankish dominion" B.H. VII.

pp. 3472-3

(6) Lot: op. cit. p. 316

الخامس نهباً للجماعات الجرمانية ، إذ احتل شالها الفرنجة ، وشكل البريجنديون
ملكة أيويسية في المنطقة بين جبال الألب والرون ، في حين كان القوط الغربيون
لا يزالون يقيمون على المنطقة الجنوبية الغربية منها (١) . ويذكر كلوفس (٤٨١) -
٥١١ م) مؤسس البيت الميروفنجي ، والدولة الفرنجية التي عاشت طوال العصور
الوسطى ، وتولت منها ملكة فرنسا في التاريخ الأوروبي الحديث ، والمملكة التي
كتب لها البقاء داخل حدود الإمبراطورية فترة طويلة في الوقت الذي تداعى
فيه الممالك الجرمانية وبقيت معالمها في أوروبا (٢) . فقد قدر لكوفس أن يلعب
دوراً كبيراً في تاريخ فرنسا أولاً ثم في تاريخ الغرب الأوروبي ثانياً ، رغم أنه
لم يكن يتعدى الخامسة عشرة من عمره حين آلت إليه زعامة الفرنجة ، وكان طموح
هذا الملك الصغير لا يعرف الحدود ، مقرولاً بمرأة نادرة ومهارة عظيمة (٣) ،
هذا فضلاً عما ظهر من تفوق للفرنجة على بقية الجرمان ، إذ ظهروا كقوم يتوسمون
في المناطق المجاورة لوطنهم دون سير وطواف وجوس خلال الديار ، فظل موطنهم
الأصلي في الحوض الأدنى لنهر الراين مركزاً لتوسيم وإنتشارهم في شمال غالة
يهدم ويدعمهم ويحفظ عليهم أصولهم وحيويتهم وحاستهم دون أن يقطع الفرنجة
صلتهم بهذا الوطن أو يتخللوا عنه في حين كانت بقية العناصر الجرمانية قد
استقرت في مكان يبعد عن موطنها كثيراً ، وبجاست خلال الديار وقطعت
صلتها بأصولها ومواطنها وغدت تحت رحمة الأقدار (٤) . ولهذا احتفظ الفرنجة

(1) Oman: *op. cit.* p. 59

(2) Pirenne: *op. cit.* p. 54

(3) Lot: *op. cit.* p. 316

(4) Heyck ; "The rising tide of teuton power" B. H. VII
pp. 3438-9

بمضاوتهم ووزانهم وحيويتهم ، وظلوا أمة مترابطة تملو فوق عوامل التفكك والضياع ، وسط المحيط اللاتيني الكبير ، الذى نجح فى إذابة جماعات جسرمانية أخرى ، ربما كانت أشد عنفا وأكثر عدداً وأقوى شكيمة (١) .

وفى الوقت الذى دخلت فيه طوائف الجرمان الأخرى إلى جوف الإمبراطورية لتقيم ممالك جرمانية أريوسية المذهب عارضة للذهب السائد بين بقية السكان وتمثل طبقة مذهبية مناهضة لبقية الطبقات الأخرى ، نجد أن كلوفس تحول من وظيفته إلى الكاثوليكية السائدة فى غالة سنة ٤٩٦ بعد نحو عشر سنوات من قيامه فى الحكم (٢) ، فأقدم بذلك على أهم خطوة كفلت لدولته البقاء والاستمرار فى تلك البلاد ، وقرب نفسه وقومه من قلوب ونفوس السكان وسلطات الكنيسة الكاثوليكية فى غالة ، وأحل قومه منزلة سامية بين أهل البلاد المفتوحة ، وسجن حمد كلوفس وفقاً لمبادئ المذهب الكاثوليكي الغربى جرى تسميد أكثر من ثلاثة آلاف رجل من رجاله الحاربين (٣) ، وسواء أكان سبب اتخاذه هذه الخطوة يرجع إلى زواجه من أميرة برجندية كاثوليكية هى الأميرة كلوتيلدا ، التى ربما أغرت به باعتناق هذا المذهب ، أم يرجع إلى حسن تقديره للأمور وإدراكه لما سوف يترتب على هذه الخطوة من نتائج سياسية هامة (٤) ، فإنه غدا فى نظر الأماهى والسلطات الكنسية بطلاً من أبطال المسيحية الكاثوليكية ، وسيفاً من سيوف المسيح المجردة لتتلمذ أظفاناً للملك الأريوسية المجاورة ، ووضع حد لعبثها بأعداء

(١) Heyck: "Rise of the Frankish dominion" p. 3480

(٢) جيود . اضطلاع الإمبراطورية ٧٤٦ م ٢٤٩

(٣) "Gregory of Tours, Hist. of the Franks" (trans. by Dalton). in Med. World. by Cantor p. 80

(٤) Lot: op. cit. p. 317

البلاد والتضاء على زندقها الدينية (١).

والواقع أن كلوفس كان يدرك تماماً أن اعتناقه المذهب الغربي كان يضعه حتماً في حلف قوى مع الكنيسة الكاثوليكية ، وقد دام هذا الحلف طويلاً بين دولة الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية ، وأذن بمصر جديد في تاريخ غالبه والتاريخ الأوروبي معاً ، إذ وحى كلوفس ، وهو ملك متبرير أن تستلم حكومته الإرشاد من الكنيسة ، وأن يضع نفسه في خدمة تلك الكنيسة ، وأن يدافع عن شرورها (٢) ، ولعل ما أثر عنه من قول ، وهو في طريقه لحرب القوط الغربيين يوضح إلى أي مدى جعل كلوفس نفسه في خدمة الكنيسة الغربية وفي الدفاع عن مصالحها ، إذ نسب إليه أحد المؤرخين قوله : « يصحني أن أرى أولئك الأوروبيين ملوكاً في جزء من غالة ، فلم معي إلى مهاجمتهم وقناهم بمون الله ، حتى إذا انتصرنا صارت لنا أرواحهم » (٣) . وهناك سبب آخر منع دولة الفرنجة تمايزاً عن بقية تلك الألمان ، ذلك أن الفرنجة اتبعوا سياسة لينة في معاملة السكان ، ولم يحدوا هوة بينهم وبين الأمازيغ ، أو يقضوا على سبيل التفاهم بين الجائعين ، كما أن الفرنجة لم يفرطوا في استخدام العنف أو يصادوا نزع الأراضي والضياع من أيدي أصحابها أو يؤذوا السكان في أرواحهم (٤) ، فلم يمرض الفساليون - الرومان لمذابح بشرية على أيدي الفرنجة ، أو يهبطوا إلى رتب العبودية ، أو تخفيض

(١) نيفر: أوروبا في العصور الوسطى ص ٤٧ ، Pirenne: op. cit. p 56

(٢) Oman: op. cit. p. 58

(٣) نيفر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في ١ ص ٢٦ ،

Camb. Med. Hist. V. I. p. 285

(٤) Pirenne: op. cit. pp. 54-6

دورهم الإجتماعية ، ولم يحصل القربة على ميزات إجتماعية أو سياسية في الدولة التي أقاموها ، كل ذلك قريبهم إلى قلوب الناس وحد من العلاقات النيفة بين الجاهلين (١) ، هذا فضلاً عن أن ظروف حاول الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الإمبراطور البيزنطي ، وسعى للحصول على تقليد من الإمبراطور أغسطس باعتبارهم قنصلاً شرفياً في غالة ، وهو لقب كان يخلع على أصحاب للمقام الرفيع والمزلة السامية في الدولة الرومانية (٢) .

ومما يكن من أمر فقد اثبتت بمكة القربة في غالة ، وهذا أمر حدث في تاريخ الغزوات الجرمانية ، وغدت الدولة الوحيدة من دول الجرمان التي قدر لها البقاء والاستمرار لتلعب دورها في صنع جانب من التاريخ الأوروبي الوسيط ، في الوقت الذي اندثرت فيه للملك الجرمانية الأخرى ، وذلك سلطة الجرمان من كثير من بقايا أوروبا (٣) .

أما عن غزوات الإنجليز والسكسون والجلوت للجزر البريطانية ، فقد لعبت دوراً هاماً في تاريخ تلك البلاد ، واستمرت هجمات السكسون على الشواطئ الشرقية للجزر البريطانية وشواطئ بحر المانش منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي (٤) ، وساعد على ذلك سحب آخر حامية رومانية من بريطانيا قرب منتصف القرن الخامس ، كما ترتب على ذلك طمع أولئك الجرمان في

(1) Lot: op. cit. p. 321

Korn: op. cit. p. 6

(٢) ذكره في ص ٢٢ ،

(3) Cantor: Med. Hist. p. 145

(4) Trevelyan: Hist. of England: Part. I. pp. 57-8

Camb. Med. Hist. V. I. p. 378

الاستقرار الدائم في بريطانيا ، فقد أخذوا يفسدون في قواربهم المعروفة غدير الأنهار المنتهية إلى الساحل الجنوبي الشرقي ، للاستيطان في وديان تلك الأنهار وإلى أبعد من مصباتها^(١) ، ولقد قدم أولئك الفزاة من شواطئ بحر الشمال ومن شبه جزيرة جتلاند ومن الدانمرك ومن الجهات الواقعة إلى جنوب الدانمرك ، وكان يربط بينهم اشتراكهم في اللغة والعادات ويجمع بينهم هدف الاستقرار في موطن جديد ، واستغرقت المرحلة الأولى من غزواتهم لبريطانيا الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس تقريباً ، فقد توافد فيها الإنجليز والسكسون في حركة أشبه بحركات الاستثمار ، ساعد على نجاحها حالة المقاومة التي أبدتها أهل بريطانيا الرومانية ولاسيما في الجنوب الشرقي^(٢) ، وأخذ الجرمان يتقدمون في الجهات القريبة ، ويتوسعون فيما حولهم ، فلم تأت نهاية القرن السادس حتى كانوا قد بلغوا سفن Severn ، وفي بداية القرن السابع استولى الجرمان على كل ما هو معروف الآن باسم إنجلترا باستثناء بعض المدن القليلة^(٣) .

واقترع اسم غزو الإنجليز والسكسون والهجوت لبريطانيا بالقوة والعنف ، ولم يفقه في ذلك سوى غزو الوندال لشمال إفريقيا ، فقد جرى استرقاق الأهالي ، وانتزاع الأراضي من يد أصحابها والأمان في القتل والتشريد

(1) Frevalyan: op. cit. p. 33

Camb. Med. Hist. V. I. p. 382

(2) Davis: "The British Isles" in B. H. V. VII. p. 3502

(3) Lot: op. cit. p. 210

Katr: op. cit. p. 104, p. 114

وتحويل قريه الأسمالى إلى قري جرمانية^(١) ، وترتب على ذلك تهجر الفضة
اللاتينية وتراجع المسيحية ، وانحطاط المدن الكبرى ، واضمحلال النظم
الرومانية ، كل ذلك قبل أن يتأثر الجرمان بالمدينة الرومانية وتبني صفتهم
ويقبل عندهم . على أن رؤساء القبائل وزعماء العشائر الجرمانية مالبتوا أن
تحولوا إلى ملوك متوجين بعد الاستقرار ، فبرزت ممالك قبلية متعددة جرى
تسميتها بالممالك السبع Hptarchy ، فقد أقام الجوت مملكة واحدة وكون
السكسون ثلاث ممالك أخرى ، واختص الإنجليز بالثلاث الباقيات^(٢) ،
ومناعدت الظروف الجغرافية على تكوين هذه الممالك ، إلا أن الجسروية
الداخلية هاجمتهم عن تطويقها ، ولم تصبح إنجلترا دولة متحدة إلا بعد مرور
أجيال عديدة .

(١) قس : هس المريج ص ٧٢

(2) Davis & Arthur : "The British Isles" in B. H. V. VII.

الباب الثاني
المالك الجرمانية

الممالك الجرمانية

انجملت هجمات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية اذن ، هن تغفل جرمان كبير في جوف أوروبا ، واستيطان الجرمان في أجزاء كبيرة منها ، وإقامة ممالك مستقرة داخل الإمبراطورية (١) والواقع أن هجمات البرابرة على أوروبا اتخذت صفة التدرج ، ولم تحدث بطريقة فجائية ، ولهذا لم يحفل بها كثير من الناس أو يعمروها كبير اهتمام. حقيقة لقد جرى من الأمور أحيانا مازلول الناس وأذلمهم بعض الوقت ، مثلما حدث حين استباح القوط الغربيون روما سنة ٤١٠ م ، أو حين راحت ولاية شام إفريقية مركز إنتاج الغلال إلى أيدي الوندال أو حين عزل الإمبراطور روملوس أوغسطس سنة ٤٧٦ م (٢) ، لكن ما لبثت الأمور أن عادت ريمية ، ومعنى الناس في حياتهم وكان شيئا لم يحدث .

ومن المبالغة سقا أن نعتبر جميع الممالك الجرمانية التي انبثقت بعد عهد الغزوات في أوروبا ممالك معادية للإمبراطورية ، مقرونة لتفوذها ومصالحها ، فالحقيقة أن ممسة ممالك جرمانية اتخذت من الدفاع عن مصالح الإمبراطورية محورا لسياستها أو واجهة كبرى لقيامها (٣) ، في حين جرى اعتبار ممالك أخرى ممالك معاهدة ومخالفة للإمبراطورية ، أفسحت لها السلطات الرومانية صدرها ، ورضيت باستخافتها على مبدأ جرى الاعتراف به من قبل ، واتخذته الإمبراطورية ضمن مبادئها وسياستها ، وتوسعت في تطبيقه بأن جعلته ساريا في بعض أقاليمها ،

(1) Rice: op. cit, p. 26

(2) Oman: op. cit. p. 1

(3) Heyek: "The great Tentonic deluge" B. H. VII. p. 3454

Helmoit : "Italy" pp. 3455-6

فأضحى مقررًا على المضيقين الرومان أن يتخلوا مرغبين عن ثلثي ممتلكاتهم الضيوف
المطبرين^(١)، حقيقة اتخذ بعض الملوك الجرمانية سياسة معادية تماما للإمبراطورية
الرومانية ، وألحقت بالرومان كشدها من الأذى ، واقتطعت أجزاء من أملاكهم ،
وأولت بها صنوف العذاب ، مثلما فعل الوندال والإنجليز والسكسون ، لكن
باستثناء هؤلاء أعلن جميع ملوك الجرمان ولاءهم للإمبراطور الروماني ، وبذلوا
له الطاعة ، بل كانوا يحرسون تماما على أن يحصلوا على تشريفات إمبراطورية^(٢)
وحرص بعض ملوكهم على انصاف القصاب الإداريين الرومان على أنفسهم ،
وظهرت على قطع تقويم صور الإمبراطور البيزنطي المترجع على العرش ، كما أنهم
أرخوا مفشوراتهم ، بأسماء القناصل الرومان ، وتباهوا بخضوعهم للإسمى
للإمبراطورية^(٣) .

ويعتبر من قبيل الميث أيضا تحميل الضروات الجرمانية نتائج الانحلال الذي
تعرضت له الإمبراطورية الغربية والانيار الذي أصابها وسقوطها في النهاية في
مستهل الربع الأخير من القرن الخامس^(٤) . فمن الثابت أن الإمبراطورية
الرومانية كانت تعاني آلام الموت البطيء قبل مجيء الجرمان ، وتحدّر نحو
الهاوية قبل غزو للتبريرين لأراضيها ، بل ساءت أحوالها السياسية والعسكرية

(١) نصر . نفس المرجع ص ٧٥

(2) Keene: A Hist of Med. Europe. p. 6

(٣) ديفزه أوروبا في العصور الوسطى ص ٢٧ ، موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٨

Ostrogorsky: op. cit. p. 63

(4) Katz ; op. cit. pp. 78-9

والاقتصادية والاجتماعية على مدى أكثر من مائتي عام (١) ، هذا فضلاً عن أن
جىءَ الجرمان لم يحدث بطريقة فجائية ، بل جرى رويداً رويداً ، واستغرق
زمنًا طويلاً ، أدى إلى تسبب الرومان أنفسهم بالصفة الجرمانية وتأثيرهم أيضاً في
الجرمان إلى حد إكسابهم صفات رومانية ، والمعروف أن استخدام الجرمان في
الجيش وفي الحياة العامة جرى قبل تدهور الأحوال الرومانية بزمان طويل ،
ومذا يؤكد أن غزوات البرابرة لأوروبا لا تتحمل سوى جزء ضئيل من مسئولية
الانهيار الذي أصاب العالم الروماني في الغرب (٢) .

ولم يجر تغيير كبير في أسلوب الحياة في الغرب ، بعد قيام الممالك الجرمانية ،
فالحقيقة أن الجرمان لم يكرهوا الحضارة الرومانية ، بل ساولوا الإفادة منها
بقدر ما يستطيعون ، وكانوا جميعاً قد اعتنقوا المسيحية الأريوسية باستثناء
الفرنجة والسكسون ، قبل أن يجاوزوا حدود الإمبراطورية ، وحرص كثير من
ملوكهم على الاهتمام بمظاهر الحضارة الرومانية ، ولاسيما الفن والأدب ، وأظهر
ميودويك ملك القسوط الشرقيين في إيطاليا شغفاً بملحة روما وأفكارها وفنها

(١) انظر: Med. World. by Cantor p. 9-16 "The decline and fall"

Gibbons: "General causes and effect of Christianity"

Lot : "The Fundamental Cause"

Bury: "A series of contingencies"

Restovtzeff : "The revolt of the masses"

Teyssie: "The Pattern of Social disintegration"

Biganiol : "Barbarian Assassination"

(2) Salvian: " The consequences of Sin " in Med World by

Cantor. pp. 10- 11

وأديها ، وكان حفيضا بالمبرزين فيها في هذه النواحي (١) ، وحل الجرمان محل كبار الإنطاغيين الرومان ، وحرصوا على الحفاظ على النظم الرومانية ، وهكذا لم يأت البرابرة من أجل تدمير الإمبراطورية ، وإنما أتوا ليفسدها منها ، وينعموا بها وأن سلكوا في ذلك طريقا أودى بالإمبراطورية ذاتها وجعلها أمرا بعد حين (٢) .

وإذا كان الأمر كذلك فلم اعتبر المتبربرون مسئولين مسئولية مباشرة عن هدم الإمبراطورية الرومانية ، وحدثت تغيير شامل في أسلوب الحياة فيها ، وما ترتب على ذلك من عزل الممالك الجرمانية والنظر إليها نظرة ملوفا الكراهية والحق ، الواقع أن نعمة عوامل كان لها ضلع في ذلك ، لعل أبرزها : العوامل الدينية المذهبية والعوامل الاجتماعية والحضارية (٣) . ولاشك في أن اعتناق القوط الغربيين والوندال والبرجنديين والقوط الشرقيين للمذهب الأريوسي جاء حاجزا بينهم وبين بقية المواطنين الرومان ، حائلا دون اندماجهم في المجتمع الجديد ، كما أصبحت أريوسيتهم موضع استنكار الكنيسة الكاثوليكية (٤) فاعتزتهم كفارا مارقين متابعين للمسيح مقوضين لدعائم الوحدة الدينية . وهكذا كانت الخلافات المذهبية عاملا هاما في عزل ملوك الجرمان وجعل شعوبهم بمثابة غرباء دخلاء على المجتمع الجديد ، فضلا عن أن عدد الفساة الجرمان كان يقل كثيرا عن عدد سكان الولايات المفتوحة ، فجعلهم هذا أكثر تماسكا بأعبارهم أقلية حاكمة تبقى للتنتم بخيرات البلاد ، يضاف إلى ذلك ما حرص عليه الجرمان من

(١) جييون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٢٧٢

(2) Cantor: Med. Hist. p. 122 ; p. 125

(3) Toynbee: op. cit. p. 15 in Med. World.

(4) Cantor: Med. Hist. p. 136

الاحتفاظ بقدر كبير من الاستقلال في أمورهم المدنية ، دون اندماج في الادارة المدنية الرومانية ، فقد حافظوا على قوانينهم الخاصة (١) ، التي بدت غريبة مختلفة وخضعوا لمواكهم ووكّلوا القنّون العسكريين لقيادة الإمبراطورية ، وبذلك عولوا أنفسهم من بقية الأهالي ، وجعلوا من أنفسهم طبقة متمايزة في شئونها الدينية وقانونية والاجتماعية ، ولم يصفوا كثيراً بالقانون الروماني الذي خضع له بقية المواطنين (٢) . ويوضح كثير من هذه الحقائق في العرض الذي تقدمه في الصفحات التالية عن ممالك الجرمان بغرب أوروبا .

(1) Pirenne: op. cit. p. 40 , p. 47

(2) Oman: op. cit. p. 227

الفصل الثالث

مملكة القوط الغربيين بإسبانيا وجنوب غالة

تأسيس المملكة (٤١٠ - ٥٢٩ م) : أنولف وقبادة القوط الغربيين إلى غالة - واليا والاستقرار في أكوئين - تحالف ثيودريك الأول مع الرومان ضد الهون - ثيودريك الثاني وحرمة السوفيين - إيورك وإحتلال أسبانيا وإرساء دعائم المملكة - الأريك الثاني والفرجة والحصار القوط الغربيين عن غالة إلى أسبانيا - أمريك وثيودريك ملك القوط الغربيين - إفراد أمريك بحكم المملكة سنة ٥٢٣ م .

عهد القوة والازدهار في عهد الملكة (٥٢٩ - ٦٠٣) : ثيوديس ومشاكل المملكة في مفرها الجديد - التنظيمات الداخلية - ثيوديجيزل - أجيللا - أماناجلد - ليفيجلد المؤسس الثاني لمملكة القوط الغربيين - ريكارد ونحول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية .

نهاية المملكة (٦٠٣ - ٧١١) : مدى غموض هذه المرحلة - وإترك ونهاية عهد بيت ليفيجلد - جندمار - هيسبوت وطرد الحماية البيزنطية من أسبانيا - سوثيلا وأبو الفقراء - الملوك الحسامين لكنيسة : سيناد - شثيلا - تولجا - شنداسونث واسترداد الامتيازات الملكية - قوانين شنداسونث - ركسونث وعهد الرخاء والازدهار (٦٥٢ - ٦٧٢ م) - وامبسا وسعارة

استمادة سلطات الملك الضائعة . قوانين وأما - الملوك الأواخر
في المملكة : إرويج . إبيكا . ويتزا . وودريك - غزو العرب
لأسبانيا - أسباب سقوط مملكة القوط الغربيين .

١ - تأسيس المملكة (٤١٠-٥٣١ م):

وأما كيف غزا القوط الغربيون إيطاليا تحت قيادة أاريك الجسور سنة
٤١٠ م وكيف رضوا بعد ذلك أن يخدموا مصالح الإمبراطورية الغربية ، فمضمين
نحو غالة سنة ٤١١ م بعد أن حل ملكهم الجديد أتولف Athaulf انخسأتم إلى
حصل عليها قومه إلى الوطن الجديد المرمع استخلاصه من جموع الوندال
والآلابيين Alans والسويثيين ^(١) Suevi . وكان على أتولف الملك الجديد
(٤١٠ - ٤١٥) أن يقود قومه صوب الغرب لاستخلاص المنطقة الممتدة من نهر
الوارس حتى جبال البرانس من أيدي تلك الجموع ، والاستحواذ عليها لقومه بعد
أن أن غدت شبه مفقودة بالنسبة للإمبراطورية ^(٢) ، واستطاع أتولف أن
يقم في جنوب غالة فعلا ، وأن يستولى على ناربون ويتخذها حاصمة له ، ويتزوج
بلاسيديا Placidia أخت الإمبراطور هونوريوس سنة ٤١٤ ليصبح مقربا
للإمبراطور وداعلا في طاعة الإمبراطورية ، غير أنه مالبث أن اغتيل في العام
التالي (٤١٥ م) ^(٣) ، فقام الإمبراطور هونوريوس بالاعتراف بأخيه واليسا
Wallia (٤١٥ - ٤٢٠ م) ساكا على القوط الغربيين للاستمرار في تنفيذ سياسة

(1) Jordanes : "Visigothic conquests," pp. 89-90 in Med. Worl.
by Cantor, p. 73

(2) Harold Livermore: A. Hist. of Spain p. 52

(3) Lot : The end of the ancient World p. 205, p. 277

الإمبراطورية والولاء لروما (١) ، ونجح واليسا في تهدئة غالة وطرد السويبيين إلى شمال غرب أسبانيا وإزاحة الوندال إلى جنوب نهر إيرو ، وترب على حروب واليسا في أسبانيا أن خضع القوط المجانب الأعظم منها باستثناء الجزء الشمال الغربي (٢) ، إلا أن الإمبراطور خشى من ازدياد قوة القوط في أسبانيا فمنح واليا منطقة أكويتين Aquitaine ، واعترف به حاكما عليها سنة ٤١٩ م فانخذ مدينة تولوز عاصمة له ، ولم تحض عدة سنوات حتى كان القوط الغربيون قد استقروا في جنوب غالة وحول تولوز وابتلعوا كل المنطقة التي بين نهرى اللوار والجاورون (٣) .

خلف واليسا على عرش القوط ثيودريك ، وهو ثالث ملوك هذه الأسرة (٤٧٠ - ٤٥١ م) فأنهك في توسيع رقعة أراضيه في جنوب غالة بالحرب تارة والخذاع تارة أخرى ، وبمحاربة الرومان والتضاء على نفوذهم حينما والتحالفت معهم أحيانا أخرى ، كما حدث أثناء حرب الهون في مسهل النصف الثانى من القرن الخامس (٤) فقد اتحقت قوات القوط الغربيين تحت قيادة ثيودريك بقوات الرومان وحلفائهم وانتصروا بالهون وأنزلوا بهم الهزيمة في شالون سنة ٤٥١ ، وأبلى القوط فيها بلاء حسنا حتى أن ملكهم ثيودريك لقى حتفه في تلك المعركة (٥) .

(1) Pirenne: op. cit. p. 27

(2) Livermore: A Hist. of Spain. pp. 52-53

(3) Lot : op. cit. p. 205

(4) Camb. Med. Hist. V. I. p. 280

(5) Bury : Later Roman Empire. I. pp. 261-6

وتولى العرش بعد ثيودريك إبنه ثورسمند Thorismund (٤٥١-٤٥٢ م) لكنه لم يهنأ بالعرش طويلاً ، إذ ثار حنده إخوانه بسبب اختلافهم معه فى السياسة التى يقبض اتهاجها مع الرومان ، ووضع أحدهم حداً لمشروعاته وحياته مما واحتل العرش باسم ثيودريك الثانى . وبدأ هذا عهده (٤٥٢ - ٤٦٦ م) بالتحالف مع الرومان وتمهدة الأمور معهم ، ومن أجل ذلك شن حرباً ضارية على السويبيين حين تهرموا فغبروا جبال البرانس ومجموعوا على غالة ، فنجبهم إلى أسبانيا وأحدث كثيراً من الخراب ببلادهم سنة ٤٥٦ م ^(١) . ويبدو أن الخلاف المذهبى بين القوط الأريوسيين والسويبيين الكاثوليك كان له ضلع فى إثارة الكراهية بينها واشتداد روح العداء بينها ، فضلاً عن الرغبة السامنة لدى القوط فى طرد السويبيين من أسبانيا وضمها إلى حظيرة مملكتهم . غير أن ثيودريك الثانى مالبث أن شرب من نفس الكأس التى سقاها لسلفه ، فقد قتل على يد أصغر إخوته إيورك Euric سنة ٤٦٦ قبل أن تنبأ له الفرصة لفتح أسبانيا ^(٢) .

شرع إيورك (٤٦٦ - ٤٨٦) بعد ولايته العرش فى انتهاج سياسة جديدة تجاه الرومان ، لم يحاول فيها مراعاة الصداقة ومظاهر الود معهم ، بل بدأ فى توسيع رقعة مملكته ومد حدودها ، فدفع السويبيين إلى غاليشيا سنة ٤٦٩ ، واستولى على إقليم بروغانس وبرى سنة ٤٧١ م وجد فى تصفية النفوذ الرومانى فى أجزاء أخرى من غالة بل إنه اتجه إلى تحقيق أطماعه فى أسبانيا فغبر جبال البرانس ، واحتل معظم شبه الجزيرة الأسبانية ^(٣) ، باستثناء غاليشيا وجزء من

(1) Camb. Med. Hist. V: I. p. 281

(2) Lot : op. cit. p. 212

Livesmore; op. cit. p. 54

(3) Helmselt: "Mediterranean in the middle ages," in B. H.

V, V. p. 2388

لوزيتانيا ، التي ظلت تحت حكم السويين (١) وذلك سنة ٤٧٦ م ، ولم تستطع الإمبراطورية الغربية أن تحرك ساكنا فقد شهدت نهاية عهدا في نفس العام على يد أدواكر ، غير أن إيورك نجح في حمل إمبراطور الشرق زينوف على منحه المنطقة الممتدة من نهر الرون حتى جبال الألب جنوب نهر الديرانس Durance (أحد روافد نهر الرون) ، فأصبح إيورك أقوى ملك في غرب أوروبا (٢) ، وبلغت مملكة القوط الغربيين أوج اتساعها وقوتها على يديه سنة ٤٧٦ م ، فامتدت من نهر السلوار شمالا إلى بوغاز جبل طارق جنوبا ، ومن جبال الألب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وحل الرغم من أن القوط نجحوا حينذاك في ضم كل أسبانيا تقريبا (٣) ، فإنهم ظلوا يفتعلون الحكم من غالة ومن مدينة تولوز بصفة خاصة ، وتوفي إيورك سنة ٤٨٤ م بمدينة آزل ، بعد أن أسس إمبراطورية كبيرة وأسس دعائم حكم القوط في تلك الجهات (٤) .

تولى العرش بعد إيورك ابنه ألدريك الثاني (٤٨٥ - ٥٠٧ م) ، ولم يكن له ما كان لوالده من مهارة في الشؤون السياسية والعسكرية ، بل كان ضميما قصير النظر ، ليس على شيء من الحصافة والمروية وواجه في بداية عهده غزو الفرنجة لثالة بقيادة كلوفس وإزال الخزيمة بسياجريوس في سوا دون سنة ٤٨٦ م ، (٥) وحل الرغم مما قربت على ذلك من خطر في قلب غالة ، وفراو سياجريوس

(1) Camb. Med. Hist. v. II, p. 159

(2) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 283-4

(3) Helmet : op. cit. p. 2388

Altamira: Hist. of spain p. 76-78

(4) Lot : op. cit. p. 315

(5) Oman : op. cit. p. 59

والتيجائه إليه ، وهدم الولاية الرومانية التي كانت حاجزا بين الفرنجة والقوط الغربيين ، إلا أن الأريك أظهر جهلا وقصر نظر حين بادر بتسليم سياجريوس إلى غريمه كلوفس فلم يتوان في قتله ، فدل الأريك بذلك على رعونته وسذاجته ، بعد أنه أصبح مملكة الفرنجة وجبا لوجه أمام مملكة القوط الغربيين^(١) ، وقرئب على ذلك أن اضطر القوط إلى الانحسار عن غالة ، وأن يقبضوا في أسبانيا منذ أوائل القرن السادس بعد هزيمتهم القاسية عند فوييه Vouille سنة ٥٠٧ م ، ومقتل ملكهم الأريك الثاني على يد الفرنجة فقد قذف بهم كلوفس الغربي إلى ماوراء جبال البرانس^(٢) ، ترفلاً وتقرباً للكنيسة الكاثوليكية ، التي كانت تهدى تبرعا من وجود أريوسيين في ربوع غالة ، وتشير الدلائل إلى أن كلوفس انتهز فرصة ضعف الأريك العنصرى بين قومه ، وعدم شعبيته بين وعاياه الرومان ، ولاسيا في أكوئين^(٣) ووجد في محاولة طرده من غالة إلى أسبانيا في أوائل القرن السادس ، وبرر قيامه بهذا العمل بكرهه للأريوسيين بسبب استمرار الأريك في اتباع سياسة والده في التحصب ضد الكاثوليك^(٤) .

ولقد هدأ ثيودريك العظيم في بداية الأمر الخلاف الذي نشب بين الجانبين ابتداء من سنة ٥٠٤ م ، بوصفه والد زوجة الملك القوطى الغربي من ناحية ، وصبرا للملك الغربي من ناحية أخرى ، واستطاع أن يكبح حجاج التنافسين

(1) Cantor ; Med Hist. pp. 147-8.

(2) Hodgkin : "The moulding of the nations" in B. H. VII. pp. 3371-2

(3) Oman: op. cit. pp. 62-3

(4) Livermore: op. cit. p. 55

(4) Ibid. p. 62

فترة ، لكن الزمام مالبث أن انقضت منه في سنة ٥٠٧ هـ ، حين أعلن كلوفس الحرب على القوط الغربيين ، وضم إلى جانبه سيجبرت Sigebert ملك كولون وزعيم الفرنجة البريين ، وضم إلى جانبه عدوه القديم جندوباد Gundobad ملك برجنديا (١) ، وتقدم كلوفس من باريس وعبر نهر اللوار وقابل القوط الغربيين في سهل فوييه قرب تور ، وعندئذ قهر الأاريك الثاني متجنباً القتال ربما لعدم ثقتة في قادته أو بسبب ضعفه وتردده ، غير أن جيشه أجبره على خوض المعركة ، فبدأ الفرنجة بالمهجوم ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ، وسقط قتيلاً هو وعدد كبير من رجاله (٢) ، واجتاح كلوفس كل الأقاليم الواقعة بين نهري اللوار والجارون دون أن يلقي أية مقاومة ، ودخل بور دو ظافرا ، وقضى الشتاء بها ثم سار منها إلى تولوز — عاصمة القوط — فاستولى عليها (٣) ، ووضع يده على كثير من كنوز ملوك القوط بها ومن بينها التحف الرومانية التي كان الأاريك الأول وأتولف قد حملها من إيطاليا قبل ذلك بنحو مائة عام ولم يكف كلوفس بالاستيلاء على تولوز (٤) بل إنه أحدث بها كثيرا من الخراب والدمار وأشعل فيها النيران ، وهكذا اضطرب أمر القوط الغربيين ولا سيما أن أمالريك Amalric بن الأاريك وحفيد ثيودريك العظيم كان صغيراً لا يتعدى الخامسة من عمره ، في الوقت الذي قام فيه البرجنديون — حلفاء كلوفس — باجتياح إقليم بروفانس

(1) Cantor: Med. Hist. pp. 147-8 .

(2) Lot : op. cit, p. 319

Cumb. Med. Hist. V. 1. p. 286

(3) Oman: op. cit. p. 63

(4) Livermore : op. cit, p. 55

واستولوا على كل مدله ماعدا مدينة آرل Arles^(١). وما زاد في ضعف القوط
الغربيين واضطراب أحوالهم ما حدث من انقسام داخل وحروب أهلية بين
القوط أنفسهم على أمر مناوأة ابن آخر لالاريك - غير شرعي - يدهى جيرانك
Gesalic ، بنفسه ملكا انحياز فريق من القوط اليه ، وتحصنه في تاريون ،
وبرشلوله ، لكن الفرنجة والبرجنديين دفعوه فوق جبال البرانس^(٢) ، وبدأ
الامر كأنهم أصبحوا كاب قوسين أو أدنى من وضع نهاية لملك القوط الغربيين
كلها شمال تلك الجبال .

أعلن ميودريك العظيم الحرب على كل من كلوفس الفرنجي وجندوباد
البرجندي ، حماة لحفيده أماريك ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتنفذ بقايا
للمملكة القوطية الغربية في غالة ، واستطاعت فرقة كبيرة من جيوشه أن تنزل في
برجنديا ، في الوقت الذي دخلت فيه فرقة أخرى إقليم بروغانس^(٣) ونجحت
قوات ميودريك في أن تلحق الهزيمة بجيوش الفرنجة والبرجنديين المتحالفين
المحاصرة لمدينة آرل : وقد قيل إنها قتلت نحو ثلاثين ألف رجل وأحادت من
جديد فتح تاريون وكل ساحل البحر المتوسط حتى حدود أسبانيا ؛ ونجحت
قوات ميودريك أيضا في استعادة كل غالة جنوبي نهر الديرانس سنة ٥٠٩ م ،
حتى لقد اقتصر غزو كلوفس على إقليم إكروين^(٤) ، وغدا الطريق بمذاك مفتوحا
أمام الجيوش القوطية الشرقية لتوغل داخل أسبانيا لمعاونة الطفل أماريك ضد
أخيه المناوئ جيزالك ، وبعد قتال ضار استمر نحو عامين انتهى الأمر بمقتل

(1) Oman : op. cit. p. 26

(2) Lot, op. cit. p. 319

(3) Oman : op. cit. p. 26, p. 63

(4) Cantor, Med. Hist. p. 147

الملك المزعوم سنة ٥١١ ، برغم حصوله على بعض المساعدة من ملك الوندال
Thrasamund (١) ؛ وأقيم أماريك ملكا على القوط الغربيين بوصاية
الكونت ثيوديس Thedis ، وهو قوطي شرقى كان من أتباع ثيودريك العظيم.
وهكذا أقر ثيودريك ملك القوط الشرقيين الأمور في مملكة أقاربه وأعطى حمايته
على حفيده ، واستعاد له أجزاء كثيرة من أراضي المفقودة في غالة ، وظل القوط
الغربيون سادة أسبانيا مع احتفاظهم بأجزاء من غالة فيما وراء جبال البرانس (٢).
ولمدة تقرب من إحدى عشرة سنة (٥١٢ - ٥٢٣) ، وحتى بلوغ أماريك سن
الرشد ، كان ثيودريك العظيم يحكم مملكة القوط الغربيين بأسبانيا بالاشتراك مع
حفيده ، واعترف بها ملكين على القوط الغربيين ، وهكذا اتحد قسم القوط مرة
أخرى بعد فترة انفصال دامت نحو مائتي عام (٣) ، وبعد أن أشد هود أماريك
الفرد بالحكم سنة ٥٢٣ حتى مقتله في سنة ٥٢٦ ، فقد تحرك الفرنجة من جديد ضد
مملكة القوط الغربيين ، بعد وفاة ثيودريك سنة ٥٢٦ ، ودامت المناوشات بين
الجماعين فترة ، ثم نجح الفرنجة في إزال الهزيمة بالملك القوطي الغربي قرب
ناربون (٤) وأرغموه على الفرار حتى لقى حتفه على يد بعض جنوده سنة ٥٢٩م ،
وبذلك انتهت فترة هامة في تاريخ المملكة بأسبانيا خلا فيها القوط الغربيون نحو
الاستقرار بأسبانيا ، مع غض الطرف كثيرا عن أملاكهم في جنوب غالة ،

(1) Oman; op. cit. p. 26

(2) Pirenne : op. cit p. 189

Livermore ; op cit: p. 55

(3) Oman; op. cit. p. 27

(4) Lot: op.cit. p. 264

Livermore; op. cit. p. 55

بسبب تحفز الفرنجة والبرجنديين وعدائهم المستمر ، ولولا جهود ثيودريك العظيم ووقوفه في صف أقربه واهتمامه بحفظ العرش لحفيده لأصبح من الصعوبة بمكان التنبؤ بمصير تلك المملكة منذ أوائل القرن السادس الميلادي^(١).

(٢) عهد القوة والازدهار في عصر المملكة القوطية الغربية (٥٢١ - ٦٠٢ م) :

ترتب على هزيمة القوط الغربيين أمام الفرنجة ، ومقتل أماريك سنة ٥٣١ م ، أن حرمت المملكة من أملاكها شمال جبال البرانس ، ولاسيا لإقليم سبتانيا الشهير بمدينة المطيعة ناربون ويمز Nîmes وقرتشمونة Carcassonne ، فضلا عما واجههم من مناهب في اختيار ملك جديد بعد مقتل كل من الأريك الثاني سنة ٥٠٧ م وابنه أماريك سنة ٥٢١ م وانتهاء السلالة الملكية في البيت الملكي القديم^(٢) ، ولهذا انهبوا إلى اختيار ملك جديد حسب العادة التيوتونية القديمة ، ووقع اختيارهم على الكونت العجوز ثيوديس Theudis ، وهو نبيل من القوط الشرقيين كان نائبا للملك أماريك خلال فترة صباه الطويلة^(٣).

وقد أثبت ثيوديس (٥٢١ - ٥٤٨ م) بعد اختياره مباشرة أنه لا يقل كفاءة عن الملوك الأصليين ، إذ استعاد للبلد جزءا كبيرا من أملاكها المفقودة فسيما وراء البرانس ، ولاسيا لإقليم سبتانيا الغني ، وإجتاز بالمملكة المرحلة الحرجة في تاريخها أمام الفرنجة ، وحى دولة القوط الغربيين من الانحلال^(٤) ، فندواجه بعد نحو عشر سنين غزوا فرنجيا جديدا ، وجمع مرة أخرى في صد أعدائه بعد معركة

(1) Gamb. Med. Hist. V. I. p. 286

(2) Oman: op. cit. pp. 128

(3) Lot: op. cit. p. 264

(4) Livermore ; op. cit. pp. 55

دائمة بالقرب من سرقلطة Saragossa سنة ٤٤٢م^(١). والواقع أن عهد يهوديس يمثل بداية مرحلة هامة في تاريخ القوط الغربيين إذ شهد انتقالهم من غالة إلى أسبانيا رسميا واستقرارهم في ممتلكاتهم الأسبانية استقرارا رسميا ، واتخاذهم لبرشلونة عاصمة لمملكتهم ، أي أن يهوديس كان أول ملك قوطى غربى يتخذ عاصمة في الجزء الأسباني من المملكة القوطية الغربية^(٢).

وكان على المملكة القوطية الغربية أن تواجه بعد ذلك مشاكلها في مفرها الجديد ، فقبل ذلك أعبر القوط الغربيون غالة وطناهم ، أكثر مما اعتبروا أسبانيا ، كما اعتبروا مدينة تولوز عاصمة لهم ومقر الملوكهم^(٣) ، أكثر مما اعتبروا برشلونة وطليلة ، فلما فقدوا غالة باستثناء إقليم واحد ، واقرن ذلك بانتهاء السلالة الملكية لبيت القديم ، عدت هذه أكبر مضنة واجهت القوط منذ هجرتهم الأولى ، فليس هناك ما هو أسوأ بالنسبة للقبيلة الجرمانية من ضياع الوطن واتناء سلالة الملوك ، وخاصة حين يصبح من الضرورة اختيار حاكم جديد من بين النبلاء ، الذين تتباين أهواؤهم وتزداد مطامعهم للوصول إلى العرش ، وتظهر بين حين وحين مؤامراتهم ضدمن يواتيه الحظ منهم ويصل إلى العرش^(٤).
لن بداية عهد يهوديس سنة ٥٣١ إلى نهاية عهد رودريك سنة ٥٧١م ، وعلى امتداد مائة وثمانين عاما شملت صرد ثلاثة وعشرين ملكا طرد مالا يقل عن مائة منهم من الحكم ، ومن بين هؤلاء الطرودين قتل سبعة على أيدي من خلفوهم ،

(1) Pirenne: op. cit. p. 189

(2) Camb: Med. Hist. V.II. pp.162-3

(3) Cantoro : Med. Hist. p. 148

(4) Oman: op. cit. p. 129

ولم يرد متوسط حكم هؤلاء الملوك عن ثمانى سنوات ، ولم يحدث أن خلف ولد أباه أثناء تلك المدة الطويلة ، إلا في ثمانى حالات ، وفي حالة واحدة انتقل العرش من الجده إلى الوالد ثم إلى الولد^(١).

واقصد مثلث صعوبة التقارب مع السكان الأصليين ، والخلاف للمذهب بين الفئزة والأهالي إحدى المشكلات الكبيرة التي واجهت القوط الغربيين في مفرم الجديد ، فعلى عكس ما حدث الفرنجة في غالة ، لم يمر اتحاد سهل بين الفاتحين الثيوتون والسكان الأصليين في أسبانيا ، بسبب الخلاف للمذهب بين الجاليين^(٢) ، ففى حين كان القوط الغربيون أريوسيين تلقوا الأريوسية على أيدي أجدادهم فيما وراء الدانوب في القرن الرابع ، وحلوا قرائنها معهم إلى وطنهم الجديد^(٣) ، كانت النالية المظلمى من الأسبانيين من الكاثوليك ، ولهذا كون القوط الغربيون جالية دينية خاصة بهم منفصلة تماما عن السكان لما أساقفتها وقسمها الأريوسيون^(٤) ، ولم يستطع القوط الغربيون أن يتفقوا بالأساقفة الوطنيين كما فعل الليروفنجيون في غالة ، ولم يدركوا عاصم التحالف مع الكنيسة المحلية كما فعل كلوفس^(٥) ، ففكره الوطنيون حكمهم واعتبرهم مهرطقين مثلبا اهتروم برايرة ، ولم يكونوا على استعداد لتقبل دولتهم ، وربما يضر ذلك قرحيب الوطنيين الأسبان بتقدم الفرنجة وبقدوم فرق الإمبراطورية الشرقية إلى شواطئ البلاد

(1) Ibid. p. 129

(2) Lot: op. cit. p. 264

Livermore: op. cit. p. 56

(3) Camb. Med Hist: V. I. p. 291

(4) Cantor: Med. Hist. pp. 137-8

(٥) ديفز : نفس المرجع السابق ص 56، ٤٤٢ p. Livermore: op. cit.

في القرن السادس (١)، إذ لم يسمح القوط لأحد من الأسبان بالوصول إلى مكان السلطة ، ولم يعترف على أسماء رومانية بين خدم الملك القوطي ، قبل تحول القوط إلى الكاثوليكية ، قرب نهاية القرن السادس . وهكذا ظل القوط الغربيون نحو سبعين سنة في بداية هدم أسبانيا (٥١١ - ٥٨٧ م) غرباء كلية بالنسبة لرايهم ، وبمبدين منهم دون اتحاد أو تقارب (٢). فلم يكن القوط الغربيون بأسبانيا إذن سوى قبيلة مبعثرة وسط محيط من السكان المضطهدين ، أي أنهم كانوا سادة بقوة السيف ، في حين أضعفت هذه القوة العسكرية بكثرة انصراف الملوك المنتخبين إلى تأكيد سلطتهم على النبلاء والرؤساء المذمرين والتصدي للثورات الداخلية ضد (٣)، حتى تسبب ذلك في عدم إمكانهم استخدام قوتهم الحربية في الخارج، فشلت تلك مشكلة أخرى ، وغدت كل حروب القوط الغربيين تقريبا حروب أهلية أو حروب دفاعية ضد القرنة المعتدين من خلف جبال البرانس (٤).

ونمة مشكلة أخرى واجهت هذه المملكة ، وهي أن القوط الغربيين لم يكونوا سادة لكل شبه الجزيرة الأيبيرية ، بل كان عليهم أن يتنازعوها مع أعداء ذوي بأس شديد ، كانوا دائما متحيزين للانقضاض عليها من الداخل ، وهم البسقية Basques ، ففي منطقة جبال البرانس الغربية ، وعلى طول سواحل خليج بسكاي، كان البسقية يكونون إمارة مستقلة وكانوا ينزلون من معانهم ليجتاحوا وادي

(1) Schurtz: "Spain and its conquerors" B. H. VII. p. 3511

(2) Oman: op. cit. p. 130

Pirenne : op. cit. p. 49

(3) Camb. Med. Hist. V. II pp. 163-70

(4) Oman : op. cit. p. 130

Lot: op. cit. p. 279

نهر إبرو كلما كانت لهم الفرصة والفضل عنهم القوط (١)، وأبعد من هذه الإمارة وإلى الغرب، كانت مازال في إقليم غاليسيا ولوزيتانيا القديم مملكة السويبيين الجرمان، قاهري أسبانيا الأصليين، وكان القوط الفرييون قد طردوهم إلى جبال الغرب، ولكن دون أن يتبعوهم إلى تلك الجهات التي انسحبوا إليها لإجبارهم على تقديم خضوع كامل (٢)، وحكم الملوك السويبيون من براغا Braga، وامتدت سلطتهم على كل المنطقة شمال نهر تاغوس Tagus وغربي إسلا Esla وتورمز Tormes، حتى السنوات الأخيرة من القرن السادس الميلادي، وشاركوا في الحروب الأهلية القوطية كلها سبعة الفرة، فكانوا يقومون بنهب وادي الدورو Dauro الأعلى والجزء الأدنى من نهر التاجوس، ومدوا نفوذهم على كل الإقليم المعروف الآن بالبرتغال (٣).

أما فيما يختص بالتنظيمات الداخلية، فقد ميزت المملكة القوطية النميرية مركزية مطلقة أي اعتماد كل شيء على شخص الملك، ولم يشارك السكان في تمييز دقة الحكم (٤)، وكان القوط الفرييون قد قسموا مملكتهم إلى أقاليم يحكم كل منها كونه أو دوق متبعين في تحديد تلك الأقاليم الحدود الرومانية القديمة تقريبا (٥) وتمنع كوتات القوط وأدواتهم بحرية أكثر في ظل ضعف ملوكهم المختارين، فكان

(1) Oman: op. cit. p. 131.

(2) Lot: op. cit. p. 278

Livermore: op. cit. pp. 52-53

(3) Hodgkin: "The making of the Nations" in the B. H. VII. p. 3371

(4) Pirenne: op. cit. p. 50

(5) Lot: op.cit. p. 276

كل حاكم لإقليم قوطى يحتفظ بحراس خصوصيين يسمون *Saiones* ، وأحياناً ما بقلارى *Bocellari* ^(١) ، وهم الاتباع الذين كانت الكونتات والأدواق القوط يضمون فيهم ثقتهم ، ويعملون منهم على تبعية مطلقة حتى في التحرك ضد الملك نفسه ، ولقد مكن وضع هؤلاء الاتباع المسلمين بين جموع السكان المعزول ، الكونتات والأدواق القوط من القيام بالمؤامرات والفتن ضد كبار السادة والملوك الضعفاء بصفة خاصة ^(٢) ، ويبدو أنه كان بين القوط الغربيين طبقة من الملاك الأحرار صغيرة نسبياً ، وأمر خثيل لطبقة متوسطة من النبلاء سواء أكانوا نبلاء رسميين « *Palatini* » أو نبلاء بالمولد ، مع أتباعهم للموالين *Saiones* ، وظلت الضرائب الرومانية تجب والنظام النقدي الرومانى كما هو لم يتغير ^(٣) . وعلى هذا فيمكن اعتبار هذه المملكة مملكة إقطاعية في تنظيماتها إذا كانت تتكون من قاعدة عريضة من السكان الميئد من الأسبانيين - الرومان ، يحكمهم عدد متفرق من رجال القوط المسلمين ، يرتبط كل منهم بأحد النبلاء الكبار برباط التبعية والولاء ^(٤) ، ويعتبر كل من هؤلاء النبلاء الكبار نفسه مساوياً للملك ، ويرتبط معه أيضاً بالولاء ، ولهذا لم تكن هناك فرصة أمام الملك لتسليم نفوذه وسلطته عن طريق طلب مساعدة الكنيسة أو الرعايا الرومانيين ، فقد حالت أريوسيته دون لجوئه إلى أى منها لطلب المساعدة والتأييد ، قبل أن

(1) Oman: op. cit. p. 131

(2) Lotz: op. cit. p. 262

(3) Pirenne: op. cit. p. 51

(4) Schartz: " Spain and its Conquerors " in S.B. H. VII.

تُبدل الظروف ويحدث التصارف بينها^(١) .

والواقع أنه التباين بين القوط والرومان كان قويا في كل الميادين ، ففى مجال القوانين خضع كل طرف منها لقانونه الخاص^(٢) ، فقد خضع الرعية لقانون على حرف بـ *Breviarium Alarici* وكان سادتهم القوط ياملون طبقا لقانون العادات القوطية القديم ، الذى لم يكن حتى ذلك الوقت قد دون أو اتخذ شكله النهائي ، ولقد دون هذا القانون فى أغلب الظن حوالى سنة ٥٢٧م على يد ويكارد *Reccard*^(٣) ، وكان الزواج بين الجنسين يمترا أيضا غير قانونى حتى سنة ٥٧٠م حينما كسر الملك ليوفيجلد *Leovigild* هذه القاعدة ، وتزوج ثيودوزيا *Theodosia* ابنة سفيريانوس *Severianus* ، فوضع بذلك سابقة خطيرة وهامة للامتزاج بين النصرين^(٤) ، فإذا كان حظر الزواج بين الطرفين قد اختفى على يد ليوفيجلد ، كما اختفت الأريوسية على يد ويكارد فإن اتحاد القوانين بين الرومان والقوط قد بدأ على يد ويكسونت *Recceswinth*^(٥) . وهكذا كانت أسبانيا تخضع فى عهد بغيض بالنسبة لها ، وكانت بحق فى حاجة إلى حاكم مشل ثيودريك العظيم ليمثل دور المصلح ، ويزيل الصعاب بين الاثنين الذين التقيا داخل حدودها .^(٦)

(1) Lot; op. cit. pp. 282-3

(2) Piranesi : op. cit. p. 49

(3) Oman; op. cit. p. 132

(4) Lot : op. cit. p. 280

(5) Piranesi: op. cit. p. 49

(6) Oman; op. cit. p. 132

تعرض للملوك الثلاثة الأوائل من القوط الغربيين بأسبانيا ، لنهايات أليّة ، فقد ظل ثيوديس نحو سبع عشرة سنة في الحكم (٥٢١ - ٥٤٨ م) ، نجح خلالها في التصدي لمحاولات ثلاث قام بها الفرنجة لغزو شبه الجزيرة (١) ، لكن نهاية هذا الملك كانت بالغة القسوة ؛ فقد روج للسرعة التي تم بها لجيوش جستنيان سحق الوندال بشمال إفريقية ، والقوط الشرقيين بإيطاليا ، وحاول أن يظف الضخمة على أقاليمه في إيطاليا عن طريق غزو شمال إفريقية ، وضم الإقليم الإمبراطوري الذي كان قد عاد توا إلى حظيرة الإمبراطورية (٢) ، إلا أن جيشه سحق عن آخره تقريباً بالقرب من قلعة سبنة سنة ٥٤٤ م وارتد هو بصعوبة بالنفس إلى أسبانيا يجر أذيال الحية والمار ، ثم لقي حتفه على يد القوط أنفسهم في إشبيلية بعد نحو أربع سنوات من هذه الحادثة (٥٤٨ م) (٣)

وقع اختيار رؤساء القوط بعد ذلك على ثيوديجزل Theudigisel (٥٤٨-٥٥٠ م) ليكون ملكاً عليهم ، وهو القائد الذي أنزل الفرنجة بالفرنجة عند سرقة Saragossa سنة ٥٤٢ م والذي حاز شهرة عظيمة أهله لتول الحكم ، غير أن هذا الملك كان بالغ الفظاظة والفجور (٤) ، ففجر كوامن الغضب في قلوب النبلاء ، فاغتيل فجأة بعد أقل من ثمانية عشر شهراً من اختيائه ، إذ وضع أسد قاذو النبلاء نهاية لحياته ، وهو يجلس إلى جوارم على مائدة المشاء يحتسى معهم الخمر ، فقد أطفئت الأنوار واغتيل في مكانه ، وكان ذلك في نفس المدينة (إشبيلية) (٥)

(1) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 162-3

(2) Livermore: op. cit. p. 55

(3) Lot : op. cit. p. 264

(4) Oman : op. cit. p. 133

(5) Camb. Med. Hist. V. II. p. 163

اختار أغلب القوط بعد ذلك أجيلاً *Agila* (٥٥٠ - ٥٥٥ م) ملكاً عليهم ،
 وجرى الاعتراف به ملكاً في طليطلة وبرشلونة ، في حين رفض كوتات المنسوب
 الاعتراف به ، ربما بسبب ما كان معروفاً عنه من تعصب للأريوسية واضطهاد
 الكاثوليك فضلاً عن الاختلاف العنصري القديم ^(١) ، وحينما حاول أجيلاً غزو
 الأندلس *Andalusia* تعرض لمهزيمة ساحقة أمام قرطبة ، ورأى ابنه وولي
 عهده يقتل أمام عينيه ، غير أنه ظل يحكم كل أسبانيا شمال جبال سهرامورينا ،
 وبدأ من القوة بدرجة جعلت قائد الثوار في الجنوب ، وهو الكونت أثنابيلد
Athanagild الذي كان يتنق الكاثوليكية مراراً ^(٢) يسم على الاستعانة بمجوش
 الإمبراطورية الشرقية لمواجهة . ولقد احتل جستنيان الفرصة لإزالة قواته
 بأسبانيا ، وسمح لحاكم إفريقية ليبريوس *Liberius* بعبور المضائق والذول عند
 قادس *Cadix* في محاولة جادة لجعل البحر المتوسط بحيرة رومانية كما كان ،
 بالاستيلاء على موانئ أسبانيا المطلة عليه ^(٣) ، وعند ذلك سارع كثير من المدن
 الأسبانية إلى فتح أبوابها للفرق الرومانية ، لاعتقاد الوطنيين المستضعفين بأن
 ليبريوس سوف يحسروهم إلى الأبد من حكم القسوط الغربيين ، ويستعيد
 للإمبراطورية سلطاتها على كل شبه الجزيرة ^(٤) ، ونجح قادة جستنيان في الاستيلاء
 على كثير من المدن ولاسيما على الساحل الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة سنة ٥٥٢ م ،
 ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحروب بين القسوط الغربيين وبين البيزنطيين أمراً

(1) Heinrich Schurtz: op. cit. p. 3511

(2) Lotz: op. cit. p. 264

(3) Ostrogorsky: op. cit. p. 65

(4) Oman: op. cit. p. 133

عنها ومستمرّاً بالنسبة للملك أسبانيا (١) ، وأخيراً اضطر أجيلا إلى استئجار كل قواته ، وعبر بهم جبال سيرامورينا للمرة الثانية ، واشتبك مع جيوش أاثانا جلد وليريوس أمام إشبيلية Seville ، فحضر أجيلا مرة ثانية لموقعة ساحقة وكارثة مروعة ، وأجبر على الحرب إلى مريدا Merida (٢) ، وعند ذاك أدرك القوط أنهم يدمرون أنفسهم بأنفسهم بينما يتقدم الرومان في أسبانيا ويحتلون مدينة بعد أخرى ، ولهذا أوقف القوط الحرب الأهلية وقتلوا ملكهم أجيلا ، وأقاموا قائد الثوار أاثانا جلد ملكا على للملكة (٣) .

أصبح أاثانا جلد Athanagild (٤٥٦ - ٤٦٨ م) بذلك ملكا على أسبانيا ، وصرعان ما أدرك أنه حين استدعى الرومان إلى شبه الجزيرة ، إنما جلب على نفسه أكبر خطر ، وعلى ملكة القوط الثريين أشد أعدائها قوة وصلابة (٤) ، وصح لديه هذا حين رفض قادة جستنيان الجلاء عن المدن التي احتلوا أثناء حرب القوط الأهلية ، ولا سيما أن وضعهم الجديد قد مكّنهم من السيطرة على معظم موانئ الساحل الجنوبي على جانبي مضيق جبل طارق لمحاولة إنعاش السيطرة البحرية على شواطئ البحر المتوسط (٥) ، ولم تعد كل من قادس وملقا Malaga وقرطاجنة Carthagena في أيديهم فحسب ، بل كثير من المدن الداخلية في الأندلس من

(1) Schurtz: op. cit. p. 3511

(2) Camb. Med. Hist. V. II, p. 163

(3) Prismae : op. cit. p. 68, Livermore: op. cit. p. 55

(4) Oman: op. cit. p. 134

(5) Bury: op. cit. p. 287

ببشها المدينة الكبيرة قرطبة Córdoba (١) ، وظل نفوذ الأباطرة الشرقيين قائما في قرطبة وغرناطة Granada عشرين سنة قالية ، ولم يتمكن القوط من استعادة مدن الساحل وإعادتها إلى خطيرة المملكة القوطية قبل سبعين سنة (٢) ، وهكذا فشل أمانا جلد في استرجاع المدن التي استولى عليها البيزنطيون . ، على الرغم من أنه نجح في إلحاق بعض الهزائم بقادة جستنيان ، وإن أفاح هؤلاء في الانسحاب إلى معاقلم للاحتواء بأسوارها فاضطر أمانا جلد في النهاية إلى عقد صلح معهم وتركهم دون إخضاع (٣) ، وعلى الرغم من أن أمانا جلد احتفظ بالعرش لمدة ثلاثة عشر عاما ، ومات ميتة طبيعية - على عكس أسلافه الحقة من ملوك القوط الغربيين - فإنه لم يكن على شيء من القوة ، ولم يكن للمملكة على عهده شيء من الازدهار (٤) ، فلم تحفظ لنا مدونات ذلك العصر عنه سوى القليل ، ولانذكره إلا بصفته والد الأميرين المنكوبين برتهلدس Brunhildis وجامسوثا Galawintha ، ولؤلؤ أسبانيا ، اللتين زوجهما للملك الفرنجة سيجبرت Sigibert وشلبرك Chilperich ، لظروف سياسية خاصة اقتضتها الحاجة (٥) ، إذ زوج الأولى لسيجبرت ملك أوستراسيا بهدف الحصول على مساعدته ضد أية محاولة من قبل إخوة هذا الملك في باريس وسواسون وبرجنديا ، ثم قادت شهرة وجمال وبراء هذه الأميرة بعدئذ شلبرك ملك سواسون لطالب يد أختها ، فلم يردد

(1) Lot: op. cit. p. 265

(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 72

Livermore: op. cit. p. 55

(3) Oman: op. cit. p. 134

(4) Picot: op. cit. p. 68

(5) Lot: op. cit. pp. 27-28

أثانا جلد في تزويجها منه بفرض خيانت تحالف آخر ، ولحسن حظ أثانا جلد أنه توفي بعد ذلك بقليل ، قبل أن يسمع مأساة جالسوتنا ونهايتها النعسة سنة ٥٦٨ هـ (١) .

غرقت للملكة القوطية القسرية في فوضى واضطراب ، بعد وفاة أثانا جلد لمدة خمسة أشهر ، فشل خلالها ببلاد القوط في اختيار ملك جديد وجرى كل منهم حسامه وجند جنده وهاجم جيرانه وفعل كل ما بدا في نظره سليما وصائبا ، ثم وافق حكام سبتانيا في النهاية على اختيار ليوفا Leova دوق نارايون حاكما عليهم (٢) ، غير أن كوثات جنوب البرانس رفضوا قبول هذا المرشح من الإقليم العالي ، واندلعت حرب أهلية جديدة ، ثم أوقفت على أثر اقتراح ليوفا بإشراف أخيه ليوفيجلد Leovigild منه في الحكم ، وكان ليوفيجلد مرفوقا لدى الجنوبيين ، ولهذا أقر هذا الاختيار معظم ببلاد أسبانيا ، واحتفظ ليوفا بلقب الملك وحكم سبتانيا ، بينما حكم ليوفيجلد شبه الجزيرة كملك لأسبانيا ، وظلت المملكة مقسمة على هذا النحو مدة أربع سنوات حتى توفي ليوفا دون عقب سنة ٥٧٢ هـ وعندئذ انفرد أخوه ليوفيجلد بالحكم ووجد من جديد بين سبتانيا وأسبانيا (٣) .

غدا ليوفيجلد (٥٦٨ - ٥٨٦) أول ملك يحكم مملكة القوط الغربيين كلها منذ نحو مائة عام ، وربما اعتبر المؤرخون الثاني لهذه المملكة ، لانتشاره إياها من ظلمات الفوضى والاضطراب ، ولأنه أرسى دعائم نظام جديد فيها ، وحسب

(1) Oman: op. cit. pp. 134-5

(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 164

(3) Oman: op. cit. p. 135

بشدة أعداءها في الشرق وفي الغرب وأعطاهما وحدة جنجها الوقوح فريسة في
أيدي الفرنجة والبيزنطيين^(١). فقد وجه ليوفيلد جانباً كبيراً من اهتمامه لمحاربة
أعداء المملكة، وتميزت الأعوام الثمانية الأولى من عهده بالحروب في كل الجبهات
بطريقة لم تدع له فرصة للانضاط الأنفاس، فقد وجه أولى ضرباته إلى
الإمبراطورين الذين قويت شوكتهم واتسع نفوذهم في قرطبة وقادس، وامتدت
سلطتهم على أجزاء واسعة من الأندلس^(٢)، واستطاع أن يتصر عليهم في صارك
عدة، فاقنم بازا Baza وأسيدونيا Assidonia، ودفع بالرومان إلى داخل
أسوار قرطبة وكانت هذه المدينة تحميها حامية قوية ويدافع عنها سكان كاثوليك
متصبون، أجبروا الملك على الاستمرار في الحروب لمدة عام كامل، ثم سلبت
قرطبة في النهاية في سنة ٥٧١ بمساعدة بعض سكانها من القوط وسقطت بعد
نحو عشرين سنة من بقائها في أيدي الإمبراطورين^(٣). وهكذا طرد
البيزنطيون إلى ما وراء جبال سيرافندا ولم يعد في أيديهم أكثر من شريط
ساحل يمتد من لاجوس Lagos إلى قرطاجنة. ثم تحول ليوفيلد بعد ذلك إلى
السوفييين، الذين كانوا قد استولوا على وادي الدورو الأوسط، والاندفوا إلى
قلب شبه الجزيرة الأيبيرية، ولأنهم كانوا قد تحولوا مؤخراً إلى الكاثوليكية
فقد رحب بهم سكان أواسط أسبانيا، غير أن ليوفيلد نجح في إزالة الهزيمة
ملك السوفييين ثيوديمير Theodemir واقنم معقله في سابرنا Senabria

(1) Let. op. cit. p. 280

(2) Camb. Med. Hist. V. II: p. 165

(3) Ostrogorsky op. cit. p. 72

وأجبره على الإذعان (١) .

شغل ليوفيجلد بعد ذلك ولاكثر من سنتين بقمع الثوار من الأهلالي الرومان في كل الجهات النائية والجهات الجبلية في أسبانيا خاصة في كانتبريا Cantabria ، وعلى شواطئ خليج بسكاي وبين الجبال المراكفية في الجنوب ، ونجح في أسر وقتل بعض قادة الثوار ولكل بأقباصهم ، وقضى على عصيانهم ، وبعد ثمانية أعوام من الحروب المتصلة تم إخضاع جميع أراضى المملكة سنة ٥٧٦ م باستثناء مدن ساحل الأندلس ، ورد الفرنجة الذين غزوا مدينة نابرون على أعقابهم (٢)

ولم تكن وطأة ليوفيجلد على النبلاء المناوئين في مملكته أقل مما كانت على أعداء المملكة الخارجيين ، فقد أخضع هؤلاء النبلاء واحدا بعد الآخر ، أولئك الرجال الذين كانوا دائما في تحفز لإغتيال ملوكهم ، (٣) كما دمغهم بذلك معاصر فرنجي ، وعين في أمانتهم كوثائق وأدوات من بين أعوانه الذين كانوا محمل قهقهة ، وفي النهاية كانت أول امره تطاع في كل المملكة من نيمز Nimes إلى إشبيلية Seville ، كما لم تطع من قبل ، وبدا كأن ملكية أوتقراطية قوية سوف تتحقق بين القسوط الغربيين (٤) ، كما حدث بين الفرنجة .

وفي نفس الوقت اتخذ من طليطلة مقرا دائما لحكمه ، وثبت بلاطه فيها بصفة

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 168

Livermore: op. cit. p. 57

(2) Lot: op. cit. p. 280

(3) Oman: op. cit. p. 137

(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 167

Altamira: op. cit. pp. 79-80

دائمة ، وأحاط نفسه بكل مظاهر الرفاهية والسرف ومراسم الملك التي كانت
القيصرية الرومان القدماء ^(١) ، فأتخذ التاج والصولجان ولبس العباءة القصرمية
وجلس على العرش الذهبي ، ولم يكن ملوك القوط الغربيون قبله يتميزون بشيء في
سلوكهم أو لباسهم من بقية النبلاء من القوط ولم يختلفوا عنهم إلا بجعل القب الملكي
وبالاحتفاظ بجمجمة كبيرة من الحراس الموالين الذين عرفوا بـ *Salones* ، فضى
ليوفيجلد في تأكيد سلطته واستقلاله ^(٢) ، ولما كانت عملة القوط الغربيين حتى ذلك الوقت
ليست إلا تقليدا متبررا لعملة روما والقسطنطينية الإمبراطورية ، فقد رأى ليوفيجلد
ضرورة وضع اسمه على كل العملات الذهبية في أسبانيا ، فعدا اسم الملك القوطي
منذ ذلك الوقت بوضع على العملة ليكون رمزا للاستقلال وتأكيدا للسلطة ،
وربما لجأ ليوفيجلد إلى إضافة اسم الإمبراطور جستين الثاني إلى جانب اسمه في
فترة إنتقالية استمرت سنوات قليلة ، ثم مال إلى أن يحذف اسمه وطمس آخر علامة
من علامات التسمية القديمة للإمبراطورية ، فالتفت بذلك آخر رابطة من
روابط الصلة بين أسبانيا والقسطنطينية . ^(٣)

وعلى الرغم من ذلك كله لم تته متاعب ليوفيجلد نهائيا ، فقد كان أحد
أعدائه من بين أفراد أسرته ، وكان ليوفيجلد قد تزوج قبل إعلانه العرش ،
وعلى عكس المادة القوطية ، من سيدة رومانية نبيلة ^(٤) ، هي ثيودوسيا *Thvedosta*
ابنة سفريانوس *Severianus* ، الذي كان حاكما لبعض الوقت على قرطاجنة ،

(1) Lot : op. cit. p. 280

(2) Oman : op. cit. p. 137

(3) Ibid: p. 137

(4) Pirenne: op. cit. p. 51

Livermore: op. cit. p. 57

Altamiras op. cit. p. 80

وأنجب ليوفيجلد منها ولدين هما هرمنجولد *Hermenegild* وريكارد *Reccared* وسجن توفيت هذه السيدة سعى ليوفيجلد إلى تقوية مركزه بالزواج من أرملة سلفه أماناجيلد وتدعى *Godiswintha* ، وسجن بلغ ابنه الأكبر هرمنجولد سن الرشد حزم على البحث له عن عروس من أسرة أماناجيلد أيضا ، وطبقا لهذا خطب له حفيدة زوجته وتدعى *Ingunthis* ، وهي ابنة سيجبرت ملك أوستراسيا (١) ، غير أن هذا الزواج أدى إلى نتائج بالغة السوء بالنسبة للملك ، فقد قدر لهذه العروس أن تكون سببا فيما نزل بأسابيا من هم وكندر (٢) ، فقد شبت تلك الأميرة في أوستراسيا على العقيدة الكاثوليكية ، وحسين انتقلت إلى أسابايا زوجة لأمير قوطي أريوسى ، ورفضت أن تتخلى عن عقيدتها ومذهبها ، وإذا صحت روايات الكتاب الفرنجة المعاصرين ، فإن هذه الأميرة الصغيرة تعرضت لأقسى أنواع العذاب لإجبارها على التحول عن الكاثوليكية دون جدوى برغم حداثة سنّها ، فقد جرى ضربها وحرمانها من الطعام وتمريضها في برك الماء القذر إلا أنها ظلت ترفض في إباء التخلّى عن مذهبها (٣) ، والغريب أن جدتها جوديسونثا (أم والدتها) هي التي أشرفت على تمذيبها ومحاولة إرغامها على ترك مذهبها ، وفي النهاية حين تمس ليوفيجلد من الصراع الدائم بين زوجته وحفيدتها ، قرر إرسال ابنه هرمنجولد زوج هذه الأميرة إلى مدينة إشبيلية ليحكم بإبادة عنه جزءا من الأندلس (٤). غير أن الأحداث أثبتت أن هذه الخطوة لم

(1) *Let; op. cit. p. 280*

(2) *Camb. Med. Hist. V. I. pp. 168*

(3) *Oman; op. cit p. 138*

(4) *Camb. Med. Hist. V. II. p. 168*

تكن موفقة ، فقد وقع الأمير القوطى كلية تحت تأثير زوجته الكاثوليكية ^(١)،
وتحت تأثير خاله ليندر Leander أسقف مدينة إشبيلية ، وبمعاونة ليندر
ومؤازرته أعلن الأمير القوطى الخروج عن طاعة والده ، وأعلن اعتناقه
للكاثوليكية ، وجرى تمحيده من جديد وفق مذهب الكنيسة الكاثوليكية ^(٢)،
ولأنه كان يعلم أن هذه الخطوة سوف تجلب عليه المتاعب من قبل والده ونعمته
من إرثه في عرش ملكة القوط الغربيين ، فقد بادر من جانبه بإعلان نفسه ملكا
وتحالف مع السوفيين ومع الإمبراطورية الشرقية ، ورحب بالكاثوليك في
جيشه من كل أنحاء أسبانيا ^(٣). والواقع أن ليوفجلد لم يواجه في حياته خطرا
أكبر من هذا الخطر ، إذ حركت هذه الثورة عنده كل عناصر الشعب في شبه
الجزيرة ، فقد نزل البسقاوية من مرتعاتهم ليشاركوا في الصراع ، واحتشد
السوفيون جنوب الدورو ، واحتل الإمبراطوريون من جديد قرطبة ومريدا
Merida وإشبيلية ، ونادت إيفورا Eura بالأمير الثائر هرنجند ملكا ، وبدأ
الأهالي المنتمون تحت قيادة أساقفتهم يشورون في كل أنحاء المملكة ، غير أن
قدرات ليوفجلد ومواقفه النظرية كفلت له السلامة من هذه الاخطار ، فقد
استدار بادهى ذى بده ليحارب الثائر ، واستطاع أن يبيض حركته ويقبض
على كثير من أعرائه ووج بائني عشر أسقفا في السجن ^(٤). ثم تحول إلى

(1) Schurtz: "Spain and its Conquerors" B. H. V. VII.

p. 3511

Livermore: op. cit. p. 57

(2) Lot : op. cit. p. 280

(3) Oman : op. cit. p. 138

(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 169

Alhamira: op. cit. p. 80

البساقوية فأُزيل بهم الحزيمة وأجبرهم على الارتداد إلى حدودهم ، وأقام على تلك الحدود مدينة فيتوريا Vittoria ومنه لذلك الانتصار (١).

تحرك ليوفيجلد بعد ذلك ليضع نهاية لصبيان ابنه ، وكان هرنجلد قد تمكن لتحرطهم الوادي الكبير ، فأنساب ليوفيجلد في سنة ٥٠٢ م فجأة لينقض عليه هناك ، ويزيحه إلى أسوار إشبيلية وعندئذ تحرك السوفيون لمعاودة حليفهم الثم ولهمفروا عنه الحصار (٢) ، ولكن ليوفيجلد أزال الحزيمة بمسلحهم مرو Miro ، وماد فاسترد مواقع حصاره لمدينة إشبيلية . وبعد شهور طويلة من الحصار استطاع الملك أن يقتحم المدينة ، غير أن الإبن الثامر وذو بته كبانا قد تمكن من الحرب ، ولاذا بالرومان في قلعة أوسيت Oset ، فتجنبا الملك ، وأطلع في استماله الإمبراطورين بدفع مبلغ كبير من المال فسلموا له المدينة كلها (٣) ، وعندئذ جرى سحب هرنجلد مكبلا بالأغلال ليمثل أمام والده ، وعلى الرغم من كل ما فعله فقد عفا عنه الملك ، غير أنه جرده من أوسيته الأمهية وبعث به مكرما ليعيش مهددا لإقامته في بلنسية Valencia كخائن عادي (٤).

وبعد ذلك التفت ليوفيجلد إلى السوفييين على طول وعرض بلادهم ، ولجج في إزال الحزيمة بهم وأسّر آخر ملوكهم أندیکا Andica ، وأجبره على الدخول إلى أحد الأديرة ليقتضى بقية حياته . وهكذا ففلسث ثورة هرنجلد في إلحاق الأذى

(1) Lots op. cit. p. 280

(2) Oman: op. cit. p. 139

(3) Prienne: op. cit. p. 60

(4) Camb. Med Hist. V. II. p. 170

Livermore: op. cit. p. 57

بالمملكة ، بل إنها في الواقع أفادت الملك فقد قضت على أعدائه في الشمال الغربي ، وأتمت متاعب القوط الغربيين من هذه الناحية (١) ، أما عن الابن الثامن هرمجند ، فقد كانت خاتمة قصة ، إذ كان والده قد وعده بإعادته إلى مركزه في المملكة إذا هو أنكر المذهب الكاثوليكي غير أن هذا الأمير الثامن ظل على عناده ، فأنهى به الأمر إلى السجن ثم القتل (٢) ؛ إذ لم تفلح القيود والأغلال في حمله على التحول عن عقيدته ، ولما زاد عناده ، استبد انضبط بوالده ، فأبذره بأسوأ العواقب ، وفي يوم عيد القيامة سنة ٨٥٥ هـ بمث والده بأسقف أريوسى ليمنح السر المقدس للأمير المسيحي ، غير أن هذا دفع الأسقف الأريوسى خارج ذراته مع صيحات الغنة ، ولما نقلت هذه الأنباء إلى والده غضب غضبا شديدا وفي لحظة من لحظات الهياج ، أمر بقطع رقبة ابنه المنيد ، فوضع بذلك نهاية قصة حياة هذا الابن الثامن (٣) وبعد أجيال نسي الناس ثورة هذا الأمير . ولم يذكروا سوى إصراره على الاستمرار في العقيدة الحقنة . ولهذا رفعوه إلى مصاف القديسين ، أما زوجته وابنه فقد جرى إرسالهما إلى القسطنطينية على يد حاكم ملقا Malaga الرومانى ، وماتت زوجته أثناء الرحلة ونجا الطفل غير أنه عاش ومات مغمورا في بلاط الإمبراطور موريس (٤) .

وكان على ليفيجند حينذاك أن يواجه غضب الفرنجة ، فقد حشد كل من

(1) Lot: op. cit. p. 280

(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 168

(3) Altamira: op. cit p. 80

Schurtz: op. cit. p. 3511

(4) Oman: op. cit. pp. 139-40

شلهبيرت أخى إنجنز ، وجنترام guntram مها قواهما للانتقام لمصرع زوجها
والنهاية النصبة التي انتهت إليها (١) وأرسلا أسطولا بحريا لإنزال قوة عسكرية في
غاليسيا ، وأهاجا من جديد السوريفين المقهورين ، بينما دخل جيش برجندي إلى
سبتانيا ، وهاجم نيمز Nizmes وقرقفوله ، إلا أن خبيرة ليوفيجلد العسكرية
وحظه المواتي دائما لم يظلا ، فبينما قام بنفسه لسحق الجيش الذي نزل في غاليسيا ،
كان ابنه ريكورد يلرد البرجندين من سبتانيا بعد أن قتل قائدهم ، وأفى نحو
نصف جيشهم (٢) وتقابل الوالد والابن المنتصران في طليطلة ، لكن يبدو أن
متاهب هذه الحملة ، ما لبث أن أحدثت الكثير في ليوفيجلد ، لأنه ما لبث أن
توفي بعد عودته مباشرة إلى العاصمة في ١٣ أبريل ٨٨٦ ، وبعد سنة واحدة وفي
نفس اليوم الذي أعدم فيه ابنه الأكبر ، وهى مصادفة نجح الكاثوليك في انتهازها
لتصوير ذلك على أنه كان جزاء عادلا له من السماء (٣) .

ريكارد Riccard و تحول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية:

وكان ليوفيجلد قد أفتق بلاء القوط قبل وفاته باختيار ابنه الثانى ريكارد
شريكا له في الحكم ، وتحتية بتحية الملك ، ولذا لم يحدث أى اضطراب أو نزاع
داخل عند وفاة ليوفيجلد ، فانتقل الحكم إلى ورثته ريكارد في هدوء ، وقد لهذا
الملك الجديد أن يترك بصماته على تاريخ ملكة القوط الغربيين ، بما إشتهر عنه
من حزم وإصرار ، حتى إن أعماله لا تقل أبدا عن أعمال والده (٤) ، فإذا كان

(1) Camb. Med. Hist.V, II, pp. 170-1

(2) Ibid. p. 171

(3) Oman; op. cit. p. 140

(4) Lot; op. cit. p. 280

ليوفيجلد قد أخذ المملكة من القوطى والاعطراب بضرباته القوية وجيشه المنحجز
فإن ريكارد قد وضعها على طريق جديد فى الحياة وهياً لها وضعاً جديداً فى
حياتها السياسية والدينية بالتحول الكبير الذى ارتبط باسمه ، وهو تحول القوط
الغربيين إلى الكاثوليكية^(١)

وكاف ريكارد (٥٨٦ - ٦٠١ م) ابناً لأم رومانية ، ولكنه على عكس أخيه
هرمنجولد - لم يظهر أى تمرد على الأريوسية فى حياة والده ، فلما توفى والده خطا
خطوات جعلت الأريوسيين يترجسون خيفة منه ، فقد استعصى اليه الأساقفة
الكاثوليك والأريوسيين وجعلهم يدخلون مرات فى جدل أمامه حول أسرار
الثالوث Trinity ويتناظرون فى الأمور التى تمس صلب العقيدة ويبدو أنه اتخذ
هذه الخطوة لتبسيط العقول والأذهان لتتحول المنتظر فى حياة القوط ، ولم تكن طاجا
لاى شك لديه هو فى المذهب الذى أزمع اعتناقه^(٢)

ويبدو أن ريكارد أدرك أن مملكة القوط الغربيين لن تقوم على أسس قوية
ما دامت الفجوة قائمة والانفصال حاداً بين الطائفة الحاكمة وبين جموع الرعايا
بسبب الحاجز الدينى والزواج المذهبى^(٣) فى الوقت الذى كان فيه القوط الغربيون
أقل عدداً بالنسبة لجموع السكان لدرجة لا تكفى للامتزاج بالأهالى أو الإندماج
مهم ، فضلاً عن أن القوط لم يظهروا أى رغبة لذلك ، وأدرك أيضاً أنه إذا لم
يحدث ذلك الاندماج والزواج ، فإن مملكة القوط محكوم عليها بالإزوال^(٤) ، فى

(1) Pirenne: op. cit. p. 51

Altamira: op. cit. p. 81

(2) Oman: op. cit. p. 140

(3) Schurtz: op. cit. p. 3511

(4) Dot: op. cit. p. 289

أهم وقت وبأى انتفاضة سياسية حينما يخلو العرش من ملك قوى حازم ، فقد تكفلت شجاعة ليوفيجاند البالغة بدمه ، مثل هذه الأخطار من المملكة ، ولكن لا سبيل إلى طمان وصول ملوك لهم نفس هذه المقدرة الإيجابية (١) ، عند ذاك أحمل ريكارد فكره وأدرك أن أوبوسية القوط الغربيين لم تكن أكثر من مسألة انكماش وقائي لدى الأسلاف ، تمحىل في طياتها مظاهر كبرياء المجلس وخيال المنظمة المنصرية ، أكثر مما كانت عقيدة حقيقية أو اقتناها حقيقيا . (٢) وآمن ريكارد أنه إذا أمكن له اتخاذ خطوات حذرة بطريقة تدريجية ، دون إحداث طفرة أو عمل فجائي أو اللجوء إلى الإكبار ، فربما أمكن له قيادة رعاياه بهدوء إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، وقد أثبتت الأحداث بسد ذلك أنه كان على صواب ، إذ حدث التحول إلى الكاثوليكية في هدوء ، وبالحكم وجرى بشيء من الحذر ، ولم يظهر ريكارد أية انفصالات أو يتورط في نصب أهوج . وهكذا تحول ريكارد إلى الكاثوليكية وأخذ رعاياه يحتنون حذوه (٣) ، واستقرت خطة ريكارد للفترة بين سنتي ٥٨٦ و ٥٨٨ ، مهد خلالها التحول الكبير في حياة المملكة القوطية ، ثم ماليف أن أعلن اعتناقه الكاثوليكية ، وجرى تعميده على يد خاله مطران إشبيلية وفق شعائر المذهب الكاثوليكي ، وعددته بجمعة الجبابرة الأعظم من شعبه ، وكثير من كوتات القوط وعدد كبير من الأساقفة الأريوسيين (٤) وساهمت الكنيسة في تبسيط إجراءات التحول إلى الكاثوليكية ، ولم تحاول أن

(1) Camb: Med. Hist. V. II: p: 173

(2) Oman: op. cit. pp. 141

(3) Hodgkin: " The moulding of the Nations " B. H. VII. p: 3372

(4) Livermore: op. cit. p. 58

تجرى عمليات تعميد جديدة ، بل أعلنت أنه يكفي أن يحضر الشخص إلى أي مكان للعبادة ، حيث يتلقى بعض التباريك المقدسة على يد قسيس كاثوليكي . (١)

وكان من المثير أن لا يمر مثل هذا الحادث دون متاعب ، فكثير من القوط من الملانيين ورجال الدين ، اعتنقوا الأريوسية ، وتمسكوا بها بصفتها العقيدة المقدسة لأسلافهم والسمة المميزة لمصرم القاهر ، ويعني ضياعها هدم ركن ركن في بناء الكيان القوطي (٢) ، ولهذا سرطانا أعلن ثلاثة من الثوار تدميرهم ورفعوا راية الصياني في أقاليم نائية مثل سبتايا ولوزيتانيا ، في الوقت الذي كان فيه زوجة والد الملك جوديرونا ، والأسقف أثالوك Athaloe رئيس الأساقفة الأريوسيين على رأس المناوئين والتدميرين ، غير أن الجانب الأعظم من القوط الغربيين لم يكتروا لذلك ، وتم للملك الانتصار على الأريوسيين ، برغم حالة قرائه ، وانتهت متاعب المملكة من هذه الناحية ، وأصبح القوط الغربيون منذ ذلك الوقت يسيرون فخرًا بكاثوليكيتهم ، كما فعلوا ذلك من قبل بعقيدتهم المهرطقة (٣)

وفي الوقت الذي كان ريكارد مغفولا فيه بإخضاع الثوار الأريوسيين اعتقد ملك برجنديا الغربي جنترام Guntram ، أن الفرقة سائحة لغزو سبتايا فأرسل جيشًا كبيرًا إلى وادي نهر الرود الأدنى ، ولكن هذا الجيش تعرض لحزيمة ساحقة قرب نابون على يد القوط كلاوديوس Claudius أحد قادة ريكارد ، وقد كان أول رجل تجرى في عروقه دماء رومانية ، ويرفع إلى أهل الرتب على

(1) Oman: op. cit., p. 142

(2) Camb. Med. Hist. V. II, p. 172

(3) Oman: op. cit., p. 142

يد ملك القوط الغربيين (١)، وكانت هذه المحاولة (٥٨٩م) آخر محاولة للديروفنجيين لغزو سبانيا ولم تكرر بعد ذلك مطلقا. وهكذا حالف الحظ وريكارد، ففضى على الأخطار المحدقة بالمملكة وأخضع البسقاوية، وحصر الإمبراطوريين في خط موانئهم الساحلية في الجنوب، وقمع بشدة ثورات صغيرة أشعلها بعض النبلاء القوط المتذمرين (٢)، ووجد معاونة صادقة - إبان هذه الظروف الحرجة - من الأساقفة الكاثوليك، وقال احتراماً وتبجيلاً كلنا تطلب على عدد من أعدائه. غير أنه في اعتياده كثيرا على الكنيسة جلب على ملكته خطرا جديدا، إذ عاوجبال هذه الكنيسة أثر مجلس الأمة (الوثان) (٣)، وتسلطوا على شئون البلاد، ففى حين بلغ عدد أساقفة أسبانيا في ذلك المجلس أكثر من ستين أسقفا، كان عدد الأدواق والكوتات أقل من ذلك بكثير، ومارس الأساقفة - وقد كانوا أكثر نشاطا وحكمة وتنظيما من زملائهم العلمانيين - تأثيرا متسلطا على المجلس، فنشأ عن أغليبيتهم المطلقة، يضاف إلى ذلك ما تتمتعوا به من تأثير روحى كبير على الملك ولعل ذلك يفسر ما حدث قبيل وفاة ريكارد، برغم حبه للتسامح والسلام، من حركة اضطهاد عنيفة لا للزبوسيين وحدهم، وإنما لليهود أيضا (٤)، ولهذا حاول اليهود أن ينفروا ريكارد بالأموال فرضوا عليه مبلغا كبيرا من المال حتى يخفف عنهم وطأة الاضطهاد ولكنه رفض، وكانت هذه الفتنة قد نجمت في الغنفل في أسبانيا وجمع جانب كبير من ثرواتها والتحكم في

(1) Lot: op. cit. p. 280

(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 172

(3) Oman: op. cit. p. 143

(4) Lot: op. cit. p. 282

اقتصادها وتجارتها ، وتمتعت بكثير من التسامح في ظل ملوك القوط (١) ، لاسيما
ثيودريك العظيم في إيطاليا ، فقد بلغ من تسامحه معهم حد استخدامهم في الوظائف
المالية والإدارية ، وجمع الضرائب ، فضلا عن وظائف أخرى هامة ومراكز
متقدمة في المملكة ، ويبدو أن هذا العهد من التسامح ، قد انتهى بتحول ريكارد
إلى الكاثوليكية (٢) ، على الرغم من أن تلك الأقليات من اليهود ومن الآريوسيين
لم تكن تظلم حينذاك في أكثر من الحصول لنفسها على حق الوظائف في الدولة ،
والتمتع بالحماية الدينية وإقامة المعابر الدينية الخاصة (٣) .

وبعد حكم امتد نحو خمسة عشر عاما ، توفي ريكارد سنة ٦٠١ م ، تاركا
المعرش لابنه ليوفا الثاني Leova II فكان المثل الوحيد في تاريخ القوط
بأسبانيا على تنابع ثلاثة أجيال من بيت واحد على العرش (٤) ، وكان الملك الجديد قد
بلغ العشرين من عمره حينذاك ، وأظهر إخلاصا كبيرا وتبعية كبيرة للأساقفة
الكاثوليك ، ولهذا فقد أظهر كثيرا من الحنان والعطف والطيبة أكثر مما أظهر
مقدرة وكفاية في شئون الحكم (٥) ، ولعل اعتلاء مثل هذا العاهل الضعيف كان
الفرصة التي ينتظرها النبلاء المتذمرون ، الذين ظلوا مدة تقرب من ثلاثين عاما
مكمنين تحت وطأة ضربات ليوفيجلد القويه وقبضة ابنه ريكارد الثقيلة ، فلما
سقطت الفرصة بولاية هذا العاهل الضعيف انتهزوها بفارغ الصبر (٦) ، وأضعلوا

(1) Sourix: op. cit. p. 3512

(2) Camb. : Med. Hist. V. II. p. 174

(3) Sahurtz: op. cit. p. 3512

(4) Oman: op. cit. p. 143

(5) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

(6) Oman: op. cit. p. 143

الثورة والصبيان ودعوا المملكة باغتيال ملكها الجديد في السنة الثامنة لولايته وأشرف على تلك المؤامرة الكونت ويترك Witterich ، الذي كان قد تزعم تمرداً أرويسيا سنة ٨٨٨ هـ على عهد ريكارد ، ونحفا عنه ريكارد حين أنظر التحول إلى الكاثوليكية ، غير أن هذا الكونت قابل جميل ريكارد باغتيال ولده في سنة ٩٠٣ م^(١) . وهكذا غرقت أسبانيا من جديد في خضم الفوضى والاضطراب والحروب الأهلية ، بعد فترة من الاستعرا والفتنة امتدت أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً ، بدأها ليونيليد ، وإن اختلفت طبيعة الصراع في الفترة الجديدة عن الفترة السابقة ، فنذا الصراع يدور حول المنافسة بين سلطة الكهنوت الكاثوليكي ، وبين سلطة النبلاء من القوط الغربيين ، وهو الصراع الذي حدد كثيراً سلطات الملك في مملكة القوط بأسبانيا^(٢) .

٣ - نهاية مملكة القوط الغربيين بأسبانيا (٦٠٣ - ٧١١ م) .

إذا كان توسع الباحث أن يقدم صورة مفصلة لتاريخ مملكة القوط الغربيين بأسبانيا منذ قيامها حتى مطلع القرن السابع ، فليس بوسعه أن يدهى المقدمة على إكمال هذه الصورة في القرن الأخير من عمر تلك المملكة ، إذ يلف الفموض بعض فترات التاريخ الأروبي ومن بينها الأعوام المائة الأخيرة من حكم القوط بأسبانيا^(٣) ، وتصبح المصادر الأصلية قليلة من ناحية ، وثافية من ناحية أخرى ، ولا يمكن الاستفادة إلا بقليل منها لإلقاء الضوء على تاريخ تلك الحقبة ، ويبدو أن الغزو الإسلامي للأندلس في سنة ٧١١ قد تسبب في ضياع الكتب والكتابات

(1) Camb. Med. Hist V: II, p. 173

(2) Lot: op. cit. p. 283

(3) Oman: op. cit. p. 221

مأ ، وعلى هذا فهو القوط الغربيين الأواخر غامضة أو ضائعة والمعلومات عنها قليلة ، مثل بدايات الملكيات الإنجليزية تماما ، فضلا عن أن أسبانيا افتقرت إلى مثل يدك Bede والمحويات الأنجلو - سكسونية المعاصرة ، لإقصاء الضوء على أحداثها وإزاحة الغموض عن تاريخها حينذاك (١) ، ولهذا فنحن لا نعرف عن كثير من ملوك تلك الحقبة في أسبانيا إلا أسمائهم ، أما أعمالهم وسياساتهم فنحن معروفة ، وتزداد حيرة الكاتب كلما قارب القرن السابع على الانتهاء حتى لا يصبح أمام الباحث في بداية القرن الثامن إلا أساطير وقصص غامضة لا يمكن الاطمئنان إليها (٢) .

انتهى بيت ليفيجلد إذن بعد نحو أربعين سنة من النجاح ، بنهاية تسعة بعد اغتيال الملك الغاب ليفوفا الثاني سنة ٩٠٣ م ، وكان قائده الكونت ويترك Witterleah النبيل المتمرد الذي كان قد أعلن حركة عصيان أريوسية من قبل وعفا عنه ريكارد بشاسح لا يتطوى على حكمة أو بعد نظر ، لأن هذا الشارطاد من جديد فكف ييغريكارد حتى استمراره في الحكم (٣) ، ويعتبر اعتقال ويترك العرش ثورة ضد السلطة الملكية النامية ، التي أرسى دعائمها ليفيجلد وابنه ريكارد ومن المحتمل أن ذلك التمرد كان احتجاجا على السياسة الدينية التي اتبعها ريكارد وابنه ليفوفا الثاني ، إذ منح التحول إلى المذهب الجديد الأساقفة السكاثوليك سلطة قوية في المملكة (٤) . ولقد حكم ويترك مدة سبع سنوات (٩٠٣ - ٩١٠ م) ،

(1) Ibid. p. 221

(2) Ibid. p. 221

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

(4) Lot : op. cit. pp. 281-2

Livermerv: op. cit. p. 59

ولم يكن بوسعه أن يحصى العرش الذى اغتصبه مدة أطول ، على الرغم من أنه دخل فى صراعات خارجية مع القرىجة فى إكوتين ، ومع الحامية البيزنطية فى الأندلس ، ولكنه لم يحط بأية شهرة أو مجد فى الجبهتين ، لأن الكنيسة اتخذت موقفا معاديا منه ، فى حين أهمله الكونتات والأدواق ، ولم يعبروه الفناقا ، ولم يأسف أحد أو يدهش حين اغتيل ويترك فجأة سنة ٦١٠ فى إحدى المناسبات ، على يد بعض المتآمرين ، كما حدث لأحد أسلافه من قبل وهو الطاغية ميروديميزل (١) .

أختير الكونت جندمار Gandimar (٦١٠ - ٦١٢) ، بدلا من ويترك ، وظهر أنه كان على رأس الجماعة المنتهبة للكنيسة الكاثوليكية ، كما وصفه بذلك أحد المعاصرين من رجال الدين ، ظهر أن جندمار صمم على محاولة الضرب فى الميدان الخارجى بسهم ، ومحاولة إقحام بعمل خارجى يكسبه الشهرة والمجد ، فشارك فى الحرب الأهلية القرىجية التى اندلعت فى ذلك الوقت (٢) ، حين قام ملك برجنديا بمهاجمة ملك أستراسيا ، وكان طبيعيا أن ينحاز جندمار إلى جانب ملك أستراسيا البعيد ، ضد أخيه ملك برجنديا الذى يشترك مع قوط سبانيا فى بعض مشاكل الحدود ؛ ولكن جندمار مالبث أن توفى فى نفس العام ، الذى اندلعت فيه الحرب ؛ بعد نحو واحد وعشرين شهرا فقط من تنصيبه سنة (٦١٢) (٣) ،

(1) Oman; op. cit. p. 222

(2) Lot; op. cit. p. 331

Heyck: "Rise of the Frankish Dominion" B. H. VII.

p. 3478

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

اعتلى الملك سيسبوت (٦١٢ - ٦٢٥) العرش بعد جندمار ؛ وكان أمهراً مرموقاً وعلى خلق ، ومثل سلفه صديقا حيا للكنيسة وعدواً للبدوأ للنبلاء المقتدرين (١) ؛ ولم يكن محاربا كبيرا فحسب ، بل أيضاً أصميراً قوطيا مثقفا وكاتباً قديراً ، وقد بذل المؤرخون المحدثون جهداً مفضياً العثور على كتابه المفقود ، تاريخ ملوك القوط ، دون جسدوى ؛ وشاء القدر أن يحفظ من كتبه سيرة دينية بعنوان حياة وآلام القديس دزدريوس Desiderius ، وبعض الأشعار الركيكة التي مازالت متداولة ، ونعلم من بعض أصدقائه الغربيين والمسيحيين به أنه كان ماهراً في قواعد اللغة والبيان والبلاغة والفهجة المحلية ، وأنه شيد كندراية جميلة في طليعة (٢) . ولم يكن سيسبوت مجرد عالم أو حكيم متوج فحسب ، وإنما كان محاربا فذا ، فقد استأنف العمل الذي كان قد توقف وأهمل منذ وفاة ريكارد ، وهو طرد الحامية الرومانية الشرقية خارج الأندلس ، وجمع مجاهداً تاما في ذلك ، فقد هزم الإمبراطور هرقل إبان حنة حربه مع الفرس عن إرتحال أية مساعدة إلى أسبانيا (٣) ؛ وانهز سيسبوت الفرصة وراح يعمل على إيجاز مشروعه ، فأخذت المرائي - على طول الساحل الجنوبي الشرقي لآسبانيا من مصب الوادي الكبير - إلى مصب السوكر Suere - تسقط واحدة تلو أخرى في يد سيسبوت (٤) ، ولم يبق للإمبراطورية الشرقية سوى الأملاك الواقعة إلى أقصى الغرب ، وفي أقصى زاوية الجنوب الغربي البرتغال بما فيها قلعة لاجوس

(1) Lot. op. cit. p. 282

(2) Oman: op. cit. pp. 222-3

(3) Ostrogorsky : op. cit. pp. 83-6

(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

Lagon والقسم المرتفعة سانت فينسنت Cape st. Vincent^(١)، وبعد الإتهام من تأدين ساحل الأندلس شيد سيسبوت أسطولا صغيراً عبر به بوغاز الجبل (طارق) ليستخلص سبته Cetta وطنجة Tangier من نائب أفريقيا ، وفي سنة ٦١٥م عقد هرقل معه صلحاً على أساس استعادة نفوذه الشكلي في المناطق التي غزاها سيسبوت ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجح سيسبوت أيضاً في ترويض البسقاوية شديدي المراس فقد تقيمهم في مرتفعاتهم وجبالهم ، وأجبرهم على دفع الجزية^(٢) .

هذا بالنسبة للبيدان الخارجى ، أما عن الميدان الداخلى ، فقد كان سيسبوت أقل توفيقاً فيه ، فلكى يقدم ما يليق بالمعاونة الصادقة التي قدمتها الكنيسة ، ويصبح مرضياً عنه من رجالها ، استسلم كلية لرعبات الأساقفة ، وبدأ في حركة اضطهاد وحشية لليهود ، حتى تمتد تلك الحركة ، أول مرة قاسوها على أيدي القسوط الأواخر ، ولا سيما أن سيسبوت كان يرغبهم على التحول إلى المسيحية بالقوة وقد تعرض من أجل ذلك للوم إيسيدور^(٣) . وقد حكم سيسبوت ثمانية أعوام فقط ، وكان قد احتاط للأمر قبل وفاته ، فجعل مجلس الأمة ينتار ابنه ريكارد الثاني ملكاً ، فلما توفي سيسبوت خلفه ابنه على العرش دون معارضة ، ولكن قيل أن تخفى بنته واحدة على وفاة سيسبوت لحقه ابنه ريكارد الثاني ، وانتقل التاج إلى بيت جديد^(٤) .

(1) Oman: op. cit. p. 223

(2) Lot: op. cit. p. 279

(3) Ziegler : Church and state in Visigothic Spain. p. 189
Pirenne : op. cit. p. 85

(4) Lot : op. cit. p. 282

كان الكونت سوثيلا Swithila (٩٢٠-٩٣١) الذي اختاره القوط ملكاً ، قائداً حروباً ماهرة ، استطاع أن يظهر في الحرب ضد البسفاوية ، وحاز شهرة عظيمة في تلك الحرب ، غير أنه — على عكس سيسبوت — لم يكن منحازاً إلى حزب الكنيسة ورجالها ، ولهذا كان عليه أن يواجه دسائسها ومكائدها ، طوال الأعوام العشرة التي حكمها^(١) ، وكان أيضاً غير محبوب من قبل النبلاء بسبب ما أقدم عليه من تأكيد حقوق صفار الملك الأحرار من القوط ، وما ينيه ذلك من كبح هاج النبلاء ووضع حد لغواثهم وثوراتهم ، فقد أخذ هؤلاء يتناقصون رويداً رويداً في خضم اعتمادهم على جيوشهم وأتباعهم ، حسب النظم الإقطاعية السارية^(٢) . وكان حرصه على مصالح صفار الملك الأحرار هو الذي منحه اسم « أبو الفقراء » وكان ولاد هذه الفئة له هو الداعمة الوحيدة التي مكنته من الاحتفاظ بعرشه تلك السنوات ، على الرغم من اتخاذ الكنيسة وكبار النبلاء جانب المعارضة له .

ولم يخل عهده من بعض النشاط العسكري والنجاح العربي ، فقد استطاع أن يستول على لاجوس Lagos وقلمة سانت فنسنت St. Vincent ، وكالبا آخر معاقل البزنطيين في أسبانيا ، لتصبح شبه الجزيرة الأسبانية أخيراً في يد حاكم واحد^(٣) . وحقق نجاحاً ثانياً أيضاً أمام البسفاوية حيث اجتاج أوديتهم الجبلية في نافارو Navarre وبسكاي وشيد قلعة أوليت Olite فيها ولاء تهرس الإبرو وقرىها من بامبلونا Pampeluna ليتمكن من السيطرة عليهم^(٤) . غير أن

(1) Oman : op. cit. pp. 223—4

(2) Schartz : op. cit. pp. 3512—13

(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 72

(4) Camb. Med. Hist. V. II p.175

سوثيلا واجه أعداء كثيرين - لم يمكنه من الاحتفاظ برشه طويلا ، فقد
ثار ضده أحد الكونتات ويدعى سيسناد Sinad ، وكان حاكما على سبتانيا ،
واسلحه ملك الفرنجة داجوبرت لمساعدته ، وعرض عليه مبلغ عشرين ألف
دينار من الذهب نظير هذه المساعدة (١) ، وكانت غالة قد ضمت في ذلك الوقت
متحدة تحت حكم ملك واحد وانتهت حروبها الأهلية وصار بوسع ملوك الفرنجة
بعد فترة طويلة للدخول في مطاعم التوسع والغزو الخارجي (٢) ، وما أن حصل
سيسناد على بعض الفرق من الفرنجة لمعاوخته ، حتى هرب جبال البرانس ، وسار
نحو مرسطة Saragosa ، حيث كان الملك قد تقدم للقائه ، غير أنه لم تمسح
معركة أو يحتدم قتال بين الجانبين ، لأن الحياة صرطان مالمعت دورها في إنهاء
عهد سوثيلا ، فقد تقدم كبار النبلاء والأساقفة وقبضوا على سوثيلا في معسكره
وقيدوه بالأغلال وسلوه إلى سيسناد (٣) ، وكان مفتصب السلطة في هذه المرة
أكثر رقة وعظما من كثير من ثوار القوط السابقين ، لأنه اكتفى بقتل
سوثيلا في أحد الأديرة دون أن يأمر بقتله ؛ وكان سيسناد قد وعد صديقه
وحليفه الفرنجي داجوبرت أن يسلمه ، أكثر كنوز القوط فخامة وأعظمها قيمة
في الثروة الملكية ، وهو وعاء ذهبي كبير كان يمد من مفاخر النعمة الرومانية ،
ويوزن نحو خمسين قرطال ، وكان تذكارا قديما يرجع إلى القرن الخامس الميلادي (٤)
— وبر سيسناد بوعده لحليفه وسلم سفراء داجوبرت الوعاء ، غير أنه حين بدأ

(1) Pirenne: op. cit. p. 60

(2) Camb. Med Hist. V. II. p. 175

(3) Pirenne: op. cit. p. 60

(4) Oman: op. cit. pp. 224-5

الفرجة في محله من أسبانيا ، أقسم كونتات القوط على أن مثل هذا الأثر العظيم والإرث المبجل للملوك القدماء لن يخرج من البلاد وهكذا تقدموا فأخذوه بالقوة وبمشوا بدلا منه مبلغا كبيرا من المال قدر بنحو مائتي ألف دينار من الذهب (١)

والواقع أنه سيناد كان حاكما ضعيفا ، ما لبث أنه أصبح المروبة في أيدي الأساقفة ، وقنع برسوم السلطة الشككية ، وذابت في ظل ضعفه قسوة وبريق الاسم للملكى ، وتبخرت سلطة الملوك بأسبانيا ، وضاعت أهمال كل من سيسوت وسوثيلا ، وأصبحت الكنيسة هي التي تحكم أسبانيا وليس الملك (٢) ، وكلما اجتمع المجمع المقدس كان سيناد يرى راء كما ودعمه ينهر على وجهته ، يبكي خطاياهم ويتوسل إلى مجمع الآباء المقدسين ويسأل الرحمة والغفران . حكم سيناد خمس سنين فقط (٦٣١-٦٣٦) وخلفه على العرش شينثلا (Chinthila) Khintila (٣) فكان المروبة جديدة في يد السلطات الكهنوتية ولا يعرف عنه أكثر من أنه « عقد مجامع مقدسة كثيرة مع أساقفته ودعم نفوذه بمعاونة العقيدة الخفية » ، وحكم مدة ثلاث سنين فقط ، ولكن أشياعه الكنسين سمحوا له قبل وفاته أن يخرج ابنه تولجا Tulla خليفة له . وانتهى حكم سيناد ، على الرغم من أنفاس لا يعرف شيئا عن نهاية الملك نفسه (٤) . وكان تولجا أداة طيعة جديدة في أيدي الكنسين وبحكم لمدة سنتين فقط ثم نعى عن العرش على يد بعض المتذمرين من كبار النبلاء ، الذين كرهوا تدخل الكنيسة في الحكم ولإدياد نفوذ رجال الدين في

(1) Ibid. p. 225

(2) Lot. op. cit. p. 282

(3) Livermore: op. cit. p. 60

(4) Camb. Med. Hist. V. II: p. 175

للملك ، على مدى اثنتي عشرة سنة ، شملت صمود ثلاثة من الملوك المنحفياء الخاضعين للكنيسة^(١) ثم أرسل تولجا إلى أحد الأديرة ، ودعا الثوار الجمعية القومية للاجتماع وجرى اختيار الكونت شنداسون^(٢) Shindaswinth بأن أجمع الكل على اختياره^(٣) وكان تقدمه في السن - إذ لم يكن يقل عن تسعة وسبعين عاما - عاملا هاما في إغراء الثوار والمتمردين باختياره ، لما يرسل في ظل حقه من انطلاق الأيدي وحرية الحركة .

غير أنه سرعان ما أدرك النبلاء أنهم جانبوا الحقيقة في حكمهم على شنداسون^(٤) (٦٤١ - ٦٥٢) ، إذ يبدو أن لمسة التاج على جبهة الملك قد أطاعت إلى هذا الكهل شبابه وحاسته ليحد القوط أنفسهم أمام ملك من طراز ليفيجد وسوتيليا ، وسلطة إقطاعية بالغة القوة في القمع ، لا تقيم للقانون وزنا ولا ترضى حكمة في ذلك^(٥) . فقد نصب شنداسون نفسه فجأة مطالبا بإسترداد الامتيازات الملكية من كبار النبلاء من جهة ، ومن المجامع المقدسة من جهة أخرى ، وهوت قبضة الحديدية على رؤوس المتآمرين بقوة ، ولاسيا أولئك الذين اغتالوا سوتيليا قبل اثنتي عشرة سنة ، فقد في البحث عنهم وأمر بإعدامهم^(٦) ، وفجأة أعلن معظم النبلاء أسبايا العبيان وهرب كثير منهم إلى إفريقيا طالعين معرفة النائب البيزنطي فيها ، وهرب آخرون إلى ملوك الفرنجة مستجدين ، غير أن شنداسون^(٧) جمع

(1) Ziegler : Church and State in Visigothic Spain p. 101

Pirenne: op. cit. p. 52

(2) Let : op. cit. p. 282

Livermore: op. cit. p. 60

(3) Pirenne: op. cit. p. 52

(4) Oppen : op. cit. p. 225

كل حركاتهم وقضى على تمردهم بقتل نحو مائتين من كبار النبلاء وأزول نخسائة منهم إلى الطبقة التالية ، وكان يأمر السيف بقطع رؤوسهم وإراقة دماهم وأزول الكثيرين منهم إلى طبقة العبيد^(١) ، وعندما قضى على تلك الثورات أجبر المجمع الديني المتعقد في طليطلة على إعلان الامة الكبرى على كل النبلاء التائبين وتوقيع حقوبة الحرمان والقطع من راحة الكنيسة على كل من يتعاون مع الثوار أو يقبل التمرد والعصيان وبذلك حقق شنداسون أهدافه^(٢) ونجح في إقرار الأمور في أسبانيا ، وأزول صارم ضرباه بالمناولين والتأمرين وبدأ وكان البلاد قد دامت له بعد فترة طويلة من الضعف والاضمحلال^(٣) ، ولهذا استتب السلام في ربوع أسبانيا على مدى السنين السبع الأخيرة من حكمه والدليل على ذلك أنه استطاع أن يشرك معه في الحكم ابنه ركسونث Reccaswinth ، دون أن يجرؤ القوط على معارضته أو اظهار أية علامة على التملل^(٤) ، وحكم الملك وابنه مالمدة ثلاث سنوات شغل ركسونث خلالها منصب الملك ووظائفه في حين تفرغ شنداسونت لأعمال البر والتقوى ، وتميز حكمها المشترك بواحد من أهم الأحداث في تاريخ المملكة القوطية بأسبانيا ، وهو إتمام عملية الامزاج والوحدة بين الفزاة والآمال ، وهى العملية التى كانت قد بدأت بالتحول إلى الكاثوليكية على عهد ريكارد سنة ٥٨٧م^(٥) .

(1) *Loc. cit.* p. 282

(2) *Camb. Med. Hist.* V. II. pp. 176-7

(3) *Oman ; op. cit.* p. 226

Livermore: op. cit. p. 60

(4) *Camb. Med. Hist.* V. II. p. 177

(5) *Oman; op. cit.* p. 226

قوانين شنداسوث :

وقد نتج عن ذلك أن أخذ القوط والأسبان يتقاربون في كل شيء ، ويشابه كل منها الآخر ، وقد جعل ذلك ملوك القوط يفكرون في إخضاع الرعايا جميعا لقانون واحد (١) ، ولأسيان أن العناصر كلها أغسلت بمنزج امتزاجا كاملا والجناس يذوب بعضها في بعض ، وللكوتات والادواق من الأسبان يتكاثرون ويتماثلون عاما بعد عام ، حتى غدوا قرب نهاية العصر القوطي يناهزون الاساقفة وروؤساء الأديرة من القوط (٢) ، ولم يعد جنس واحد يستطيع احتكار السلطة الزمنية ويحتس حلى آخر بشرف احتكار الوظائف الدينية والسلطة الكهنوتية (٣) ، ولهذا أزمع شنداسوث إيقاف استخدام القانون الروماني القديم في كل أنحاء المملكة ، وجعل جميع الرعايا يستخدمون القانون القوطي ، حل الرغم من أنه أدخل كثيراً من عناصر القانون الروماني في قانونه ، وهكذا نفا قانون شنداسوث (٤) . وتزجع قيمة القانون الجديد إلى أنه صار لكوتات والمثاليين الشخصيين للملك منذ ذلك الوقت نظاماً تشريعياً كاملاً ينضج له كل السكان من الأسبان الوطنيين وفيهم رجسبال الكتيبة (٥) ، وقد كان الأسبان عسرومين من قبل من قانونهم الروماني ، ومن محاكمهم الخاصة . ومن قضائهم ، وكانوا لا يقبلون في خدوعهم للقانون عن خضوعهم في النواحي الإدارية والعسكرية

(1) Pirenne: op. cit. p. 49

Altamira: op. cit. p. 31

(2) Oman : op. cit. p. 226

(3) Camb. Med. Hist. V. II, p. 178

(4) Schurtz: op. cit. p. 3512

(5) Lot: op. cit. pp. 280

لكونت القوطى، وفي نفس الوقت رفع الحظر عن الزواج بين القوط والآمال، وكان ما يزال ساريا، على الرغم من الخروج عليه وكسره منذ عهد ليوفيجلد^(١). وهكذا أصبح كل رعايا الملوك متساوين أمام القانون .

توفي شنداسوت سنة ٦٥٢، وقد بلغ من العمر أودله، ويصف على القسرين طاما، ولم يكن له نظير بين ملوك الجرمان في عصره، وانفرد ابنه وشريكه وكسوت بالعرش، وكان هو أيضا متقدما في العمر، وحظى بأطول وأهدأ عهد حكمه ملك قوطى (٦٥٢ — ٦٧٢ م)، وعد عهده من أزهى عهود القوط وأكثرها رخاء وعظمة^(٢)، وكان وكسوت على عكس والده سندا قويا وعظما للكنيسة، واستطاع أن يحتفظ ببرشه إلى آخر يوم في حياته بمساعدة الأساقفة، لكنه سمح بتسرب السلطات الملكية من بين يديه شيئا فشيئا، وهى التى جهد والده في سبيل استعادتها^(٣)، وكلما تخدم به العمر كانت سلطات الحكم تنساب إلى أيدي الأساقفة والمجامع الدينية، بينما شغل وكسوت طوال عهده ببناء الكنائس وبذبح الذبائح، وتقديم القرابين للقديسين، والخضوع لرجال الدين^(٤). ولقد حفظت لنا المصادقة وحدها تاجا ذهبيا كبيرا، مع وصف خاص له قدمه وكسوت للمذراء، وهذا التاج يعتبر الآن درة متحف كلوني بباريس، ويعد أحسن أثر من آثار الغب التيوتونى في ذلك الوقت^(٥)، وتحدثت الروايات

(1) Pirenne : op. cit. p. 51

(2) Lot; op cit. pp. 262

(3) Pirenne : op. cit. p. 85

(4) Camb. Med. Hist. V. II p. 170

(5) Omeg: op. cit. p. 227

المعاصرة من الموالع والسجيا الروحية التي منحت لركومت ، فقبل إنه ورئيس الاساقفة ميلدن Hildesheim كانا يتيران وحدهما بالقدرة على ودية طيف القديس ليوكاديا Leocadia بالعين المجردة في كندراية طليطة ، ويبدو أن ذلك كله كان انعكاسا لما أظهره هذا الملك من تقوى وورع وحلف على الكنسين (١) . وعلى الرغم من تلاشى السلطة الملكية على عهد ركومت ، فإنه فيما يبدو كان قائما بما تمتع به من سلام وقرخ لمباداة وإظهار التقوى والورع ، كما أنه لم يد أي اعتمام بمستقبل العرش ومن يخلفه في الحكم ، ولا سيما أنه لم يعقب ، واكتفى بمساحلة من شهرة خلفه وورعه وبساطته إذ كان ، لطيفا وبسيطاً لا يجد أحد من رعاياه صعوبة في الوصول إليه ومهادته (٢) . حقيقة لم تظهر نتائج ما ينفرد ركومت من بذور الضعف والاضمحلال في السلطة الملكية إبان حياته ، ولم يقطع جبل السلام الطويل الذي امتد نحو عشرين عاما سوى ثامر واحد مغمور ، إلا أن عناصر الانحلال والضعف كانت تقوى وتشد في كيان المملكة (٣) ، وكان التبلد يمدون في محاولة تأكيد وتثبيت مطالبهم القديمة في الحرية الإقطاعية ، في حين كانت سلطة رجال الدين تزداد شيئا فشيئا في المملكة (٤) ، وأنشروا توفى ركومت سنة ٦٧٧ دون أن يعقب ، فغضير من جديد صراع كبير بين التبلد للوصول إلى العرش وانتهى الأمر باختيار وامبسا لتولي الحكم .

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 170

(2) Omsu: op. cit p. 228

(3) Lot: op. cit p. 283

(4) Schartz : op. cit: pp. 3512-13

تم اختيار وامايا Wamba (٦٧٢-٦٨٠) ، ملكا على القوط سنة ٦٧٢ ، بعد أن أبدى تمنا ورفض أن يحمل اللقب ، فولا أن جرد أحد الأنداق سيفه عليه ، ومعه بالقتل واختاره خاتماً لبلاده وأمه وواجه إذا هو تردد في قبول المنصب ، ورفض لإجابة الجمعية العمومية ، فقبل وامايا التاج وانحنى أمام قوة الإلزام وكان وامايا في مستقبل العمر ناضجاً له سمعة طيبة وسجالياً حميدة تبشر بعد جديد في حياة المملكة القوطية (١) . والواقع أن لدينا سلوفاة ضافية من عهد وامايا ، أكثر مما لدينا عن هرود أسلافه وخلفائه ، وذلك بسبب ما وصلنا من ترجمة حياته التي كتبها الأسقف جوليان Julian أسقف طليطلة ، وما تزال محفوظة حتى اليوم فنحن نعلم أنه كان قاسياً وحيفاً مع القوط ، نهج في ذلك نهج الملك شنداسوث ، وأن عهده شهد أكثر من محاولة لاستعادة سلطات الملك الضائعة التي تهاون وكسوت في التفريط فيها ، ولهذا فقد بدأ الثوار وللارثون يتكاثرون حين بدأ الملك في تأكيد قبضته القوية في الحكم (٢) ، كما اتهم البقاوية الفرصة للعديد سلاحهم ، وشغل وامايا باخضاعهم وتبليغهم في جبالهم وأوديتهم الجبلية في الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أخرى في سبثايايا زعمها الكونت ميلدريك Hilderic (٣) . أرسل الملك لقمع تلك الثورة جيشاً كبيراً بقيادة الدوق بولس Paulus ، وكان ضابطاً تجرئ في عروقه دماء ورومانية ، غير أنه بدلا من أن يهاجم معاقل الثوار في سبثايايا أخذ يجرى مفاوضات معهم ، واستطاع أن يستميل قدامه وكبار ضباطه بالرشوة والأموال وما لبث أن أعلن نفسه ملكاً وسمى نفسه ملك الشرق (٤) ،

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

(2) Oman: op. cit. p. 228

Livermore: op. cit. p. 61

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

(4) Oman : op. cit. p. 229

ثم بعث إلى وامبا رسالة قال فيها : « باسم الإله ... يقدم فلافيوس بولس ملك الشرق العظيم تحياته إلى وامبا ملك الغرب ... » ، وعندئذ أسرع وامبا بالاتحاد من جبال البستارية ليلاق جيش الثوار قبل أن ينقضي أسبوع واحد على إعلان هذا التحدي ، وبدأ وامبسا بسد منافذ البرانس في وجه بولس ، وساق أمامه الفرق العسكرية لهذا الغرض ، ثم أسرع إلى مهاجمة ناربرون عاصمة سبتانيا ، وبعد ثلاثة أيام فقط من حصاره لها ، نجح في اقتحام المدينة بالقوة والاحتياط عليها ، ثم أمكن لوامبسا استعادة معظم المدن الواقعة بين البرانس ونهر الزون ، وهرب بولس للاحتباء بالأسوار القوية لمدينة نيمز (١) ، وأرسل يستعج بالفرنجية ، غير أن الملك وامبا كان قد أسرع إليه ، وكان القوط قد اكتسبوا مهارة فائقة في اقتحام المدن خلال صراهم الطويل ولاسيما إبان محاولاتهم لطرد البيزنطيين من شبه الجزيرة (٢) ، فاستلج وامبا بواسطة آلات الحصار المستخدمة آنذاك يدخل نيمز في اليوم التالي مباشرة لحصارها ، وعند ذاك لجأ بولس ولنيف من كبار أهواله إلى مدرج روماني وأغلقوه على أنفسهم وحولوه إلى قلعة محصنة ، ولكنهم اضطروا بعد أيام قليلة إلى الاستسلام (٣) وطلبوا الصنع والنفران من الملك ، تحت وطأة الجوع ، ووعد الملك بالحفاظ على حياتهم ، وحين سلم بولس وستة عشر من كوتنا من وقاله أنفسهم للملك أمر بأن تزح شعورهم ولحامهم من المذود ويتأذوا في موكب نصر إلى مدينة طليطة ، حيث طيف بهم من شوارعها مكبلين بالأغلال خضاء الأقدام يلبسون قمصانا من الخيش ، وفي مقدمتهم بولس

(1) Lot : op. cit. p. 283

(2) Oman : op. cit. p. 230

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

مرغديا تاجا من جلد ثبته إلى جلد رأسه الماري بطبقة لاصقة من القطنان^(١) ، وكان من بين رفاق بولس واحد من الأساقفة القنوط وقسيس آخر من أصل روماني ، وأربعة وعشرون من الكونتات والرؤساء من بينهم سبعة عشر من القنوط ونماية لهم أسماء رومانية . ومن الأحداث التي وقعت في عهد وامبا أيضا قيام المسلمين في سنة ٦٧٥ ، بمحاولة الهجوم على أسبانيا ولرندادهم أمام عجبات الأسطول القنوطي وحلف المقاومة^(٢) .

قوالين وامبا :

والواقع أن تلك الضريرة القاسية التي ألحها وامبا بالنبله ، قد ضمنت حكما مادنا لهذا الملك ، ومنحته فرصة الجلوس على العرش نحو سبع سنين (٦٧٣ - ٦٨٠ م) ، قضاهما في سلام وروخاء محاولا جهده أن يسكن آلام دولة القنوط الغربيين ويؤخر انبيارها ، فقد حاولت قوانينه أن تعالج المخاطر وتسد أوجه النقص في المملكة^(٣) ، وكانت طبقة صفار الملاك ، وهم الذين كان ينبغي أن يشكروا دعامة الجيش ودرعه المتينة ، قد تآزرت على الاختفاء ، ولهذا لجأ وامبا إلى إصدار مرسوم حتم فيه على العبيد والرجال الأحرار أن يلبوا النداء للحرمه وأن يكونوا على أهبة الاستعداد دائما لأداء واجبهم^(٤) ، وأمر أيضا أن يرأس الأساقفة أقتانهم إلى ساحة القتال ، وهي القيادة التي كان رجال الدين يكرهونها

(1) Oman: op. cit. p. 230

Livermore: op. cit. p. 61

(2) Pirame: op. cit. p. 155

(3) Schurtz: op. cit. pp. 3511-12

(4) Lotz op. cit. p. 283

كثيرا ، رغم أن هذه التجربة شاعت في غضون أجيال قليلة في أنحاء كثيرة في أوروبا ولاسيا إنجلترا وغالا وألمانيا (١) .

وحل الرغم من كل ما أداه وامبا للمملكة القوطية في أسبانيا ، فإنه فقد عرشه في حادث غريب أو ربما بمؤامرة أكثر غرابة ، فقد وقع مريضا سنة ٦٨٠ م وقطع الأطباء الأمل في شفاؤه ، وسقط في غيبوبة طويلة ، وطبقا لعادة من عادات العصر ووفقا لبعض الطقوس الدينية ، قام خدمه بإلباسه ملابس ديرية ، وقصوا شعره حتى قنة رأسه (٢) ، حتى يلتق ربه وهو على الدين الحق ، لكن قدر له قبل وفاته أن يعهد أكثر المؤمرات غرابة ، فقبل أنه يلفظ أنفاسه كان إرويج أقرب الضباط إليه وموضع ثقته قد استولى على النفاس الملكية ، وأعلن نفسه ملكا . وكان إرويج ابنا لبنت أخته الملك الراحل شنداسوث ، وكان يعتبر نفسه الوراث الشرعى لخال أمه ، على الرغم من أنه لم يكن قوطيا تقياً ، فقد كان والده لاجئا يونانيا قربه شنداسوث وشرفه بمنحه يد ابنة أخته (٣) . ولقد ما كان فزع القصر أن وامبا المجو لم يمض ، فقد أفاق من غيبوبته الطويلة وراح يحسن شيئا فشيئا ، وأنه اعتقد أنه بوسمه مباشرة «لطاقته من جديد ، إلا أن الملك الجديد إرويج ورجال الدين في القصر إشتركوا في محاولة إقناعه بأنه قد أصبح وامبا ولم يعد ملكا متوجا ، وأنه لذلك لا يستطيع أن يستعيد زيه الملكي أو سلطته الملكة ، وتم إزال وامبا عن عرشه وانزاج كل سلطانه (٤) ،

(1) Oman: op. cit. p. 230.

(2) Camb. Med. Hist. V. II. p 179

(3) Oman: op. cit. p. 231

(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

ولم يكن وامبا أكهر من خرافات عصره أو أوسع أفقا من معاصريه ، فقد استسلم للفكرة وانسحب إلى أحد الأديرة حيث عاش بقية حياته حتى شاخ ، وقد شاخ بعد ذلك ، أن غيريته الطويلة لم تكن طيبة ، وإنما هي بفعل فاعل ، وأن لإرويج أعطاه - وهو على فراش المرض - جرعة منومة قوية ذهبت بروحيه ليتمكن من إكمال بقية المؤامرة ، إذ عمد إلى إلباسه ثوب الرهبنة ، حتى يتمكن من الاستيلاء على التاج وتم له ما أراد (١) . وكان وامبا آخر الملوك القوط الغربيين الحقيقيين ، فقد كان الملوك الأربعة الذين جاءوا بعده مجرد ظلالات أطياف مترجمة ، ولا تعرف عنهم سوى القليل وربما لا تعرف عنهم شيئا ، لأنه يموت وامبا غاص التاريخ الأسباني في أكثر الفترات ضوحا وإبهاما (٢) .

الملوك الأواخر في مملكة القوط الغربيين :

تولى بعد وامبا أربعة ملوك م : إرويج Erwig (٦٨٠ - ٦٨٧ م) ، وإيجيكا Egica (٦٨٧ - ٧٠١ م) ، ووينزا Witiza (٧٠١ - ٧١٠ م) ، ثم رودريك Roderic (٧١٠ - ٧١١ م) . وليس لدينا سوى حقائق قليلة يمكن التمسك منها عن الأول والثاني ، في حين أننا لا نعرف عن الملوك الآخرين سوى اسميهما (٣) .
ففيما يخص إرويج ، فعل الرغم من أنه بدأ قويا لدرجة مكنته من الاستيلاء على العرش فإنه اعتقد الشجاعة للدفاع عن الحقوق الملكية ، وترك التاج يهود من جديد إلى الاعتماد الكلي على الكنيسة (٤) ، وهي نفس الظروف التي مر بها التاج

(1) Oman: op. cit. p. 231

(2) Lot: op. cit. pp. 283-4

(3) Oman: op. cit. p. 231

(4) Schurtz: op. cit. pp. 3512-13

على عهد كل من سيناد وركسورث ، وكان يسيطر عليه ويحجبه جوليان أسقف طليطلة ، ولهذا بدا إرويج أبدا ما يكون عن ملك متوج ، وأقرب إلى مطران أو أسقف كنسي ، فليعلم من جوليان أننى إرويج القوايين العسكرية التى سنها وأما ، لأنها كانت تضايق الكنيسة كثيرا ، ولا تحظى برضاء رجال الدين ، كما استأنف إرويج الاضطهاد الجديد لليهود ، وهى السياسة التى صاحبت دائما اعتلاء للترك النصارى الحاضرين الكنيسة (١) ويدو أن المهرمة التى ارتكبها إرويج ضد وأبسا ظلت تفرقه وتعذب ضميره ، لأنه عهد إلى ابن أخت وأبنا ووريثه فى الحكم ، ويدعى إريجيكا فاختاره خليفة له فى الحكم (٢) ، وزوجه من ابنته وجمعه يقسم على أن يكون وليقا طوقا على زوجته وأخواتها ، وحسن اطمأن إرويج على مستقبل إبنته وأولاده ، خلعت تاجه ونمى نفسه من الحكم وتبع وأبنا إلى الدير .

غير أن إريجيكا ما لبث أن حنت بعده بمجرد أن أقرته الجمعية العمومية ملكا ، وجمعت الأساقفة يحلونه من قمه ، وقام بتطليق زوجته ، واستولى على أملاك إخوانها أبناء إرويج وراح يتجاذى فى فيه (٣) وتغير عصر إريجيكا بآخر وأفسى درجة من درجات الاضطهاد التى نزلت باليهود فى ذلك الوقت ، حدث فيها عطف لم تهدده عهود ملوك القوط الغربيين أو الكنسيين من قبل ، ووفقا لما ارآه الجمع السادس عشر الذى عهد بطليطلة سنة ٦٩٥ م ، فقد كان يجرى القبض على كل شاب أو صبى يهودى ويأخذه مع السيد ، ينبا يجرى نزح الأطفال اليهود

(1) Pirenne: op. cit. p. 85

(2) Camb. Med. Hist. V. II p. 180
Livermore: op. cit. pt 62

(3) Oman: op. cit. p. 232

من أمرهم ويسلمون لأمر مسيحية تقوم بتشتيتهم على العقيدة المسيحية الكاثوليكية كما حرم عليهم إيجيكا التعامل التجاري مع المسيحيين (١) ، ومن الغريب أن كثيراً من اليهود قبلوا هذا الإجراء ، وافقوا عليه ، في حين لجأ الأغلبية منهم إلى الهروب إلى إفريقيا ، ويبدو أن السلطات الأسبانية لجأت إلى هذه الإجراءات لتقلصا من اليهود الذين تمت أنهم كانوا يتآمرون لتسليم أسبانيا إلى أعدائها ، ولا ياتذمون بالولاء للبلاد التي عاشوا في كنفها (٢).

وكانت قوة خيعة قد وصلت إلى قرب ملكة القوط الغربيين ، وغدت تتطلع إلى هزها وهي قوة للمسلمين الذين تغلبوا ، بعد نحو خمسين سنة من الحروب الضارية ، على الحكام البيزنطيين في إفريقيا واقتحموا قرطاجة سنة ٦٩٨ م اختصر معقل من معاقل الإمبراطورية الشرقية (٣) وانتهت السلطات القوطية اليهود بأنهم هم الذين راسلوا المسلمين يستحفونهم لعبور المضييق ووضع حد لحكم الأساقفة الأسبان المتحصبين ، وإنهاء شقاء اليهود ومذلتهم في تلك البلاد (٤) وليس هناك ما يؤكد هذه الدعوة ، لأنه يمكن فهم الأسباب التي أدت إلى سقوط المملكة القوطية ، فإذا كان القوط في أسبانيا قد عاشوا أكثر من ثلاثة أجيال بين جيران ضعاف ، حيث فرجة غالة الضمضاء ونواب إفريقيا المتهاكون ، فإن الأمر قد اختلف برودة قوة المسلمين النية التي كانت في أوج حاسنها وقوة اندفاعها ، ولهذا تعجزت تلك القوة الفتية لكتابة الفصل الأخير في حمر ملكة القوط الغربيين بأسبانيا .

(1) Priano : op. cit. p. 85

(2) Schurtz : op. cit. p. 3512

(3) Oman : op. cit. p. 232

(4) Camb. Med. Hist. V. II, p. 181

دوق انتظار دعوات توجه إليها للقيام بهذا العمل^(١).

وقدر لإيجيكا ألا يرى يوم النهاية ، ولا ابنه وبنا ، الذي سماه العرب غيطفه ، وقد تولى العرش بعد والده ، وأحاط عهده غموض شديد ، حتى إننا لا نعرف عنه شيئاً بالمرة أكثر من أنه كان معروفاً بين الناس مكروهاً من رجال الدين^(٢) أما تفصيلات أعماله والشريرة ، الأخرى فليست سوى أوامره ، تختص عنها خيال الكاتب الديريين في القرط العاشر الميلادي ، ويبدو أن من بينها أنه أراد أن يورث ابنه أخيل Achilles العرش ، كذلك كان يعارض قرارات البايوية ويصحب اليهود . والواقع أنه لم تكتب في عهده كتابات يمكن أن تلقى الضوء على تلك الحقبة ، وبعد سنتين من وفاته وقعت أسباباً في يد المسلمين ، ولم يكن ثمة مؤرخ وطني يحرر على كتابة الساعات الأخيرة لمملكة القسوط الغربيين^(٣) غير أنه يبدو أن هذا الملك اندفع في غمرة حماسة لاسترداد سلطات الملك الضائعة - في موجة عنف شديدة كتلك التي صاحبت جهود الملوك الضعفاء فقام بسل عينى دوق قرطبة ثيودفريد Theodfred ، فحرك بذلك الحنفى والمقد في قلب ابن هذا الدوق درودريك ، الذي هرب إلى الشمال والتجأ إلى سكان الجبال هناك ونجح في جمع أشياء له هناك ، تمكن بواسطتهم من الوصول إلى العرش^(٤) .

وحين توفي وبنا صغيراً تاركاً اثنين من الأبناء ، لم يكن أحدهما أهلاً ليلي الحكم ،

(1) Schurtz : op. cit. p. 3513

(2) Oman: op. cit. p. 233

(3) Oman: op. cit. p. 233

(4) Schurtz ; op. cit. p. 3513

اختار القوط الكونت وودريك ملكا عليهم^(١) غير أن هذا الاسم أصبح بالنسبة لنا أميا مجردا طويلا عن كل الحقائق ، على الرغم مما ذهب إليه المؤرخون المتأخرون من أنه كان يصف صلة نسب لكل من شنداسوموت وإرويج ، وحتى إذا صح قولهم فهو بذلك يصبح خصما لدودا لبيت واميا وإيميكيا ، مصرعان ما أنزل وودريك المزعومة بجيش أخيلا وأجبره على الفرار مع رفاقه إلى شمال إفريقيا واعتلى وودريك العرش^(٢) . وقد حكم وودريك لمدة ثمانية عشر شهرا فقط وحدث في عهده أكبر حدث شهده أسبانيا في تاريخها ، وغير مجرى ذلك التاريخ حين استولى العرب عليها ووضعوا حدا لعهد المملكة ، القوطية فيها ، بعد أن قضوا نحو عشرين سنة في ترويض المغاربة والبربر ، وبعد أن دأب لهم شمال إفريقيا وأذهت القبائل الجافية لحكمهم ، اندفع الجميع في حاسة بالغة ليفتحوا أسبانيا ويبنوا عهد ملوكها من القوط الغربيين^(٣) .

وتعكس روايات هائلة بمناصر أسطورية تنتمي إلى عصر متأخر ، قصة ظامنة تتعلق بأسباب فتح العرب لآسبانيا ، وتسمى باللائمة على وودريك ، وتجعل من سلوكه الوقح وأخلاقه السيئة سببا لما نزل بأسبانيا من هن ، إذ ذهب الرواية إلى أن وودريك كان قد اغتصب ابنة الكونت جوليان حاكم سبنة ، وتدعى فلورندا Florinda ، ولهذا فقد استبد انطرب بوالدها وحشد على وودريك بسبب هذا العمل ، وقام بتسليم قلعة سبنة التي كانت مفتاح المضائق ، إلى المسلمين وقام بإرشادهم عبر سواحل الأندلس وتقديم المعونة لهم ، وأدى ذلك إلى اقتحام

(1) Lat: op. cit. p. 283

(2) Camb. Med Hist. V. II. p. 183

Altamira: op. cit. p. 82

(3) Lat: op. cit. p. 284

المسلمين لقبه الجزيرة وتقويض المملكة القوطية فيها (١)، ويبدو أن كل هذه الأخبار لا تمت بصلة للتاريخ، لأنه ليس هناك سبب يجعلنا نعتقد أن رودريك كان أحسن أو أسوأ من أسلافه. حقيقة نحن لا نعرف من أخلاقه شيئا بسبب ندرة أخبار هذه الفترة بالذات (٢)، إلا أننا لا نستطيع أن نجهم أن مثل هذه الحادثة يمكن أن تؤدي إلى ما أدت إليه من نتائج، إلا إذا أخذنا في اعتبارنا ما كان جاريا من استمداد في شمال إفريقية منذ فترة لغزو شبه الجزيرة، فضلا عما كانت تعانيه دولة القوط الغربيين بأسبانيا من ضعف واضمحلال، بسبب الهجمات والأوبئة والاضطرابات الداخلية والنزاعات السياسية بين الأحزاب فيها (٣)، وأقرب إلى الحقيقة ما حدث من نفور بين كبار النبلاء وأعيان وأقارب الملك ويتزا، فقد هرب عدد من هؤلاء إلى معسكر موسى بن نصير بشمال إفريقية ودعوه لمحاربة رودريك (٤).

هذا كل ما وصلنا عن الثمانية عشر شهرا التي قضاهما رودريك في الحكم وانتهت بنزول المسلمين إلى سواحل شبه الجزيرة في Calpe، وقد عرفنا فيما بعد باسم وجبل طارق، نسبة إلى قائد الجيش الإسلامي (٥)، وحين علم رودريك بانسحاب المسلمين في الأندلس، جمع جيشه وكان بنهر شك يتكون من قليل من الكونتات الأغنياء وبعض الأساقفة، على رأس حشد من أتباعهم الانطاعيين

(1) Camb. Med. Hist. V, II. pp. 183-4

(2) Oman : op. cit. p. 233

(3) Altamira: op. cit. pp. 82

(4) Schurtz: op. cit. p. 3513

(5) Ibid: p. 3514

وأقنانهم حسب ما جاءت به قوانين رامبا. ولم يكن جيش القوط حينذاك بقادر على مقاومة المسلمين أكثر مما قاومت الفرق البيزنطية بشمال إفريقيا^(١) ، ولهذا حين التقى الجانبان على ضفاف نهر Guadalete قرب مدينة سيدونيا Sidonia ، أحرز طارق بن زياد نصرا حاسما على قوات رودريك ، وانتهى امر هذا إلى القتل أو الفرار في ميساء النهر ، على ما ذهب إليه بعض الروايات ، وتفتت الجيش القوطي ، وأصبح المسلمون سادة أسبانيا^(٢) وفي أقل من سنتين (٧١١-٧١٢) نجح طارق وموسى بن نصير في إخضاع كل المنطقة ، وسقط في أيدي المسلمين كثير من المدن مثل قرطبة ومريدا Merida وسرقطة ، وهذه الأخيرة أبدت بعض المقاومة ، ثم استسلمت في النهاية^(٣) ، وإبان ذلك كله لم يحاول القوط تمصيب ملك جديد أو التجمع بقية أحداث مقاومة جديدة ، ولم يبق في سنة ٧١٢م بأسبانيا سوى ركن واحد لم يسلم ولم يذهن للفرار ، وهو الساحل الجبلي خليج بسكاي ، حيث كان البسقاوية يرضون^(٤) وكذلك السكان من الأشترياس ، الذين كانوا يحاولون الحفاظ على حريتهم ويحميهم غرضهم وتطرفهم من ناحية ، ووعورة المسالك إلى بلادهم من ناحية أخرى ، أكثر مما كان يحميهم حصر المسلمين عن إتمام غورم^(٥)

وفي النهاية ليس من المستعوبة بمكان معرفة الأسباب التي أدت إلى انهيار المملكة القوطية بأسبانيا فلم يكن الملوك يختارون من أرومة ملكية واحدة ، وإنما

(1) Oman: op. cit. p. 234

(2) Lez: op. cit. p. 284

(3) Pirenne: op. cit. pp. 155-6

(4) Camb. Med. Hist. V. II, pp. 186-7

(5) Oman: op. cit. p. 234

خضع ذلك في أغلب الأحيان للمصادفة البحتة، وقد أدى ذلك إلى اعتلاء ملوك ضئاف لا يرجى إصلاح على أيديهم ، بل خضع بعضهم خضوعاً تاماً لرجال الدين وأصبحوا ألعوبة في أيدي الكنسين (١) فضلاً عن أن كبار النبلاء كانوا غير أهل ثقة، إذ وأصلوا الشعب ورفضوا راية العصيان وسيبوا إزهاجاً شديداً السلطات الحاكمة في كثير من الأحيان ، وزادوا في ضعف المملكة واضمحلالها (٢) ، في حين اخضعت طبقات صفار النلاك الأحرار ، وأصاب الخلل البناء الاجتماعي في ملكة القوط الغربيين ، ولم يصد هنالك ما يدعو هجوع الأتقار إلى التعلق بسادتهم العظيمة أو الإخلاص لتلك المملكة الإقطاعية الطبقية ، كما حست المملكة مساحات شاسعة من الأراضي كانت تحت حكم رجال الدين فقدت بمرور الوقت مصدراً لكثير من الشعب والتمرد (٣) وإذا أضفنا إلى ذلك أن الفترة الأخيرة من عهد ملكة القوط الغربيين بأسبانيا شهدت نزاعاً مستحكماً بين النبلاء على العرش وواجهت مشكلة إدماج العناصر الخاضعة لها والتأليف بينها ، علماً أن أمر هذه المملكة كان حيناً إلى زوال . وهكذا سقطت المملكة قبل أن يطأ أفراة الأقوياء أرض أسبانيا فعلاً ، وانهارت سلطتها قبل أن يضع المسلمون أقدامهم في شبه الجزيرة ، حتى يمكن القول أنه لو لم يعبر المسلمون المضائق إلى أسبانيا لكان من المحتمل أن تصبح أسبانيا إقطاعاً للمملكة الفرنجية تحت حكم رؤساء البلاط الأقوياء ، أو تحت حكم شارل العظيم (شارلمان) (٤) .

(1) Ibid : p. 234

(2) Lot : op. cit. pp. 281-2

(3) Schuriz : op. cit. pp. 3512-13

(4) Oman : op. cit p. 234

Schuriz : op. cit. p. 3512

...الفصل الرابع

مملكة الوندال بشمال إفريقيا

جزيريك وفتح شمال إفريقيا - مواهب جزيريك وسجاياه -
سياسته المالية والدينية تجاه السكان - ثورات الأهالي ضده -
السنوات الأخيرة في عهده - إحتلال موريك المرش - طفياله
واضطهاد الكاثوليك - جوثاموند - ثراساموند - هلدريك
وإنهاء عهد الاضطهاد الكاثوليك - جليمار وتداعى المملكة
حملة جستنيان لاسترداد الولاية - انتصار بلزاويوس - سقوط
قرطاجة - استسلام جليمار - نهاية مملكة الوندال بشمال افريقية

كان قيام مملكة الوندال بشمال إفريقيا يتصل بالإمبراطورية الشرقية ، أكثر
ما يتصل بغربها ، فإذا كان قيام ممالك جرمانية أخرى له صلة بأحداث الغرب ،
فإن ظهور مملكة الوندال بشمال إفريقيا ، كان يتصل اتصالا مباشرا بالإمبراطورية
البيزنطية (١) ، نظرا لما كان لهذه الولاية من أهمية خاصة في سياسة أباطرة الشرق
ولما أبدته بيزنطة من اهتمام خاص بتلك المنطقة بالذات.

جزيريك وتأسيس المملكة (٤٣٩-٤٧٧م):

وكان جزيريك Gaiseric أو جزيريك Genseric - كما سماه الرومان أحيانا
أول ملوك الوندال بشمال إفريقيا ، وظل يباشر حكمه من قرطاجه ، مدة ثمانية

والثاني عاماً^(١) ويستبر جيوريك من أوائل ملوك الجرمان الذين أظهروا اهتماماً خاصاً بالبحرية والأسطول ، فقد نجح في فرض سلطانه وحماية سواحل ملكته ، وحاز قوة بحرية فعالة في الجزء الأوسط من البحر المتوسط^(٢) ، بعد أن حمده إلى تجنيد جماعات كثيرة من الأهالي وسكان المناطق المجاورة واستخدم أهل جبال أطلس في أسطوله البحري^(٣) . فعلى الرغم من أن قبيلته كانت أقل القبائل الجرمانية عدداً ، إذ لم تمتد للثلاثين ألف نفس من الرجال والنساء والأطفال حين بدأت تغزو إفريقية لأول مرة^(٤) فإن الوندال نجحوا في تأسيس ملكة بشمال إفريقية ، وفرضوا استقرارهم بذلك الإقليم الهام ، حتى يعد هذا العمل من أهم الأعمال التي أنجزتها الحضرات الجرمانية الكبرى وأكثرها براعة ، ويجب ألا يرمى الفضل الأكبر في ذلك الملك الوندال جيوريك^(٥) . إذ كان على مثل هذا الجيش الصغير أن يغطي رقعة كبيرة من الأرض ، ويعمر إقليماً طوله نحو ألف ميل ، ويؤمن سواحل المملكة الطويلة المقابلة لسواحل الإمبراطورية الغربية فليس نعمة شك في أن هذا العمل كان من الإنجازات المنظمة والتدبرات الجارية للملك جيوريك^(٦) .

ومن الغريب أن هذا الملك لم يكن كبقية زعماء القبائل الجرمانية من ناحية

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 307

(2) Oman: op. cit., p. 7

(3) Lot: op. cit. pp. 257-8

(4) Gantiet : Gensaric p. 97

Pirenne: op. cit. p. 36

(5) Ostrogorsky : op. cit. p. 57

(6) Oman: op. cit. p. 7

مقاييس البطولة الجسدية ، أو التميز بشدة المراس في الحرب ، لأنه كان معتدل القوام ، لا يتم بمقدرة جسدية خاصة ، فضلا عن عاهته التي عاش بها بقية حياته ، وهي العرج الذي أصيب به في شبابه على أثر سقوطه من فوق جواد جامح (١) ، غير أن هذا الملك الأعرج استمد مقومات نجاحه من قدراته العقلية الهائلة ، وحاز مكانته وهيبته من تضج عقله وصفاء ذهنه ، فلم يكن مجرد قائد حرب شهيد ، بل كان كذلك سياسيا ماهرا ومخططا عظيما (٢) ، حقيقة كان وثيقا لا يتورج عن ارتكاب أكثر الأعمال وحشية ومهينة ، ولكنه كان يقرن ذلك دائما بشيء من الحزم ، مع تبصر بالعواقب ، واتباع لأفضل الطرق للوصول إلى أهدافه ، ولو اشترت تلك الطرق ، وتميزت بأكثر الأعمال غدرا وخيائنا وخيانة (٣) ، ونحت نحو تغيير المقامرات ونسج الأحاسيل ، ولهذا كان جيوريك أحد النازج الفريدة في النصر للتورتوني ، وتركه أعماله الوحشية أثرها في تاريخ الغلبة ذاتها ، حتى أن كلمة الوندالية Vandalism تعني في اللغة الحديثة الوحشية (٤) فقد حانت إيطاليا وإفريقية على يديه معاناة تركت فيها آثارا عميقة - أكثر من تركته أي مصائب نزلت بها ، على يد غيره من الغزاة لما تميزت به أعماله فيها بالغرور والخيانة والوحشية (٥) . وإذا قلنا جيوريك بفساده من العناء ، فإن آلاريك القوطي يبدو بجانبه نموذجا متدلا في الرحمة والتلطف ، كما يبدو أتيلا الهوني قويا سويا دون إصراف في الحمجية ، مع ما عرف عنهما من شدة البأس

(1) Camb. Med. Hist. p. 135

(2) Pirenne; op. cit. pp. 47-8

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 306

(4) Oman; op. cit. p. 7

(5) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 309-8

ومبالغة في القسوة والتبرؤ^(١)، وتضع نقائص جيوريك وسوء أعماله في المعاهدات والمطالبات الحربية التي كان يبرمها وليس في عزمه الإلتزام بها أو المحافظة على شروطها، فضلا عن أعمال القرصنة الوحشية التي مارسها^(٢)، وما أظهره من عدم اكتراث في تبرير هجماته وإغاراته الوحشية، اللهم إلا أن تكون المدينة أو الملمة البحرية التي يهاجمها ليست في وضع يمكنها من الدفاع عن نفسها، لهذا أصبح الوندال في ظل جيوريك قوة بحرية هائلة واستولوا على صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزائر البليكار، وهاجموا سواحل إيطاليا وأغاروا على روما سنة ٤٥٥ م^(٣).

ولقد سلك جيوريك في سياسته تجاه الأهالي أكثر النفاق كرها ومقتالديهم ولا سيما فيما يتعلق بجميع الضرائب، وفي السياسة الدينية، فقد اتخذ أكثر النظم تصفا وجورا في الأمور المالية، وأشد مظاهر السياسة تصعبا في الأمور الدينية^(٤) ولم يلجأ جيوريك إلى نظام تقسيم الأراضي إلى ثلاثة أقسام، وهو النظام العادل الذي اتبعه أدراكر في إيطاليا، بل أباح كل الأراضي الشاسعة لكبار الملاك الإفريقيين، وحولها إلى أملاك ملكية يحتويها نيلوؤه والمقربون إليه. أما الجزء الصغير الباقي الذي يمتلكه الأهالي ويقومون بزراعتها، فقد امتلك جيوريك أجود جزء منه وجعله ضمن إقطاعات عسكرية تمنحها لاتباعه الجرمان^(٥)، غدت أملاك

(1) Oman: op. cit. p. 8

(2) Pirennes op. cit. p. 29

(3) Helmolt: "Mediterranean in the middle ages" in B. H: V. V. p. 2388

(4) Lelt op. cit. p. 248

(5) Camb. Med. Hist. V. I. pp: 316-17

ورأية مغاة من كل الضرائب وسميت *Sortes Vandalarum* ، في حين ترك الجزء الآخر بيد الأمازيغ ؛ وفرض عليه ضرائب باهظة جباها في قسوة بالغة ، حتى إن الدخل الملكي كان يأتي كله تقريبا من الضرائب المفروضة على الفقراء ، وما يدفعه الملاك الصغار الذين لم تنزع منهم أملاكهم^(١).

وعلى الرغم من هذه السياسة المالية الجائرة ، وما أظهره جيزوريك من فظاظة في جباية الضرائب فقد كان أكبر أسباب كراهيته تنصب الدينى ، إذ كان الوندال مثل بقية عناصر الجرمان ، يستقون الأريوسية حين دأبوا بالمسيحية^(٢) ، فقرر جيزوريك أن يرغم رعاياه على اعتناق الأريوسية ولهذا بدأ موجه اضطهاد طائفة ضد الكاثوليك ، استباح فيها الكنائس الكاثوليكية ، وسلم بعضها للأريوسيين ودمر بعضها الآخر ، وحرم رسامة أساقفة كاثوليك جدد^(٣) ، وتكل بفريق منهم وزج بالفريق الآخر في السجن ، وعمد إلى قتل بعض أقطاب المذهب الكاثوليكي ودعاماته البارزة ، وسجن البعض الآخر ، وسطر هو وشعبه بتصميم الأهمى صفحة قاتمة في تاريخ تلك البلاد .

ولقد تسبب هذا التنصب الدينى الممقوت ، في جعل الحكم الوندالى غير مستقر في إفريقيا ولا سيما أن الوندال كانوا قليل العدد بالنسبة للأراضي العاسمة التي استولوا والعصب الكبير الذى أخضعوه ، حتى بعد أن جذب جيزوريك كثيرا من المغامرين إليه وحكم بعض المغاربة والبربر العمل في بحريته^(٤) ، ولهذا لم تستقر

(1) Pirenne; op. cit. p. 48

(2) Oman: op. cit. p. 8

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 311

(4) Oman: op. cit. p. 9

الأمر لهم هناك ، وكان طبعاً لا يستسلم الإفريقيون ، تاج التزاوج بين
الدوناتيين المغاربة وغيرهم من السكان ، أمام جور سادتهم المجدد ، فإذا كانوا
قد سكنوا فترة ، فإن ذلك لم يكن دليل استكانة أو استسلام ، لأنه حين لاحظ
لهم الفرصة انتهزوها ورفعوا راية المصيان ، حدث ذلك مرتين متتاليتين
جيزريك نفسه ، وفي كلتا المرات انتصر الوندال على الثوار بدهاء جيزريك وسرعة
بديهة (١) ، حينما كانت الظروف كلها في غير جانيه ، ففي سنة ٤٦٠ م ، ففي حشد
الإمبراطور ماجوريان Majorian أسطولا قويا في قرطاجنة وبدأ في جمع جيش كبير
لإرساله عبر البحر إلى شمال إفريقيا في الوقت الذي تحفز فيه الأهالي للقيام
بالثورة ، غير أن جيزريك علم بهذه الاستعدادات من بعض جواسيسه من الحفوة
الرومان ، فأمر بحماة السفن قبل أن تصعد بالمقاتلين أو تنهب لها الفرصة
لخوض الحرب ، ونجح في أسر بعضها وحرق البعض الآخر وفي نفس الوقت
التفت إلى إخضاع الأهالي بالقرعة ، ثم مال إلى الإمبراطور ماجوريان أن اغتيل
فجأة في أسبانيا سنة ٤٦١ م (٢) ، فتخلص جيزريك من خطر دام مدد مملكته قبل
أن يعطل برأسه . وفي سنة ٤٦٨ م وحده إمبراطور الشرق ليسو الأول (٣)
وإمبراطور الغرب أنثيميوس Anthemius قواتها ليقمنها وحكم القرصنة في
قرطاجنة ، وأرسل جيشا إلى إفريقيا قيل إنه بلغ نحو مائة ألف رجل ، ونجح
هذا الجيش في اجتياح كل الإقليم ما بين طرابلس الغرب وأبو قرطاجنة ، وقلع
الأهالي بالفرح والبهور وبدا أن المملكة الوندالية أشرف على الزوال وقرب
نهايتها في تلك البلاد ، إلا أن شجاعة جيزريك تجلّت عند ذاك وبرز دماؤه

(1) *Carab. Med. Hist.* V I. pp. 309-10

(2) *Pirenne* : op. cit. p. 30

(3) *Ostrogorsky* : op. cit. p. 64

ساعة الخطر ، فقد أغوى القائد الرومانى وخدعه ، وتقدم إليه يطلب مهلة خمسة أيام لتوقيع شروط التسليم ، ووافق القائد الرومانى الساذج ، ومنحه المهلة التى طلبها (١) ، فأرسل جيزريك سفنه الحربية ليلا لتهاجم السفن المعادية ، وبينما شغلت السفن الرومانية بحماية نفسها وحاولت النجاة من الدمار ، إذا بجيزريك نفسه يهاجم المعسكر الرومانى ، وقد خلا من الحراسة ، فأنزله به هزيمة قاسية وانتزع نصرا عزيزا من قوات تفوقه عددا وعدة ، وأجبر القائد الرومانى على سحب فلول جيشه ، وأفلقت ملكة الوندال هذه الخدعة (٢) .

وقد حفلت السنوات العشر الأخيرة من حكم جيزريك بإغارات قرصانية متعددة ضد إيطاليا وصقلية دون أية مقاومة من الأباطرة المغار ، الذين حكموا روما ورافنا فى ذلك الوقت ، وكانوا مجرد أطيان ملوكية واهية ومجسود أسماء جوفاء لا سلطة لها ولا قوة (٣) ، وشهد جيزريك نهاية الإمبراطور الصغير رومولس أغسطس سنة ٤٧٦ ، وطاش بعدها فترة استطاع فيها أن يبتدأ اتفاقية مع أدواكر سيد إيطاليا الجديد ظهر الوندال من خلال بنودها أكثر شهرة للبال من شراحتهم للأرض ، لأن جيزريك قبل بمقتضى تلك المساعدة أن يوقف فتوحاته فى صقلية مقابل إتاوة سنوية يدفعها الملك الجديد (٤) ، كما اضطر الإمبراطور الشرقى زينون إلى الاعتراف بملكية الوندال فى نفس العام الذى شهد نهاية حكم الإمبراطورية الغربية ، وجرى إبرام صلح مع ملكها استمر أكثر

(1) Oman: op. cit. p. 9

(١) موسى: بلاد المغرب الوسطى ص ٢٧ ،

Lot: op. cit. p. 258

(3) Camb. Med. Hist. V: I. p. 308

(4) Oman: op. cit. p. 10

من نصف قرن من الزمان (١).

توفي جيوريك سنة ٤٧٧م فاضطربت بموته ملكة الوندال، على الرغم من أنها طاشت بعد ذلك أكثر من خمسين عاما ، وترك جيوريك خلفه أسطولا عظيما وكنورا هائلة وقصيرا غاصا بالمنهوبات كان قد سلبها أثناء إغاراته الكبرى على مدينة روما سنة ٤٥٥م (٢) ، غير أن ملكة الوندال ظلت غير مستقرة على عهد خلفاء جيوريك ، فقد حفظ لها هذا الماهل العظيم وحدتها وتماسكها ، وكفل لها الحماية بحكمته السياسية ومكره ودهائه ، وحين اختفى من مسرح الأحداث لم يمدح ما يحصل ويتبا وبين نهايتها (٣) ؛ فقد كان جيوريك يحكم خوفا من ثورات الأهالي قد جرد كل مدينة من أسوارها وبواباتها باستثناء قرطاجة ، فأصبح الأمر خطيرا عند خسارة أية معركة إذ تصبح المدن كلها مهددة عند أي هجوم ، ولم يكن الهجوم بعيدا ، فقد تحفرت الأخطار من حول المملكة لتنتقم لمائة ثلاثة أجيال منكوبة تعرضت للظلم والجور على يد الوندال ، ولا سيما بعد أن ضفت المملكة برفاة ملكها القدير جيوريك (٤).

اعتلى هونريك Huneric (٤٧٧ - ٤٨٤م) العرش بعد والده ، وكان رجلا متقدما في العمر ، وكان مثل والده أيرسيا متعصبا ، بل شديد التعصب وكان متزوجا من ايدوكيا Eudocia ابنة الإمبراطور فالنسيان الثالث (٥) التي

(1) Lot: op. cit. p. 211

(2) Pirenne: op. cit. p. 30

Gautier : Genesio. pp. 233-5

(٣) Ostrogorsky : op. cit. p. 64

(4) Diehl : L' Afrique byzantine. p. 3

(5) Lot: op. cit. p. 257

أمرت أثناء الإغارة على روما سنة ٤٥٥ ، وعلى الرغم من السنوات الطويلة التي عاشها مع تلك الإميرة الكاثوليكية ، فإنه لم يتأثر بها أو يأخذ عنها أي لون من ألوان الحضارة الرومانية ، كما أنها بدورها لم تستطع أن تؤثر فيه أو تحوله عن عقيدته الأريوسية إلى العقيدة الكاثوليكية ، وبعد حياة زوجية غير سعيدة امتدت إلى ستة عشر عاماً ، أنجب خلالها ولدين ، لم تستطع الاستمرار معه ، فدفرت الحرب سرا من قرطاجة إلى بيت المقدس ، ثم توفيت في المدينة المقدسة ناجية بعقيدتها ، التي لم تتخل عنها طوال تلك السنوات الخمسة (١) .

وكان هوزريك طاغية من الدرجة الأولى ، ولم يكن طفيله قاصراً على شبه ورطاياء ، بل تمدى ذلك إلى أفراد أسرته (٢) ، وكان هوزريك قد لجأ إلى طريقة جديدة في ولاية العهد أراد بها أن يجنب المملكة التجزئة والفتنة ، فقرر ألا يخلف الملك الولد إلى أقرب الأقارب إليه ، ولكن يخلفه أكبر هؤلاء الأقارب سناً ، وكان هذا النظام شاملاً بين القبائل التيوتونية ، غير أنه كان لهوزريك في ذلك الوقت ولد بالغ يدعى ملديكات Hildicat ، حرم على عقد الولاية له وجعله يخلفه في الحكم ، ولكن هذا الأمر كان على ما يبدو أصغر سناً من إخوة الملك ، فبدلاً أن يلجأ إلى تعطيل قانون والده ، خطط هوزريك لإفناء إخوته وقتلهم مع كل أبنائهم ، باستثناء اثنين من الصبيان هما ابنا أخيه الثاني جينزو Genzo ، فقد أخذاً أنفسهما بالحرب في الوقت المناسب (٣) .

ولم يخاطر هوزريك - خلال فترة حكمه التي امتدت نحو سبع سنين - بهن

(1) Oman: *op. cit.* p. 11

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 312

(3) Oman : *op. cit.* p. 11

حرب أول إرسال أسطول للقيام بإغارات سلب أو نهب ضد ممالك الغرب ، ولهذا لم تتعرض مملكة ، إيورك القوطى الغربى ، أو مملكة أدواكر فى إيطاليا للتدمير أو التخريب على يديه ، لأنه فيما يبدو تركها وشأنها وصرف جهوده للقيام بحركة اضطهاد شديدة للكاتوليك فى مملكته (١) ، حتى لقد أعلن الكاتوليك أن موزيك تسبب - منذ بداية عبده إلى نهايته - فى موت نحو أربعين ألف شخص ، وهو رقم يبدو مبالغاً فيه كثيراً لدرجة تجعلنا نشك فى حقيقة هذا الاضطهاد نفسه ، إذ يقال إن موزيك كان مغرماً بتر الأيدي وفنّ الأعين وقطع الألسن ، أكثر من غرامه بالقتل بالسيف أو العنق ، ولكن ليس هناك شك فى أنه عاقب الكاتوليك فى حالات كثيرة بأقصى العقوبات (٢) .

وبنما شغل موزيك بهذه الأمور ، اندلعت الثورات ضده فى كل مكان ، فثار عليه مقاومة جبل أطلس ، والآهالى المتحدون باللاتينية ، يدفعهم بأسهم ويهدوم الأمل فى إنهاء ذلك الهقاء ، فاضطروا الحدود الجنوبية للمملكة ، واندفعوا داخل نوميديا ، وحينما أخذ الملك يعدّ العدة لمهاجمتهم داهمته المنية ، ثم توفى مريضاً مبتلى ما ذهب إليه بعض الروايات الكاتوليكية المعاصرة التى ذكرت أنه ابتلى بمرض شنيع تسبب فى وفاته فى ذلك الوقت المجرع (٣) . ومن الغريب أن ابنه الوحيد هلايكاه ، الذى ارتكب من أجله كل تلك الجرائم وسفك فى سبيل تسليمه الحكم كثيراً من الدماء ، كان قد توفى قبل وفاته هو ، فرفع الوفاة إلى العرش ابن أخيه جوثاموند وكان ما يزال على قيد الحياة بعد

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 312

(2) Oman: op. cit. p. 11

(3) Ibid. p. 12

مذابح هوريك الرهيبه، فأظهر هذا الملك الجديد كثير آ من العطف على الكاثوليك وبدأ فترة جديدة في حياة المملكة الوندالية (١) .

بدأ جوثاموند Gunthamund عهده بإظهار شيء من الرحمة والعطف على أبناء حمه هوريك الصغار ، فألقى بهم في السجن بدلا من قتلهم ، فتملأ بها أظهره من مودة تجاه الكاثوليك ، وفي نفس الوقت لم يستطع أن يخاطر بزواج مع الممالك المجاورة والقرية ولاسيا ملكة ثيودريك العظيم بإيطاليا ، لأن ملكة الوندال كانت حينذاك تعاني آلام الموت البطيء وتمضى في طريق الوال (٢) . وأخذت تفقد في كل يوم بعض أراضيها وأملأها لتتول إلى أيدي المغاربة ونوار جبل أطلس، بينما انهمك جوثاموند في كسب رضاء الكاثوليك والسماح لهم بإعادة أساقفتهم المنفيين ، وفتح كنائسهم من جديد (٣) ، ولكن هذه السياسة لم تحل دون استمرار رعاياه في ثوراتهم ، ففى عهده غزا المغاربة كل منطقة الساحل فيما بين طنجة Tangiers وقيصرية ، واستولوا على تلك المنطقة وزادوا ضعف المملكة وضمحلها (٤) . وتوفى جوثاموند سنة ٤٩٦ م ، وهو يحسنده في محاولة حفظ كيان المملكة والاستمرار في السياسة الديبلوماسية الجديدة التي خالف بها سياسة ملوك الوندال من قبل .

تولى ثراساموند Thrasamund العرش بعد أخيه جوثاموند (٤٩٦ م) ، وكان ثراساموند متقدما في العمر ، ويختلف عن أخيه الراحل في-

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 312

(2) Diehl: L'Afrique byzantine p.3

Lot: op. cit. p. 257

(3) Oman; op. cit. p. 28

(4) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 312-13

كثير من الأوجه ، فقد حاول بحسرية السياسة المضادة بالعودة إلى الاضطهاد والتفكيك بالكاثوليك ، ونفى نحو مائتين من الاساقفة الكاثوليك إلى سردينيا ، ووجد أيام الرهب التي شهدتها البلاد على عهد هونريك (١) . ومن البديهي ألا يكون هذا الملك الجديد أكثر حظا في تعامله مع التوار من سلفه ، ولعل في ذلك يكمن السبب في امتناعه من الدخول في أي صراع أو حرب خارجية ، لأن نزاعا كبيرا أو حربا مع ملوك الغرب ولاسيا ثيودريك العظيم تفتى تدمير ملكة الوندال وشعراها ، وكان ثيودريك العظيم قد زوج أخته أمالافريدا Amalafriða - وهي أرملة في مقتبل العمر - من ملك الوندال ثراساموند الذي كان يكبرها في السن ، ومع هذا فقد حاول ثيودريك أن يزيد من فاعلية هذه المصاهرة ، فعامل ثراساموند على أنه أخ أصغر له ، إن لم يكن تابعا إقطاعيا له (٢) ، وحين جرؤ الوندال على تقديم بعض المساعدة لثائر في غاليسيا ضد قوط أسبانيا ، غضب ثيودريك وفرض على ثراساموند الجزية ، وأمره ألا يفعل شيئا في المستقبل بدون أن يستشير زوجته أمالافريدا ولم يظهر ثراساموند أي امتناع لهذه الأوامر ، بل إنه أخذ بعد ذلك بضم كل ما في وسعه ليسترضى صهره (٣) . وتوفي ثراساموند سنة ٥٢٣ م وهو في أوائل العمر ، وقيل أنه توفي حزنا على أثر سماعه الأنباء السيئة بالجزية التي تعرض لها جميعه على يد اللغوبة ، وخلفه ابن عمه هلدريك (٥٢٣ - ٥٢٤) .

تولى هلدريك Hilderic العرش سنة ٥٢٣ ، وهو ابن هونريك من

(1) Ibid. p. 313

(2) Oman; op. cit. p. 28

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 313

زوجته الرومانية أيودوكيا ، فكان آخر وريث أو سليل من أيت ثيودسيوس العظيم^(١) ، وكان هلدريك أول ملك كاثوليكي من ملوك الوندال ، وهو الذي أنهى الاضطهاد الطويل للكاثوليك في إفريقية وذلك لأنه كان قد تربى وتعلم على يد أمه الكاثوليكية . غير أن فترة حكمه لم تكن أحد من فترات حكم أبناء هرثة ، إذ تسببت حماسة الطاغية الكاثوليكية ، في صدامه مع أكبر أحزاب الوندال حجبا ، وهاجمه الحزب الناثر الذي رأسه أمالافريدا ، أخت ثيودريك العظيم . والتي كانت تطمح في أن يلى العرش أحد أبناء إخوة زوجها الراحل ، غير أن هلدريك نجح في إلحاق الهزيمة بالثوار وأمر أمالافريدا وسارح بإيداعها أحد السجون المظلمة غير عابء بغضب وحنق ثيودريك في إيطاليا ، وذلك سنة ٥٢٣ م^(٢) ، ولقد اقتصر الأمر طوال السنوات الباقية من حياة ثيودريك على مجرد حبسها ، لكن في اللحظة التي علم فيها هلدريك بوفاة ثيودريك المعجوز سنة ٥٢٦ م ، أظهر قسوة متناهية مع هذه السيدة المسنة ، حين أمر بقتلها ، فارتكب بذلك عملا مشينا وجريمة بشمة لطخت تاريخ الوندال وزادت من مساوئهم بفصال إفريقية^(٣) .

ومع أن هلدريك كان مسنا فإنه لم يكن عنكنا أو بارعا في شئون الدولة . حقيقة كان كاثوليكيًا مخلصا ، وورث عن أمه الرومانية « العقيدة الحقة » ، إلا أن هذه العقيدة قوبلت من رعاياه الأريوسيين بكره شديد ، وكانت سببا في كثير من المصاعب التي لاقاها خلال فترة حكمه ، ولاسيما أنه أقدم على جرميه البشمة

(1) Lot: op. cit. p. 247

(2) Oman : op. cit. p. 20

(3) Camb. Med. Hist. V. I, p. 314

المشار إليها . وعلى الرغم من قصر مدة حكمه إذ لم تزد على سبعة أعوام فقد ترك أثراً سدياً في مملكة الوندال في كل الأرجح (١) ، ولم يصادفه النجاح المطرد في حروبه ، فقد أجهز مغاربة أطلس على جيش كامل أرسله لمحاربتهم ، وقطعوه إرباً إرباً ومدوا غزورهم إلى أبواب قرطاجة (٢) ، ويبدو أن اعترافه الصريح بالكاثوليكية ورفعهم الكاثوليك إلى أعلى المناصب ، كان المصدر الأكبر لقلقل والفتن في عهده ، ففي سنة ٥٣٠ م نظم ابن أخيه جليار مؤامرة ضده ونجح بسهولة في القبض عليه وإيداعه أحد السجون للظلمة ، واستولى على الحكم في مملكة الوندال في مايو سنة ٥٣٠ م (٣) .

جليمار ونهاية مملكة الوندال بشمال إفريقيا :

اغتنب جليار Gellimer السلطة في المملكة الوندالية (٤٠٠ - ٥٣٤ م) ، على الرغم من أنه لم يكن رجل دولة أو صاحب مواهب توفقه لتسيير دفة الحكم في تلك الظروف ، وما لبث الإمبراطور جستنيان أن أعلن حنقه الشديد على تلك المؤامرة ، التي أطاح بها بملك كاثوليكي ، وساكم صديق ، وعصرم على الاستفادة من هذه الحادثة إلى أبعد حد ، لينتقم من ملك الوندال الجديد (٤) ، وقبل اندلاع ثورة نيقا Nika بقليل كان جستنيان قد أرسل سفارة إلى قرطاجة يعرض فيها على جليار أن يتنحى عن العرش ، ويقنع بمركز نائب الملك وقيم ابن أخيه في الحكم . غير أن هذا التآمر رده على جستنيان بصلف كاللافي رسالته : « إن الملك جليار يرغب في توجيه نظره لملك جستنيان إلى أنه من الأوفى

(1) Oman : op. cit. p. 75

(2) Camb : Med. Hist. V, I. p. 314

(3) Lot : op. cit. p. 258

(4) Camb' Med. Hist. V, I, p. 315

بالنسبة للحكام أن يلتفتوا لشئونهم الخاصة، ويعلق مؤرخ يحدث على هذه الرسالة بقوله إن جليبار أراد بذلك أن يحصل ملكته مساوية للإمبراطورية الشرقية في الميزة والمكانة ، ولها نفس الاسم (١) . ويدعو أن جليبار لجأ إلى هذا الصلف اعتماداً على بعد موقع مملكته عن الإمبراطورية الشرقية من ناحية واندلاع الثورات والمتاعب الداخلية لدى جستنيان من ناحية أخرى (٢) ، إلا أن جستنيان عزم على بدء هجوم في الغرب باخضاع الوندال واتسمت حملته في حملاته ضد الوندال والقوط بشيء من روح الحروب الصليبية (٣) ، وكانت الظروف ميادة لتدخله في شمال إفريقيا ولاسيما بعد أن طغى الشعور بأن ملكاً أرويسياً قد جعل فجأة الحياة بائسة بالنسبة للكاتوليك في افريقية ، فضلاً عما حدث من نفور وتباعد بين الوندال والقوط الشرقيين بسبب مقتل أمالافريد قبل تسعة أعوام، بل إن أمالاسويتا ابنه ثيودريك العظيم شجعت الإمبراطور على الهجوم على جيرانها بشمال إفريقيا ، أكثرها مما حرصت على تليط عنه (٤) ورعاية الحبيبة الثيوتونية ، غير أن أهم من ذلك كله - وهو ما اعتبر فعلاً من حسن حظ جستنيان - أن جليبار كان قد بعث بأمر فرقة في حملة ضد سردينيا .

وعلى الرغم من تحذيرات الوزراء وكبار رجال الدولة لجستنيان من القيام بالهجوم على تلك المملكة النامية الواقعة في «أدنى الأرض» ، فقد مضى في إعداد جيش لنزو لإفريقية في صيف سنة ٥٢٣م ، ولم يكن ذلك الجيش كبيراً بدرجة

(1) Oman : op. cit. p. 76

(2) Ibid. p. 76

(3) Lot: op. cit. p. 256

(4) Camb. Med. Hist. V.1, p. 315

كافية لإتمام المشروع ، إذ تكون من عشرة آلاف واصل وخمسة آلاف فارس ، لم يكونوا نظاميين تماماً ، وكانوا ينتمون إلى الأقاليم الآسيوية من إمبراطوريته ، غير أن قائدهم بلواريوس كان من أكفأ قادة جستينيان وأكثرهم ولاء وإخلاصاً للامبراطور^(١) . ولقد طالبت الرحلة بسبب ما صادفها من رياح عكسية ، ولكن بعد نحو ثمانية أيام رست في النهاية القوة البحرية على الشاطئ الإفريقي في راس كاموديا بين سوس وسفاس في الخليج المواجه لمضيق صقلية في سبتمبر سنة ٥٣٣ م في سلام وأمان بسبب غياب أسطول الوندال في سردينيا^(٢) ، ولقد اخذ الوندال على غرة ، فلم يتمكنوا من الاستعداد لأن عليهم كان غالباً في يرميديا وأحسن فرقتهم في سردينيا وأسطولهم لم يكن في الماء ، وكانت تفتهم الممياء في بعد موقعهم عن القسطنطينية قد قادتهم إلى الإستهانة بتهددهات جستينيان^(٣) ، وقد أسرج جليار بالانحدار إلى الساحل ، واستدعاء جنوده من كل حذب وصوب واستغرق منه ذلك نحو أحد عشر يوماً ، وكان بلواريوس قد تقدم إلى قرب عشرة أميال من أبواب قرطاجة معلناً أنه ما جاء إلا ليخلص الأهالي من عسف الوندال وينقذ حياتهم على الكاثوليك المضطهدين وينصر الملك المخلوع ويعيده إلى السلطة ، ولهذا لقي بلواريوس ترحيباً شديداً من الأهالي في كل مكان ولاسيا أنه استطاع أن يكبح جماح جنده عن نهب الحقول والقرى أو إيقاع الأذى بالمساكن^(٤) .

(1) Lets op. cit. p. 258

Grant : op. cit. pp. 131-3

(2) Omon : op. cit. p. 76

(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 314-15

(4) Omon : op. cit. p. 77

تقدم بلزاريوس صوب قرطاجة يحملون شديد تسبقة كتيبة ملاحظة قوية ،
وفجأة وجد نفسه يتعرض للهجوم في *Decimano* (١) على يد الجيش الوندالي
كله ، وكان يفوق جيبه عدداً بما لا يقل عن النصف ، فالبث الوندال أن حاصروا
الجيش الروماني من ثلاث جهات دفعة واحدة ، فتقدمت فرقة وبدائية تحت قيادة
أمانس *Ammatus* أخى الملك من قرطاجة لتصلهم بقوة الجيش من الأمام ،
بينما كانت فرقة أخرى تحاصر جناحه الأيسر ، وكان الجيش الرئيسى بقيادة جليار
نفسه يهاجم مؤخرة الجيش الروماني الطويل (٢) ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل
الوندال في إدارة عملياتهم وفقر ربط هجائهم من الجهات الثلاثة بعضها ببعض ،
فقد برزت الفرقة الأولى من قرطاجة ، وأخذت تهاجم الرومان لكنها ما لبثت أن
تراجعت عندما فقدت قائدها في ممصة التصادم ، ثم دعت الفرق التي هاجمت من
الجانب وأجبرت على التقهقر على يد الفرسان المروءة ، وكان بلزاريوس قد وضعهم على
حافة جناحه الأيسر (٣) ، وحينما وصل الجيش الرئيسى وبدأ محسومة في الخلف
اندلع قتال مرير مع قلب الجيش الروماني ومؤخرته ، وشق جليار طريقه
بشراسة وسط هجوع الجيش الروماني وشطره إلى شطرين ، غرر أنه فشل في
الاستفادة من هذا العمل ، فبدلاً من أن يعمل على تأكيد انتصاره ، أوقف قواته
وسمح لبلزاريوس أن يلم شت جيبه ويستجمع قوته ويعمل على تحسين موقعه ،
ويقال أنه جليار شاهد بشة أخيه أمانس ، الذى قتل في الاشتباك المبكر ، فأنمر
تأثراً شديداً لدرجة أنه ألقى على الأرض جائياً أمامها باكياً متعجباً (٤) ، في حين

(1) Ostorogorsky: op. cit. p.64

(2) Oman: op. cit. p.77

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 315

(4) Oman: op. cit. pp. 77-8

أصبح موقف الجيش الروماني أحسن كثيراً ، بعد أن استدارت طلائع الجيش للتصبر إلى الراء للمساعد القلب والمؤخرة . وهكذا لم يأت المساء حتى كانت جموع الرومان تصطف في مواجهة الجيش الوندالي . ويبدو أن غزاة إفريقيا الونداليين كانوا قد لسوا حاستهم القديمة ، وفترت عنهم كثيراً فاستداروا هاربين بعد مقاومة هينة متجهين صوب الغرب تحت جنح الظلام (١) .

وفتحت قرطاجة أبوابها فجأة لبلاريوس (٢) وتناول في اليوم التالي غذاءه في القصر الملكي الوندالي ، وهي الوجبة التي كانت قد أعدت لمسلك الوندال من قبل ، وحسد جليار حيثة ثمرة قرن طويل من الاضطهاد ، كان أجداده قد أذاقوه وهايام الأتاركة ، وهرعت كل مدينة ليس بها حامية وندالية إلى فتح أبوابها للرومان ، وسارع الأهالي بوضع كل ما يملكونه تحف تصرف بلاريوس ودخل بلاريوس قرطاجة كأنه ملك متمصر يصود إلى مقر ملكه وحاضرتة في ف موكب نصر بهيج (٣) ويمكن من ضبط فرقه والتحكم فيها تحكما دقيقا لدرجة تدعو إلى الإعجاب ، فلم يتعرض أي مواطن أريوسي أو وندالي لأي مذهب ، ولم يتعرض أملاك الناس لأي سلب أو نهب وأعيدت الأراضي إلى أصحابها . وجري إخفاء الحماية على الكنيسة ، ورجال الدين الكاثوليك (٤) .

وكأن جليار قد تراجع إلى تلال ليوميديا بجيش كان قد خسر من مضوياته أكثر مما خسر من أعداده البشرية ، وسرعان ما انضوت إليه الفرقة التي كانت

(1) Ibid: p. 78

(2) Lot: op. cit. p. 258

(3) Oms: op. cit. p. 78

(4) Camb. Med. Hist. V. II, p. 12-13

قد أرسلت إلى سردنيا بعد أن أخضعت تلك الجزيرة ، فأصبح جيشه يقرب من خمسين ألف رجل ، وحينما أحس جليار أن بلوايوس قد شرع في إصلاح أسوار قرطاجة قبل أن يحمي في إتمام حملته ، قرر جليار أن يبدأ الهجوم بنفسه ، وانحدر بسرعة من التلال متجها نحو قرطاجة تحت جناح الظلام ليلاقي الجيش الروماني ، وعلى بعد نحو عشرين ميلا غرب المدينة وفي Tricamarum (١) تم اللقاء ونجح بلوايوس في إزال الحويزة بالوندال مرة ثانية ، وكسب معركة قاصلة مهمم بعد قتال مرير اتسم بالقسوة أكثر مما حدث في المرة الأولى (٢) ، على الرغم من أن الرومان قد قهقروا واجتهدوا ثلاث مرات وفي كل مرة كان بلوايوس يمل شمشيم ويحجم ويحفر مهم فاندفعت قواته الثقيلة في النهاية خلال صفوف الوندال ، وقتلها أنبا آخر الملك يدعى زازو Tazze وعندئذ استدار جليار موليا الأدبار ، على الرغم من أن رجاله صمدوا واستمروا يقاتلون حتى اضطروا إلى الإسحاب ، وملك أغلب الجنصر الوندال في تلك المعركة وفي تلاما من متابعه ولاذ جليار نفسه بمرتعات جبال أطلس بين النارية ، وعاش بينهم بشلول جيشه هيئة حية بنمة أشهر (٣) وعندما اكتشف أنه لن يستطيع تكوين جيش ثالث يقاوم به ، وأن الحياة غدت غير مأمونة بين البربر ، قرر أن يستلم هو وأسرته لبلوايوس (٤) بعد حصوله على وعد بأن يعامل معاملة طيبة ، ورغم أنه كان قد قتل جليار بك صديق الامبراطور.

(1) Ostragorsky : op. cit, p. 64

(2) Oman: op. cit. p. 78

(3) Oman : op. cit p. 70

(4) Ostrogorsky : op. cit p. 64

وفي ربيع سنة ٥٣٤ غدا بلزارديوس قادرا على العودة إلى القسطنطينية، بعد أن أتم مشروعه الكبير، فعمل معه الملك والأحياء من الرندال أسرى^(١) وشحن سفنه بكل منبهيات قصر قرطاجة وكل التحف التذكارية التي كانت حصاد قرن طويل من القرصنة الناجحة والإغارات الوحشية، متضمنة التحف والأوجيات والزيئات التي كان جيزوريك قد جلبها من رومانية ٤٥٥ م. ويقال أن الإمبراطور قد تعرف من بين ذلك العهد الكبير من التحف على شمعان ذي سبعة أفرع وأوان ذهبية خاصة بمعبدي بيت المقدس كان القيصر تيتوس Titus Caesar قد أخذها إلى روما قبل أربعمائة من السنين^(٢)، وقد بعث بها الإمبراطور لتوضع في كنيسة القيامة بالمدينة المقدسة، حيث كانت قد أقيمت لأول مرة من قبل وأخفى الإمبراطور على بلزارديوس القاب الشرف التي أخفيت من قبل على المتصرين الرومان القدماء والتي حرم إطلاقها على أي شخص من الرعايا بالدة قارب من أربعمائة سنة^(٣) ودخل بلزارديوس الهيودوروم في ابهة وعظمة ووضع أسراه وغنائمه عند قدي جستان، وحياء الناس والسناتور بوصفه قاهر إفريقيا الجديدة، ورفع في العام التالي إلى مصاف القنصلية، وأخفى عليه كل احترام وشرف. أما أسره الملك جليل فقد حول معاملته كريمة وحمل هو وحاشيته إلى فرجيا Phrygia، حيث عاش هو وأسرته في سلام لمدة طويلة. وهكذا انتهت ملكة الرندال إفريقية بعد أن عاشت نحو قرن من الزمان وعادت البلاد إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية^(٤).

(1) Let : op. cit. p. 250

(2) Oman : op. cit. p. 79

(3) Oman : op. cit. p. 79

(4) Pirena : op. cit. pp. 65

ملوك الوندال (٤٢٧-٥٣٤ م)

هيزريك
ملك اعتبارا من سنة ٤٢٧ وحكم في قرطاجنة (٤٢٩ - ٤٧٧)

موزيك = أبودوكيا (ابنة فالنسيان ٢)
(٤٧٧ - ٤٨٤)

هيزريك

١ ١٢٥ ١

هيزريك
تراساموند
هونثاموند (٤٨٤ - ٤٩٦)
(٤٩٦ - ٥٢٣)

هيزريك
أمانس
هيزريك (٥٢٣ - ٥٢٤)

الفصل الخامس

مملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة

تأسس المملكة البرجندية بجنوب شرق غالة - جندوباد وأوسله عظم
الحكم البرجندی - جندوباد والفرنجة - احتاق جندوباد الكاثوليكية - علاقته
بالإمبراطورية الشرقية - سياسته الداخلية - اعتلاء سيمسون العرش -
سيمسون والإمبراطورية البيزنطية - سيمسون والفرنجة نهاية سيمسون -
جندومار - حروبه ضد الفرنجة ونهاية المملكة البرجندية - بعض النظم
الداخلية في المملكة: الإدارة المالية والضريبة، الإدارة المحلية نظام القضاء.

كان البيت البرجندی الحاكم قد أزيل ، في أثر هزيمة البرجنديين القاسية على
أیدی المون سنة ٤٣٦ ، وتولى الحكم بيت آخر جديد، لعب أفرادهم دورا بارزا
في تاريخ المملكة البرجندية قرب منتصف القرن الخامس الميلادي (١)، وكان
البرجنديون قد استقروا في سابوديا Sapaudia في سنة ٤٢٠ ، بموافقة القائد
إتيوس (٢)، وقبوا مركزهم بقيادة ملكهم جومجوك gomojok وكان أحد أفراد
القبيلة الملكية القديمة ، وأخذوا في التوسع فيا حولهم في ذلك الوقت ، وسلکوا
في سبيل الحفاظ على مملكتهم طريق القوة حينا والدماء أحيانا أخرى فقد شارك
البرجنديون القائد إتيوس جهوده في صد الهوة ، حينما تهرقوا إلى غالة بنة

(1) Lot: op. cit. p. 213

(2) Heyck : "Rise of Frankish dominion" B. H. VII. p. 3474

٤٥٦ (١) ، وأقاموا من هذه للمشاركة فحصلوا على سلام امتد سنوات حتى وفاة
القائد إيتيوس والإمبراطور فالتيان الثالث سنة ٤٥٥ م (٢) ، وفي سنة ٤٥٦
دخلوا في خدمة الإمبراطورية في غالة ، وقاموا بحملة عسكرية في أسبانيا
ضد السويثين ، بقيادة ملوكهم من الأسرة الجديدة وقد كانوا محالفين
للإمبراطورية داخلين في طاعتها (٣) .

ويبدو أن البرجنديين اتهموا ذلك التحالف لمذ تقوهم في الجهات
الجاورة ، فأخذوا في التوسع فيما وراء مشاربهم بجنوب شرق غالة ، إلى أن
وصل الإمبراطور ماجوريان إلى غالة لمحاولة إعادة السلطة الرومانية فيها ،
فساد البرجنديون من جديد إلى حدود الطاعة (٤) ، وبعد وفاة هذا الإمبراطور
سنة ٤٦١ م زالت العقبات من طريق توسعهم فاستولوا على ليون Lyons ، ثم على
فيين Vienne ثم داي Dio ثم فيفاري Vivarais ، فيما بين سنتي ٤٦١ ، ٤٧٠ م ،
لكنهم لم يستطيعوا الانتصار في بروفنس Provence وفيما وراء جبال الألب ،
بسبب وجود الأريك القوطي الغربي ، فقد كان يتحكم حينذاك في مداخل نهر
الرون والساحل البروفنسي ، وفي السنة الأخيرة من حياة جوجيرك عين ابنه
جندوباد gundobad حاكما في إيطاليا عقب وفاة ريمير Ricimer (٥) . وعند
وفاة جوجيرك سنة ٤٧٣ احتل أبناءه الثلاثة : جندوباد وجودجول وشليريك

(1) Bury : op. cit. p. p. 201-04

(2) Lot: op. cit. p. 213

(3) Pirenne : op. cit. p. 52

(4) Lot: op. cit. p. 246

(5) Julius Jung : "The coming of the Goths" B.H.V. p. 2743

مكان البدارة وقيادة الاسرة المالكة الجديدة (١).

كان جندوباد (٤٨٠ - ٥١٦) قد عين حاكما ورومانيا على يد الإمبراطور الغربي أوليريوس Olybrius، وذلك قبل أن يصبح جندوباد ملكا على البرجنديين، ويحكم المنطقة الممتدة من سهول شبايا Champagne إلى الدبورنس Durance، ويبدو أنه باعته الإمبراطور جليكريوس Glycorius ثم جوليوس نيبوس Nepos عرش الإمبراطورية الغربية، فقتل هذا البرجندي العودة إلى حالة، فعاد إلى وادي نهر الرون، حيث أوسى البرجنديون دعائم مملكتهم في تلك الجهات (٢)، واحتل جندوباد وادي نهر الساون الأوسط والأعلى حتى منابها (٣). وتشير بعض الروايات إلى أن جندوباد لجأ إلى قتل أخيه شاتريك ليفرد بالسلطة في المملكة، وبعد نفوذه إلى ساحل البحر المتوسط، غير أن الصراع بينه وبين أخيه الآخر جود جولد Godogisel قد تأجل لفترة أخرى (٤). وحكم جندوباد من أفينون حتى بيسانكون Besancon ولانجر Langre، وحاول أن يثبت أقدام البرجنديين في مواقعهم الجديدة، ويؤكد استقلال مملكتهم الناشئة، ولاسيما بعد أن غزا الفرنجة حالة، لكن يبدو أن البرجنديين كانوا أكثر توفيقا في امتدادهم جهة الشرق والشمال، فقد نجحوا في

(1) Meyek : op. cit. p. 3474

(2) Hodgkin : " The moulding of the Nations " B. H. VII. p. 3371

(3) Oman: op. cit. p. 26

(4) Heyek : op. cit. p. 3474

إزاحة الألمان عن تلك الجهات والمطول عليهم (١)، وفي سنة ١٤٩١ حاول جنود باد أن يدل بطلوه في الأحداث الجارية بإيطاليا ويعد يد المساعدة لأدواكر ضد ثيودريك ملك القوط الشرقيين، وهو فملا جبال الألب إلى إيطاليا، لكنه طلبه أن سحب قواته وحاد إلى بلاده مسرعا (٢)، وبما خوف من هجوم القوط الغربيين على مملكته فأكد من خيف وخرج مؤلف أدواكر في إيطاليا، ثم تلا ذلك مصاهرة سياسية بين البيه الحاكم البرجندي وثيودريك العظيم بإيطاليا، فقد تزوج سيجسموند Sigismund - ابن جنود باد ووارثه - لاجدوليتي ثيودريك النظيم غير الشرعيين، وتزوج الأريك القوطي الغرب، الابنة الثانية (٣)، وفي نهاية القرن الخامس كانت ملكة البرجندين تمتد من ديورانس في الجنوب إلى سفار شماليًا في الشمال، ومن سفين Cevennes إلى ريمس Rouens وأقام ملوكهم في ليونوفين Vienne وجنيفا Geneva وبسائون وبسقة عاصمة في جنيفاليون (٤).

ولقد طافت الكنيسة الكاثوليكية كلها على أيدي البرجندين الأروبيين، ولهذا أظهرت الفرج حين اندلع التنافس والصراع بين أفراد البيت البرجندي، في حين كان الفرقة برجنديون مايجري في برجنديا بخبر وتوق (٥)، ولاسيما بعد اعتناق كلوفس الكاثوليكية وتحفزه العمل ضد الأروبيين في غالة، فضلا عما أبداه رعايا البرجندين من تمحارب مع ما كان يجري في بقية غالة على أيدي

(1) Lot; op. cit. p. 315

(2) Oman : op. cit. p. 17

(3) Cantor. Med. Hist. p. 141

(4) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 109-10

(5) Heyck : op. cit. p. 3474

الفرجة ، وكانت زوجة كلوفس ابنة شلبريك البرجندي ، تحقد على جندوباد (عها) لما فعله بوالدها وإخوتها ، فحزرت زوجها على العمل عند ملك برجنديا الطاغية ، وإذا أضفنا إلى ذلك قيام الأخ الآخر لجندوباد (جود جول) بطلب معونة كلوفس ، أدركنا خطورة الأوضاع داخل مملكة البرجنديين (١).

فلقد واجه جندوباد مصاعب همة من قبل كلوفس ، الذي أحزنه أن يحمّد عمالك أريوسية في غالة (٢) ، فشرع في محاولة تصفية المملكة البرجندية وذلك في السنة الأخيرة من القرن الخامس الميلادي (٥٥٠ م) ، وهياً له النزاع الذي اندلع بين جندوباد وأخيه الأصغر جود جول فرصة مواتية للتدخل (٣) ، فقد اتفقا سرّاً مع الأخ الثائر ، لمده بالمساعدة ، على أن يتم تقسيم المملكة بينها بعد ذلك ، ويجرى الاتفاق على أن يقوم الأخ المتآمر بإشغال نار الفتنة في هلفيتيا Helvetia حيث يوجد إقطاعه وأعوانه الانطاغيين ، فحين يقوم ملك الفرجة بمهاجمة جندوباد في وادي نهر الساون (٤) . ولقد نجح كلوفس فعلاً في إلحاق الهزيمة بجندوباد في ديجون Dijon وطرده منها ومن ليون وفالنس Valence ، فلجأ جندوباد في النهاية إلى أفيتون وهي قلعة في أقصى الجنوب من مملكته ، بينما نصب أخوه الثائر ملكاً بمساعدة كلوفس ، ليصبح فعلاً Vassal من أخصال هذا الملك ، ثم زحف كلوفس ليحاصر جندوباد في أفيتون ، ولكنه فشل في اقتحام المدينة واضطر إلى الانسحاب عنها ، وفي العام التالي (٥٥١ م) ، نجح جندوباد في استعادة

(1) Ibid. p. 3474

(2) Hodgkin: op. cit. p. 3371

(3) Lot: op. cit. p. 318

(4) Oman: op. cit. p. 61-2

كل ما فقدته من أملاك ، وقبض على أخيه الثائر وأهدمه وطرد بقايا الفريجة خارج برجنديا دون تدخل من كلوفس (١). ويبدو أن كلوفس اضطر لإزاء هذه الأحداث ، ونظرا لانخفاضه بمحاولة تحقيق حله الآخر بقذف القوط الفريجين خارج غالة ، إلى إقامة سلام مع جندوباد ، ثم أتى جندوباد عملا كبيرا بإعلان اعتناقه السكائوليكية ، فساعد على تدعيم السلام مع كلوفس من ناحية ، واكتساب مرعاة الأهال والكنيسة الفريجية من ناحية أخرى (٢) ، ولعل هذه الخطوة هي التي مهدت السبيل لإقامة تحالف بينه وبين كلوفس للقضاء على مملكة القوط الفريجين الأرموسية ، ونجح كلوفس في إزوال هيمنة كهنة القوط الفريجين في فريه سنة ٥٠٧ - كما سبقته الإشارة - وقتل ملكهم الأريك الثاني (٣) ، وقد قفقت جيوش الحلفاء من الفريجة والبرجنديين لماصرة مدينة آرل واستولى جندوباد على ناربون ، وعلى أثر مقتل الأريك نصب الطفل أمريك ملكا على القوط الفريجين ، وكان هذا الطفل حفيدا لثيودريك العظيم ، فتمركز هذا الحفاظ على مملكة حفيده ، وأعلن الحرب على كل من جندوباد وكلوفس ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتدافع عن المملكة القوطية الفريجية (٤) ، وعبر أحد جيوشه جبال الألب واقبض على برجنديا ، ودخل جيش آخر بروفس ، وضرب الحلفاء المحاصرين لمدينة آرل (٥) ، ونجح ثيودريك العظيم في استعادة كل مناطق غالة

(1) Lot: *op. cit.* p. 318

Heyck: *op. cit.* p. 3474

(2) Cantor. *Med. Hist.* p. 147

(3) Camb. *Med. Hist.* V. I. p. 206

(4) Oman: *op. cit.* p. 25.

(5) Camb. *Med. Hist.* V. I. p. 282

الواقعة جنوب الديورانس والسيفين Cevennes سنة ١٥٠٩ م ، حتى إن غزو كلوفس اقتصر بذلك على إقليم إكوفين . وبعد ذلك توفي كلوفس سنة ١٥١١ م وساد الدلام في تلك المنطقة فترة قبل أن تتبدل الظروف من جديد وتسمح الفرصة لتيودريك للتدخل في غالة (١).

أما عن علاقة جندوباد بالإمبراطورية لشرقية ، فيبدو أنها كانت علاقة طيبة تميزت بولاء هذا الملك للإمبراطورية ، وحرمة على الفوز بألقاب القسريفة التي كانت تحملها الامبراطورية على ملوك الجرمان المخالفين في ذلك الوقت . أما بالنسبة لأعمال جندوباد الداخلية ، فقد أصدر بعض القوانين الهامة ، وأظهر حماسا شديدا لإصلاح النظم الحكومية في مملكته وتنظيم العلاقات مع الكاثوليك ونجح في ذلك إلى حد بعيد (٢) ، وامتلا بلاط البرجنديين بالشعراء والأدباء والمبرزين في الناحية الفكرية والثقافية ، وأظهر الملوك البرجنديون حرصا على رعاية العلوم والفنون والآداب وتقريب النابيين في الحياة المليئة بالأدبية (٣).

اعتلى سيجسموند Sigismund عرش المملكة البرجندية بعد والده جندوباد (٥١٦-٥٢٣) ، وكان سيجسموند زوجا لابنة تيودريك العظيم ، ويبدو أنه لذلك اطمأن من جهة صهره ، واتجه إلى الاستمرار في سياسة والده تجاه الإمبراطورية الشرقية ، فكتب إلى الامبراطور أمستاسيوس يقول له : « لقد حافظ أسلافنا على ولائهم للإمبراطورية ، ولم يكن أشرف عندهم من الألقاب التي

(1) Ibid : p. 282

(2) Heyak : op. cit. p. 3474

(3) Pirenne : op. cit p. 53

خلعتوما عليهم ، ولقد اتس أفراد عائلتي دائماً ألقاب التشريف من
الاباطرة ، لانما أحضت عليهم مجداً أعظم مما ورثوه من آباءهم
وأجدادهم ،⁽¹⁾ ثم أضاف هذا الملك ، عند وفاة والده الذي كان كشيء الولاء
للإمبراطور، أرسلت لكم أحد مستشاري ليعرض عليكم ، وتحت رعايتكم عروضي
في الولاء والخدمة .. فقمي حوزتكم في، وإنني لأقوم بمكة في طاعتكم ، وإنني
لأجد في تلك الطاعة من الجبور والسعادة ، أكثر مما أجد في القيام بحكم هذا
الضغب ، وربما أظهر يظهر الملك بين هذا الضغب ، ولكنني لست إلا جندياً من
جنودكم ، وإنني لأنتظر منكم الأوامر التي تفضلون بإصدارها إلى ،⁽²⁾ والواقع
أن الإمبراطورية الشرقية نظرت لمملكة البرجنديين باعتبارها حليفة الضغب
الروماني ، لما أظهره كل من جندوباد وابنه سجموند من آيات الطاعة والولاء،
كأغزو ذلك جوردان Jordannus⁽³⁾ .

وعلى الرغم مما يبدو في هذا الكلام من تعقل ، فقد كان سجموند طاغية من
الدرجة الأولى ، وكان شامككا وكثيبا ، وكان قد تزوج ابنة ثيودريك العظيم -
كما سبق الإشارة - لكنه غالبته أنه أقدم على ارتكاب جريمة جلبت عليه غضب
ملك القوط الشرقيين ، وأحتقت عليه كثيراً من الماصرين ، وذلك أنه قام بقتل
ولده وولي عهده سجريك Sigerio الذي كان حفيداً لثيودريك⁽⁴⁾ ، فاستبد

(1) Lot : op. cit. p. 247

(2) Pirenne : op. cit. p. 53

(3) Lot : op. cit. p. 247

(4) Cantor. Med. Hist. I p. 141

الغضب بهذا وشرع في معاقبة هذا الطاغية الآثم ، فقد عاثقة مسع الفرنجة . وقام بمهاجمة برجنديا واستولى على بعض أراضيها فيما بين الديورانس والدروم Drome ، بما فيها من مدن أفينيون وأورانج Orange وفيفير Viviers ، حتى بلغ المد القوطي الشرقي أقصى مداه في الناحية الشمالية الغربية .^(١) وعرض سيجسموند أيضا للهجوم من جانب ملوك الفرنجة ، فأذاقوه المروعة والردى ، فقد هاجمه كل من شلدبرت Childobert و كلودومير Chlodomer سنة ٥٢٣ ، وأنزلا به هزيمة قاسية وأخذاه أسيرا وقلذا به وبزوجته وابنه في بئر^(٢) ، وبدأ وكأنه ملك البرجنديين على وشك الضياع والاختفاء من ظالة ، ولقى سيجسموند جزاء ما اقترفه من جرم في حق ابنه وولى عهده ومرح الفرنجة في برجنديا في محاولة لضم المملكة البرجندية نهائيا^(٣) .

تسلم جندومار Gundomar الحكم البرجندى (٥٢٣ - ٥٣٧) ، تركه مثقلة بالهموم والمتاعب ، بعد أن هزم الفرنجة أخاه سيجسموند وقتلوه سنة ٥٢٣ ، وكان على هذا الملك الجديد أن يتصدى لهم ويحاول منهم من تصفية ملكه ، ومن حسن حظه أنه نجح في هذا إلى حد بعيد وأسعده الحظ سنة ٥٢٤ بالحاق المروعة بالفرنجة في موقعة فيزرونس Véstroncs . في معركة قتل فيها أسعد ملوك الفرنجة وهو كلودومير ملك أورليان^(٤) . وساعد جندومار على التقاط أنفاسه شيئا ما ، أن إخسرة الملك المقتول ترققوا عن متابعة الحرب فترة ، ريثما

(1) Camb. Med. Hist. V. II, p. 110 - 111

(2) Oman op. cit. p. 114

(3) Ibid. pp. 115-16

(4) Lot: op. cit. p. 324

يشمكون من تميم وذهب ملكة الأخ الراحل ، ولاسيما أن هذا الأخ لم يترك سوى بعض الأبناء الصغار^(١) ، ولهذا اجتاحت كل من شلدبيرت وكلوثير أراضيه على نهر الوار ، غير أن جندومار عاه ليراجه المتاعب من جديد من قبل الفرنجة بعد ذلك بسنوات قليلة ، إذ استأنف شلدبيرت محاولة غزو برجنديا وتصفية أملاك جندومار بها ، مستمينا في ذلك بأخيه كلوثير الذي قاد جيشه والتحق به سنة ٥٢٢^(٢) . وهكذا اتحدت قوات ملكي باريس وسواسون لتحقيق هذا المشروع . وسارا معا صاعدين في وادي اليون yonne ، حيث ألقيا الحصار على أتون Autun ، وحينما تصدى لهم جندومار محاولا تخليص أوتون ، تعرض لمؤيمة ساحقة فزع على أثرها إلى إيطاليا متغلبا عن ملكته^(٣) . ومالبت الفرنجة أن أخذوا يستولون على مدينة تلو مدينة في برجنديا ، ليصلوا بفتوحاتهم إلى حدود المملكة البرجندية مع القوط الشرقيين على جبال الألب والروم ، وليصبحوا بذلك سادة غالة كلها تقريبا ومن بينها برجنديا ، ويمدوا العدة لإرسال حملة جديدة ضد جيرانهم ولاسيا القوط الغربيين^(٤) .

وهكذا انتهت ملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة في نهاية الثلث الأول من القرن السادس الميلادي ، ولا شك أنها كانت ملكة ضعيفة لم تستطع الثبات أمام أخطار العصر ، أو التصدى لأطماع جيرانها^(٥) ، فإذا كان جندومار قد كفل لها

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 117

(2) Lot : op. cit. pp. 324-5

(3) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 117-18

(4) Cantor. Med. Hist. p. 135, p. 147

(5) Lot : op. cit. p. 315

الاستمرار فترة بتحويله إلى الكاثوليكية وتحالفه مع كلوفس وولائه للامبراطورية الشرقية ، فإن خلفاءه لم يستطيعوا تنفيذ هذه السياسة المرة في ظل اختلاف المصالح وتضارب الأمواء في غالة ، وبين جيرانه اشتد طمعهم في تلك المملكة الصغيرة الضعيفة (١) ، ولا سيما أن ولاء هذه المملكة للامبراطورية الشرقية لم يندما في شيء بعد الشقة بينهما من ناحية ، ولا انفصال أباطرة الشرق بما هو أهم من ناحية أخرى (٢) ، ولو لم تكن مملكة البرجنديين قد انهضت أمام ضربات الفرنجة فمن المحتمل أنها كانت سوف تهازل على أيدي القوط الغربيين الذين تطعموا إليها في وقت من الأوقات قبل أن ينضموا في مهاكلهم الداخلية بأسبانيا وتضعف همهم (٣) . حقيقة كانت سلطة الملك في برجنديا سلطة تامة ومطلقة على شعبه ، لا ينازعه فيها أحد ، فإذا كان له أكثر من ولد جعلهم جميعا نوابا للملك دون أن يضم المملكة بينهم ، إلا أن ملوك البرجنديين اعتبروا أنفسهم متمتعين إلى الامبراطورية الشرقية ، ومنفذين لسياستها (٤) ، وكان بلاطهم آملا بالموظفين الرومان ، وإدراوتهم المالية ، ونظام ضرائبهم كلها رومانية ، وليس ثمة ما يشي عن وجود جماعات المحاربين ، وإن وجد ما عرف بالبايجي *Civitates* أو *Pagi* ويرأسهم *Comes* وبجانبيهم كان يوجد مجلس القضاء *Judex deputatus* لتنظيم القضاء ، يمين أفراد الملك ، وكان الملك البرجندي يدفع الرواتب لنوابه وعملية ، ولقد تأثرت المملكة البرجنديية بالنظم الرومانية كثيرا ، حتى عاش

(1) Pirenne: *op. cit.* p. 52

(2) Oman: *op. cit.* p. 116

(3) Lot: *op. cit.* pp. 315-16

(4) Pirenne: *op. cit.* p. 53

البرجنديون والرومان في ظل قوانين متشابهة (١) ، ولم تعكس بين الجانبين هوة ولا سببا بعد أن انتشرت الكاثوليكية بين البرجنديين ، ومع كل ذلك انتهزت المملكة البرجندية سريعا أمام أطماع الفرنجة ، سادة غالة وأقوى مملكة في تلك الجهات .

(١) Ibid. p: 53

الفصل السادس

ملكة أدواكر في إيطاليا

اضمحلال الإمبراطورية الغربية وانتهاء عهد ما سنة ٤٧٦م — أدواكر
يؤسس مملكة له في إيطاليا على أنقاضها — حكومة أدواكر في إيطاليا —
علاقاته الخارجية : إزاء القسوط الغربيين — دالماتيا — الرومانيين —
الوندال — علاقته بالإمبراطورية البيزنطية — عوامل ضعف مملكة
أدواكر — غزو ثيودوريك القوطي الشرق لإيطاليا — معارضة أدواكر
النصدي له استمرار الصراع سنوات — فشل أدواكر في النهاية واستسلامه
ثم اغتياله — نهاية مملكة أدواكر في إيطاليا .

توفي الإمبراطور فالنسيان الثالث سنة ٤٥٥م ، فاقطع بذلك نسل الأباطرة
من أحفاد ثيوديسيوس ، وفي العشرين سنة التالية كان أباطرة الغرب مجرد العربدة
في يد القادة الجرمان المتخلفين ، الذين تنافسوا من أجل السيادة والنفوذ في
إيطاليا (١) ، ولاسيما ريمير Rieimer نصف السويبي ونصف القوطي ، فقد
استطاع أن يهيمن على مصائر الإمبراطورية الغربية فترة ، حتى إنه استطاع أن
يولى ويعزل سنة من الأباطرة الضعاف في إيطاليا إلى أن توفي سنة ٤٧٢م (٢) ،
واستمر الصراع بعده بين المتنافسين على السلطة ، وكان النصر في النهاية لقائمه

(1) Housay : The Byzantine World. pp. 14-15

(2) Lot : op. cit. p. 218

جرماني يدعى أدواكر Odoacar أو أدواكر Odovacar ، الذي تفسح في سنة ٤٧٦ وعزل الإمبراطور الطفل رومولس أغسطس ، ولم ينصب محله أحداً ، فأبقى بذلك عهد الإمبراطورية الغربية (١) . ولناكده من أنه لا يستطيع أن يحوز لقب الإمبراطور أو يفوز بمنصب الإمبراطور ، فقد لجأ إلى الظهور على أنه نائب للإمبراطور الشرقي في حكم إيطاليا ، وسمى نفسه ملك الجرمان في إيطاليا (٢) .

أقام أدواكر إذن مملكة جرمانية في إيطاليا على أنقاض الإمبراطورية الغربية ، ابتداء من سنة ٤٧٦ ، ولكنه خالف عمالك البرابرة في غرب أوروبا ، بما اتبعه من نظم في حكم إيطاليا ، فبينما حكم الوندال باعتبارهم برابرة وهوا كل أثر للجهل الروماني القديم والادارة الرومانية (٣) ، نجد الملك أدواكر يحفظ بكل النظم الرومانية التي وجدها بإيطاليا ، فقد ظل مجلس السناتو قائماً لم يحل وأخذ يمارس سلطاته في إصدار القرارات والمراسيم العامة ، وظل القناصل يؤرخون الأحداث بسن ولايتهم (٤) ، غير أنه اضطر إلى توزيع أجزاء من ملكيات كبار الملاك مصادراً لك أراضى كل مالك من الأغنياء في إيطاليا لصالح فرق الجند المرتزة في جيشه ، فسبب بذلك كثيراً من المتاعب وخلف كثيراً من الأذى في نفوس السكان (٥) ، ولأنه لم يفرح حقاً إلا بنجد شكوى كبيرة من هذا المشروع في كتابات المؤرخين المعاصرين ، ومن المحتمل أن تكون حكمة

(1) Vasiliev : op. cit. p. 107

(2) Cantor. Med. Hist. p.p. 135-6

(3) Pirenne : op. cit. p. 48

(4) Oman : op. cit. pp. 12-13

(5) Cantor: op. cit. p. 136, p. 143

أدواكر في ترك صغار الملاك وشأنهم هي التي أنقذت اسمه من المذمة والعلامة إلى
لاتزال تعلق بكثير من الغزاة الثبوتون الذين غزوا الإمبراطورية . لكن يبدو
أن الآمال في إيطاليا قد أحسوا بتحسين لسبب طفيف في ظل حكم ملك بربري ،
بدلا من نبيل متبرير مثل Riemer أو جندوباد ، ولهذا أمكن لأدواكر أن
يستمر في الحكم دون مضايقة أو إزعاج ولا سيما أنه برغم أويوسيته لم يتم بأية
اضطهاد ديني أو تعصب مذهبي ضد الكاثوليك (١) ، وإذا كان قد أكد بعدة جهه
في أن يختار أساقفة روما ، فإننا لا نجد دليلا واحدا على أنه فرح المرشحين لهذه
الوظائف بالاجبار على رجال الدين أو على جمهور الناس (٢) . والواقع أن
أدواكر كان شديد القمع لاية محاولة ترمي إلى نقل ملكية أراضي الكنيسة أو
للتجارة بالرتب الكهنوتية ، ولهذا فقد أحس الناس في ظله بشيء من الارتياح
بالنسبة للمهود السابقة (٣)

ولقد حرص أدواكر في إقامة علاقاته الخارجية على الاحتفاظ بأقاليم إيطاليا
وأقسامها كما هي Diocess of Italy ، شبه الجزيرة وملحقاتها الرئيسية في
نوريكوم Noricum وشمال ألبانيا باعتباره نائباً للإمبراطور الشرق (٤) ، غير
أنه اضطر إلى التنازع مع ساحل بروفس الذي استولى عليه ملك القوط الغربيين
إيورك Euric ، وكان أدواكر قد وجد ذلك الساحل في أيدي الرومان ، ولم
يندأ أدواكر أى محاولة لإقامة علاقات مع الحاكم العالي الرومان سياجاريوس
Syagarius ، الذي كان يحكم أواسط غالة ، محصورا بين القسوط الغربيين

(1) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 435-6

(2) Oman ; op. cit. p. 13

(3) Helmolt : "Italy" B. H. VII. p. 3488

(4) Ibid. p. 3488

والفرنجية (١) ، أما في الناحية الشمالية الشرقية ، فقد اتبع أدواكر سياسة حلزومة ، فعند اغتيال جولويس نيبوز Julius Nepos على يد الثوار سنة ٤٨٠ م ، غزا أدواكر دالماتيا Dalmation وأخضعها ، وهي التي كان الامبراطور السابق قد فعل كل ما في وسعه للاحتفاظ بها (٢) ، أما في أقصى الشمال - في نوريكوم - حيث سبب الروميون Rogians إزعاجا لاهالي الرومان سنوات طويلة وكانوا يعبرون نهر الدانوب كثيرا للقيام بإغاراتهم ، فقد أظهر أدواكر سياسة حازمة معهم (٣) ، فأرسل إليهم أخاه هونولف Hunwulf سنة ٤٨٧ م على رأس جيش نجح في إزاحتهم إلى الخلف ، عبر النهر وأسر ملكهم فيفا Feva ؛ لكن لم يكد أهالي تلك الجهات من الرومان يتحررون من ضغط الرومانيين ، حتى انتهزوا الفرصة لاستعادة مدنهم المخربة ، ولكن للهجرة في جماعات كبيرة إلى داخل إيطاليا (٤) ، فحملوا كل متاعهم وقطعانهم وكنوزهم ، حتى وفات قديسيم وتدفقوا في حماية جيش هونولف ناحية الجنوب ، عبر جبال الألب ، وحصلوا من أدواكر على تصريح بالاستقرار في الأراضي الإيطالية ، التي كان الوندال قد أزلوا بها الخراب والدمار من قبل (٥) ، ولم يمد هناك في نوريكوم سكان من الناطقين باللاتينية إلا في الأودية الريفية Rhaetian Valleys ، حيث بقي بعضهم يعيش بعيداً ، ولعل ذلك هو السبب في أن جنوب بافاريا وأستريا لا يتكلم

(1) Lot: op. cit. p. 215

(2) Heyck : " The great Teutonic deluge " B. H. VII. p. 3454

(3) Oman: op. op. cit. p. 14

(4) Helmolt : op. cit. p. 3455

(5) Heyck: op. cit p. 3454

أهلها الرومانية في الوقت الحاضر (١) .

أما فيما يتعلق بسياسة أدواكر تجاه مملكة الوندال بهلم لإفريقية ، فقد ميزتها المرونة والذكىاسة ، إذ قبل أدواكر أن يعقد اتفاقية مع جيزريك ، رضى بمقتضاها أن يدفع إتاوة للبلك الوندالى ، مقابل تعهده بوقف مشروعاته فى صقلية ، ووقف محاولاته لغزو الجزيرة (٢) ، ثم شغل هونريك خليفة جيزريك الوندالى ، بمشاكله الخاصة عن القيام بأى أعمال تمكر صفو أدواكر فى إيطاليا ، فتخلص هذا من أكبر خطر هدد سواحل مملكته ناحية الجنوب .

وفىما يتعلق بسياسة أدواكر تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، فيبدو أن أدواكر حاول أن يحكم إيطاليا بوصفه نائباً لإمبراطور القسطنطينية ، ولم يكن هناك بد أمام بيزنطة إلا أن تسبغ عليه ألقاب التشريف وتمنحه وضما قانونياً لحكم الإيطاليين (٣) ؛ غير أن بيزنطة كانت فى الحقيقة رافضة لهذا الملك لأنه إذا كان لابد من قيام حاكم تيرتوتى فى إيطاليا ، فمن الأوفى أن يكون مرابطاً أرتباطاً وثيقاً بالبلاط البيزنطى ، ومظهرأ لكثير من الاحترام والولاء للقسطنطينية ، مثل ثيودريك للقوطى الشرقى ، الذى عاش فترة فى القسطنطينية ضيفاً على إمبراطورها وتصبح بالحضارة الرومانية ، وأظهر كثيراً من الاحترام للمدينة البيزنطية (٤) ، ولهذا يقال إن بيزنطة وضمت فى طريق أدواكر العراقيل حتى فى بداية عهده ، وإن الحملة التى قام بها أدواكر ضد الراجيين كانت بإيعاز من بيزنطة ، وتنفيذاً

(1) Oman; op. cit. p. 14

(2) Jung : "The Coming of the Goths " B. H: V. 2794

(3) Heyak op. cit. p. 3454

Ostrogorsky : op. cit. p. 57-8

(4) Helmolt; op cit. p. 3455

سياستها لمحاربة إغائاته ، وإفارة المشاكل في وجهته (١). وهكذا لم يكن حكم أدواكر في إيطاليا ينتظره مستقبل باسـم ، من قبل جيرانه وأقرانه وإنما حال دون استقراره وراثته كثير من المشكلات والعقبات ، وإن بدا داخل إيطاليا حكما طيبا هادئا بالنسبة للفترة السابقة .

تعمل أدواكر مسئولية الحكم إذن في إيطاليا ونوريكوم ودالماتيا بنجاح لمدة ثلاثة عشر عاماً ٤٧٦ - ٤٨٩ م ، وكلما مرت الاعوام دون حدوث فاجعة ، وبقي الجيش هادئاً ، وواصل الإيطاليون حياتهم قانعين ، بعد تحرورهم من الوندال والقوط ، ازداد اقتناع أدواكر بأنه قد نجح في إقامة مملكة جرمانية على شرار مملكة البرجنديين أو القوط الغربيين جيرانه الغربيين (٢)؛ غير أنه كانت هناك نقطة ضعف قاتلة بالنسبة لمملكة أدواكر ومركوه في إيطاليا ، إذ لم يكن أدواكر يعتمد على ولاء قبيلة متجاسكة متحدة أو أمة جرمانية بينها ، ولكن كان اعتماده قائماً بصفة أساسية على إخلاص جيش مرتزق وافر مأجور ، فقد تكون هذا الجيش من بقايا اثنا عشر بطناً من البطون الثيوتوية أو العائلات الثيوتوية الكبيرة ، وكانت هذه البطون لا تنظر إلى أدواكر إلا على أنه قائد عام ، ومأمور صرف ، وليس أميراً شريعياً أو سليلاً للالة ، كما نظرت الأمم الجرمانية إلى ملوكها وأبطالها (٣) . وهكذا لم تكن الفرق العسكرية المحالفة التي نصبه أدواكر ملكاً تنتمي بأي حال من الأحوال لامة واحدة أو تمثل شعباً واحداً ، وكان الأمر يتطلب أجيالاً طويلة ليم الانسجام بينها ، ويحدث التفاعل فيما بينها ، ولكن

(1) Ibid. p. 3455

(2) Pirenne: op. cit. p.27

(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 436-7

لم يثمل الأقدار هذا الملك ليواصل قيامه بهذا العمل^(٢).

قبل أن يتغنى على ملكة أدواكر نصف جيل من عمرها ، كان عليها أن تختبر . وأن يجمع عودها بالصدمة العنيفة ، وتحث وطأة الغزو الحربى ، ففي سنة ٤٨٩ زحف إليها من العانوب ومن جبال الألب في إيليريا عدو لدود هو ثيودريك بن ثيودمير ، ملك القوط الشرقيين^(٣) ، يقود كل شعبه من القوط في حشد هائل من الرجال الأشداء والأبطال المعظام مع زوجاتهم وأطفالهم وحيدهم وقطعانهم ، يسدون منافذ جبال الألب من الجهة الشمالية الشرقية ، ومعهم اثنا عشر ألف حربة تجرها البغال ، حاملة أمتعتهم وساجياتهم في طريقهم إلى إيطاليا^(٤) ، وكانت أسوار القسطنطينية الحصينة قد وقفت حتبة أمام ثيودريك لإخضاع الإمبراطورية الشرقية ، ففضل هذا أن يلتقى بنفسه وبجميعه نصف الجائع إلى أرض جديدة مناسبة للغزو والإقامة ، في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور الشرقى يحاول جهده لإخراج القوط وإبعادهم عن البلقان إلى أبعد ما يكون عن دولته^(٥) ، وهكذا كان لكل من الإمبراطور زينون وثيودريك أسبابه في تمنى السوء لأدواكر ، فقد سبب أدواكر الإزعاج للإمبراطور^(٦) ، واعتقد هذا أن أدواكر ساعد ثائرا قديما في آسيا هو ليونتئوس سنة ٤٨٣ م ، استطاع أن يهزم حرس الإمبراطورية ويهزمه مكائتها ، في حين كان الملك القوط الشرقى لا يزال

(2) Helmolt: op. cit. p. 3455

(2) Oman : op. cit. p. 15

Camb. Med. Hist. V. I. pp. 447-8

(3) Lotz op. cit. p. 240

(4) Cantor: Med. Hist. p. 140

(5) Lotz op. cit. p. 220

بذكر كيف سبب له أدواكر إزعاجا شديداً في البلقان على أمر حلفه ضد الروميين سنة ٤٨٧ م ، وقرار أعداد كثيرة منهم للاحتباء به^(١) ، وما قرب على ذلك من أعباء إضافية على أمة القوط الشرقيين ، ولما كان أدواكر يحكم إيطاليا في طاعة الإمبراطور زينون ، ولو أتيح لثيودريك الفوز بإيطاليا وإحلال نفسه محل أدواكر ، فإن الأمر يندو بالنسبة للإمبراطور مجرد إحلال ملك جديد يدين بالطاعة له محل ملك آخر يتبع نفس السياسة ويعرض عليها^(٢) ، ولو اسماً ، وكان ثيودريك قد وعد الإمبراطور حين وجهه إلى إيطاليا أن يصبح مشللاً للإمبراطورية الشرقية في الأراضي المزمع امتلاكها ، وتابعا لها يعترف بسيادتها ، على الرغم من أن الإمبراطور لم يكن يهمل حينذاك سوى إبعاد القوط الشرقيين عن البلقان بأي ثمن وإلى أي مكان^(٣) .

دعا ثيودريك ، في خريف سنة ٤٨٨ م ، كل شعبة من القوط الشرقيين ليمسكروا في وادي نهر الدانوب الأوسط ، وأمرهم بأن يستعدوا للحجرة بعيدة ، ويبدو أن اختيار هذا الفصل القاسي من السنة ، وقتاً للقزو والتقدم أملاء الخوف مما قد يتعرض له القوط في تلك الجهات من جماعة بعد أن خربت الحروب موزيا Moesia ، ولم يعد لدى القوط مؤن تكفي حتى الربيع التالي^(٤) . وهكذا سارت

(1) J. Jang : op. cit. p. 2794

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 58

Oman: op. cit. p. 15

(3) Canter : op. cit. p. 140

(4) Oman: op. cit. p. 15

جروح القوط الشرقيين في أكتوبر سنة ٤٨٨ في حشد بلغ مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف نسمة ، على الطريق الروماني بمحذاً نهر الدانوب ، ثم عبروا النهر ليسيروا عبر بانوينا^(١) ، غير أنهم مالبنوا أن قبولوا بمقاومة شديدة من قبل ملك الجيبدأ تراستيل Traustila الذي كان يحكم ضفتي وادي نهر الدانوب الأوسط^(٢) ، وحاول التصدي للقوط ليمنعهم من المرور عبر أواخيه ، غير أن ثيودريك استطاع أن يزل به الحريجة وإن لم يستطع القضاء كلية على مقاومة الجيبدأ ، فظلوا ينايقتونه ويطلون تقدمه في تلك الجهات حتى اضطر لقضاء الشتاء على نهر الساف Save ، ليمكن قومه من نهب مزارع الجيبدأ^(٣) . وفي ربيع سنة ٤٨٩ م تحرك ثيودريك إلى الأمام ، وعبر بحرات الآلب الجوليانية Julian Alp ، دون أن يجد مقاومة من جيوش أدواكر ، حتى وصل إلى المسر المؤدى إلى سهل فينسيا Venetia ، وهناك على ضفاف نهر الإيزونزو Isongo كان أدواكر ينتظر بكل جموعه من القبائل المحالفة حيث اندلعت معركة كبرى بين الجانبين^(٤) ، وفي تلك المعركة كان القوط يحاربون وهم أمة واحدة ويدافعون عن زوجاتهم وأطفالهم الذين يقفون خلفهم ، ويناضلون تحت قيادة ملكهم الوارث ، سليل البطوة والمجد^(٥) ، ويعلمون تماماً أن الحريجة تعنى الفناء ، ولهذا كانت وحشيتهم والدفاعهم يفوقان الوصف ، بالقسارنة بالجموع غير

(1) Helmolt : op cit, p. 3455

(2) Lot: op. cit, p. 209

(3) Oman: op. cit. p. 16

(4) J.Jung : op. cit. p. 2794

(5) Cantor. Med. Hist. p. 140

المتجاسة التي حاربت مع أدواكر (١)، ولهذا انتهت المعركة بهزيمة أدواكر ملك إيطاليا، ونهب معسكره وتبشر قواته، ولم يعد أمامه سوى فرصة نحت أسوار فيرونا ليحاول جمع شتات جيده ولم شعثه ليخوض جولة جديدة. ولم يكذ يمتضى شهر واحد على معركة إيزو، حتى ظهر فيودريك مرة أخرى أمام عدوه أدواكر في فيرونا، ومن جديد الحق به هزيمة قاسية وحار نصراً حاسماً، وأهلك معظم الفرق العسكرية المخالفة التي كانت تدافع عن إيطاليا، فافتتح الطريق أمام القوط لاحتلال البلاد، على الرغم من نجاح أدواكر في الفرار هذه المرة أيضاً (٢).

انحدر أدواكر من شمال إيطاليا لاكذا بطريق المستنقعات وغابة رافنا، إذ تكلفت هذه المنطقة بإحباط محاولات كثيرة لنزو شبه الجزيرة الإيطالية، غير أن فيودريك تقدم في نفس الوقت إلى الأمام، فاحتل ميلان وكل وادي نهر البر The Po، وتوج انتصاراته تماماً بمحاصرة توفو المركز الرئيسي لجموع أدواكر، فالبحت أن استسلمت القوط مع فلول الجيش الإيطالي في خريف سنة ٤٨٩ بمقتضى هدنة مع فيودريك (٣)، غير أنه قدر للعرب أن تستمر مدة أكثر من ثلاث سنوات، فقد كانت رافنا محصنة تحصينا قويا، فضلا عما لها من مقاومة خارجها، فاضطر فيودريك إلى فك الحصار عن رافنا ثلاث مرات لتصدى المقاومة الشديدة التي نهضت هذه (٤)، وكانت المرة الأولى حين تقصفت

(1) Lot : op. cit. p. 238

(2) Jung : op. cit. p. 2794

(3) Oman: op. cit. p. 17

(4) Camb. Med. Hist. V.I, p. 439

توفاً لشروط الهدنة وحادت إلى طاعة ملكها لتقديم أدواكر، والمرة الثانية حدثت في العام التالي حين قدم ملك برهنديا وجندوباد، وعبر جبال الآلب لمعاونة أدواكر ثم حاد مرة أخرى من حيث أتى^(١)، والمرة الثالثة حين حاول فردريك ملك الروميين مساعدة أدواكر، هل الرغم من أن ثيودريك كان قد أضفى عليه الحماية، قبل ذلك بثلاث سنوات، على أثر فراره بجيوش أمام أدواكر نفسه^(٢).

أما بالنسبة لأدواكر، فلقد استلح أن يحمي نفسه في مستنقعات رافنا قرة قبل أن يتمكن ثيودريك من دفعه إلى الوراء وإخراجه من مكانه، ولمدة أكثر من عشرين شهراً حتى أدواكر نفسه داخل أسوار رافنا الحصينة إلى أن اضطر تحت ضغط المجاعة ونقص المؤن إلى التقدم إلى ثيودريك، يطلب السلام في فبراير سنة ٤٩٣ م^(٣)، فرد عليه ثيودريك رداً حسناً وعرض عليه شروطاً أفضل مما توقع أدواكر، قوامها أن يحتفظ أدواكر بأقنبه الملكي ويشارك في حكم إيطاليا، غير أن ذلك كان مجرد قرع وبإغواء من قبل ثيودريك لأنه بمجرد استسلام أدواكر وتسليمه سلاحه، وتقدمه إلى معسكر ثيودريك اغتيل في خمسة وثلاثة أثناء وليمة دعى إليها، بعد عشرة أيام فقط من سقوط رافنا، وكانت هذه الجريمة هي أبشع ما ارتكبه ثيودريك من جرائم في حياته الطويلة^(٤). وهكذا قتل أدواكر، وانتهت ملكته على يد ثيودريك القوطي الشرقي، الذي بدأ في إرساء دعائم ملكة قوطية جديدة في إيطاليا ابتداءً من غزوه لها في سنة ٤٨٩ م^(٥).

(1) Oman : op. cit p. 17

(2) Let: op: cit p. 233

(3) Helmolt: op. cit, p. 3455

(4) Camb. Med. Hist. V. I p. 440

(5) Canfor. Med: Hist. p. 137

الفصل السابع

ملكه القوط الشرقيين بإيطاليا

ثيودريك العظيم - بعض ملامح شخصيته القده - تسامح الديني -
توطين القوط الشرقيين بإيطاليا وإرساء دعائم الحكم المندريد -
حكومة ثيودريك في إيطاليا - إتمام ثيودريك لمظاهر الحضارة
الرومانية وخفاظه طيبا - ثيودريك والإمبراطورية البيزنطية -
ثيودريك وجيرانه في الشمال - علاقة ثيودريك بجيرانه في الغرب
من الفرنجة والقوط الغربيين والبرجنديين - ثيودريك والوندال -
السنوات الأخيرة من عهد ثيودريك ومعركة ورواق العرش -
اضطراب حكمه واضطهاده للكاثوليك - وفاة ثيودريك العظيم
واضمحلال المملكة القوطية - خلفاء ثيودريك في إيطاليا - ضرر
جستينيان لإيطاليا - المقاومة الباسقة للقوط الشرقيين فيها - نهاية
المملكة القوطية الشرقية .

كان القوط الشرقيون أكثر الشعوب الجرمانية تهيؤاً لإقامة ملكة جديدة ،
وإرساء دعائم حكم مستقر ، وأكثر القبائل الجرمانية استعداداً لتطوير دولتهم
وتسمية نجلها ومدينتها ، وإذا كان هناك رجل يمكن أن ينهض بذلك الصب ، فلم
يكن أحداً أستب من ثيودريك العظيم لقيام بهذا العمل (1) ، فقد قضى عشر
سنوات من حياته ضيقاً على القسطنطينية أطلع خلالها على أحوال الإمبراطورية

البيزنطية ، ووضع يده على نقاط ضعفها وقوتها ، وخبر عن كسب نظامها الإداري ، وعرف أوجه تفوق الإدارة الرومانية وجيوبها وأثر كثيرها بالنظم البيزنطية (١) ، وقضى نحو عشرين سنة من عمره قائداً لقيك فأكسب خبرة طويلة في مجال الحرب ضد الرومان وضد البرابرة أيضاً (٢) ، لتوجهه بجلته رجال الدولة الإيطاليين يرويه خبراً بإدارة إمبراطورية المترامية ، ماهر في شئون حكمها ، ورأى فيه المحاربون من القوط القائد القبل الماهر ، والحربة القوية في جيش القوط . ولكن ثيودريك كان أكثر من مجرد رجل دولة ومحارب قد ، فقد كان واسع الأفق عبق الأفكار بعيد النظر صائب الرأي ، حتى لقد تفنى الناس بحكمته وصاغوها في مجموعة كبيرة من الأمثال وهوها تماماً ، وحفظوها طويلاً (٣) .

فباستثناء حادث واحد أو اثنين لطفاً سجله أو شأنا أحماله فيمكن القول إن حكمته وأفكاره العظيمة كانت مستلزمة من قلبه الطاهر ، وعمله البار الصالح ، فقد كان الوحيد بين ملوك الجرمان الذي استطاع أن يكبح جماح ممجية القوط ونسوتهم ، ويضع حداً لنهورهم وتبربرهم ، ويعامل الإيطاليين معاملة كريمة (٤) والملك الوحيد الذي لم يفتخر بمظاهر التنظيم والتجليل من قبل رعاياه ، ونظر إلى نفسه على أنه أصبح قاضياً نصب على عرش ليتعامل مع الناس ويحكم بينهم بالتسقاط المستقيم ، كما كان الملك الوحيد بين ملوك الجرمان والرومان على حد سواء الذي أظهر قدراً كبيراً من التسامح وعدم الميل للظلم أو العدوان أو الاضطهاد (٥) .

(1) Pirenne: op. cit. p. 43

(2) Camb : Med. Hist. V. I. pp. 437-8

(3) Oman: op. cit. p. 20

(4) Cantor. Med. Hist. p. 143

(5) Lot : op. cit. p. 241

والواقع أنه لم تأت ملكية قبل ألف سنة من عهد ثيودريك يمكن أن توصف بأنها أخذت برأي ثيودريك وإصلاحه الصغير بأن «الدين إنما هو شيء لا يمكن للملك أن يتحكم فيه ، ولا يمكن إجبار أحد على اعتناق دين على غير رغبة منه ، ولا يفتق مع مبوله» (١) . فعلى الرغم من أنه كان أريوسيا ، فقد أظهر تسامحا جما مع الكاثوليك ، استخدمهم في الوظائف الحكومية ، بل إنه أظهر تسامحا كبيرا مع اليهود ، فتمنحوا بفترة طيبة وحكم عادل في ظل دولته ، في الوقت الذي أظهرت فيه كل ممالك الدياسا نوحان من القسوة والقتل نعرم (٢) ، فضلا عن أن هذه السياسة الدينية المتدلة لم تتغير بتغير نزغات وعاياها الدينية أو المذهبية ، فهو الذي نادى بأنه «ينبغي أن يعامل جميع الرعايا بالعدل ، ولا يحرم من التمتع به حتى أولئك الذين ليس لهم عقيدة» (٣) .

ولم يقتصر ثيودريك على ما أظهره من كفاية في مجال الإدارة وفي ميدان الحرب ، وعلى آرائه العلية في مجال الدين والعقيدة ، وإنما ظهرت كفايته أيضا في عملية إرساء دعائم ملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ، وتوطين شعبه بوطنه الجديد ، فقد كانت الأرض التي صادرها أدواكر قبل ذلك بنحو سبعة عشر عاما ، وهي تلك أراضي إيطاليا ، يمكن أن تشجع بهم القوط ، وتكفي لتوطينهم في البلاد (٤) ، لأن الجانب الأعظم من القبائل المتحافنة تحم قيادة أدواكر كان قد ملك في المعارك الحربية ، وتعرض من نجاح منهم لعمليات إبادة شديدة إبان

(1) Oman: op. cit. p. 21

(2) "Letters of Cassiodorus in Theodoric name" trans. by Hodgkin, in Med. World, by Cantor, p. 78

(3) Oman: op. cit. p. 21

(4) Cantor. Med. Hist. p: 143

ثبوتات القنب التي قام بها الايطاليون بعد هزيمة أدواكر واستسلام رافنا ،
ولذلك أتيح لثيودريك أن يزل رجاله في أراضيهم دون أن يلجأ إلى نهب
ممتلكات الأهالي (١) ، وإن كان قد عدد في البداية بأنه سوف يعاقب أولئك
الذين تعاونوا مع أدواكر أو ظلوا على الولاء له لفترة أطول ، غير أنه عاد في
النهاية إلى العفو عنهم ، وهكذا استقر القوط بين رعاياهم الجدد ، دون مصادرة
أو سلب أو عدوان ، فزولوا بكثافة على طول وادي نهر البيوني *Pisenum* ، كما
نزلوا في تسكاليا ووسط إيطاليا في هيئة جماعات متفرقة دون تركيز ، أما في
جنوب إيطاليا فلم يجرؤ سواه القليل منهم على الاختراق والذهاب إلى هناك ،
واكتفوا باستقروا في الجهات التي نزلوا فيها ليعكفوا جابياً مسن سكان الريف ،
وعصروا هاما من عناصر السكان في الميسن الملكية الرئيسية مثل رافنا وبافيا
وفيرونا (٢) .

والواقع أن خطة ثيودريك في حكم إيطاليا تستحق منا دراسة واجبة ،
لأنها كانت تجربة هامة. لشعب جرمان في بلد عريق مثل إيطاليا ، وبإدراكنا
بأن تلك الخطة هي التي جعلت لثيودريك منزلة سامية بين ملوك العصر ، وجلت
حكومته موضع الاحترام في داخل إيطاليا وخارجها (٣) ، ومكنته من إقامة
مملكة قوطية وراثية فوق التراب الإيطالي ، وبين الشعب الروماني صاحب التراث
العظيم والتاريخ الحافل ، إذ لم يلغ ثيودريك بقايا النظم الإدارية الرومانية التي
وجدتها قائمة ، ولكنه على عكس ذلك جد في إخضاع القوط للقانون الروماني ،

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 447

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 448

(3) Cantor; Med. Hist. p. 138

وغيقت الضرائب على الطبقات الدنيا ، وتوخى حد التضخم والاعتدال في جبايتها ، وأتم باتباع العدل والمساواة مع وعاياه (١) ، وأرخ الوثائق الرسمية بسنوات حكم الإمبراطور الشرقي لابسنوات حكمه هو ، وتفنن صورة الإمبراطور من وجه العملة وصورته هو على ظهرها ، وحاول التزام الاعتدال في علاقته مع السائق ، وأقر القنصل الروماني في إيطاليا ، واكتفى بإصدار القرارات دون من القوانين (٢) . والواقع أن ثيودريك كان حاكماً مستقلاً مقسماً ، لم يدعز وساق أن يفتى على حكمه صفة الشرعية وأن يحسن الإيطاليين من الاعتناء ، بل حاول أن يهزم الإيطاليين بأنه مجرد قائد عسكري يتولى الدفاع عنهم نيابة عن الإمبراطور ، وودد للفقيرين من الجرمان وغير الجرمان من إيطاليا ، واتخذ رأفاً خاصة له وأقم بها قصراً واتخذ من الكنائس الكثيرة ما يظهره في ثوب الحاكم الورع (٣) . حاول ثيودريك إذن الحفاظ على النظم الرومانية بإيطاليا ، فلم يغير بها سوى تغييرات طفيفة ، فأقر السائق ، والنظم الإدارية والوظائف العامة والمدارس ، ولم يحاول اختصار أو اضعاف الاموال ، بل اكتفى بمجازاة الأراضي الخائفة لقومه دون نزع ملكية الأراضي الخائفة ، كما سمح للرومان بشغل الوظائف الإدارية والمالية الكبرى في الدولة (٤) .

ويبدو أن ثيودريك كان مقتنماً بأنه ينبغي أن يبقى نظامان للإدارة جنباً

(1) " Letters of Cassiodorus. " in Med. world. Cantor, pp. 75-6

(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 63
Pirenne; op. cit. p. 46

(٣) لفظة " ورع " في المراجع ص ٢٢٠

(4) Lot; op. cit. p. 241

إلى جنب فترة من الزمن فيحكم القوط ويعاملون قانونيا طبقا لنظمهم وإدارتهم وقوانينهم وعرفهم وعلى يد الكونتات الذين أقامهم في كل إقليم في إيطاليا ، في حين يخضع الرومان ويعاملون طبقا لقوانينهم الرومانية^(١) ، أما إذا حدث نزاع بين قوطي وروماني ، فتحال القضية إلى كرونت قوطي يشترك معه قاض إيطالي للنظر فيها . وكان بلاط ثيودريك مثل بلاط غيره من ملوك الجرمان في تلك الفترة في كثير من الأوجه ، فقد أحاط نفسه بجموعة من الحراس الخصوصيين ، من المحاربين العسكريين يمثلون رجال الملك الذين يقومون على خدمته ويتحولون إلى حرس خاص له في ميدان القتال^(٢) ، وكان على رأس هؤلاء جميعا تابغان أو ثلاثة أتباع دائمون يمثلون كبار الموظفين في البلاط وهم الذين شهدتهم كثير من الممالك في أواخر المصور الوسطى ، هذا فضلا عن حاجب آخر أو أمين القصر ، اتخذ ثيودريك أيضا^(٣) ، ولعل ما حازته حكومة القوط الشرقيين من قبول في إيطاليا يرجع إلى ما أبداه ثيودريك من حرص على عدم مزج القوط بالإيطاليين ، وما أولاه من اهتمام بأن يعيش الفريقان معا يكمل كل منهما الآخر ، القوط بما توفر لهم من النشاط والحياة والرومان بما حلوه من مهارة وعلم وحضارة ، وبفضل تعاونها يمكن أن تنفذ الآمال لبعث أسجاد روما ، وعلى الرغم مما أبداه ثيودريك من حرص على أن يخضع الجميع لقانون واحد^(٤) ، لكي يحقق العدالة بين الجميع ، فإن جيش الفزاة ظل يربط في البلاد ويخضع في كثير من الجوانب لقانونهم الخاص ، وما أحرزه ثيودريك من نجاح في حمل

(1) "Letters of Cassiodorus." Mod. world: pp.76-7

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 442

(3) Oman: op. cit. p. 23

(4) Pirenne : op. cit. p. 40, p. 47

فومه على الخروج لقانون الرومانى لا يمثل إلا قدرا ضئيلا ، وإن أدهى فى النهاية إلى أن يفقد القوط الشرقيون بمرور الوقت قانونهم الخاص دون بقية العناصر الجرمانية^(١) . غير أن ثيودريك نجح كثيرا فى تنظيمه الإدارية ، فاحتفظ بنظام كامل للوظائف الرومان ، يحملون الأسماء القديمة التى كانوا يحملونها على عهد الإمبراطورية^(٢) ، وأظهر ثيودريك مهارة عظيمة فى اختيار أكثر الرعايا الإيطاليين إخلاصا وولاء له ، وقرب إليه لثنتين من كبار الموظفين الرومان هما لىبريوس Liberius وكاسيدوروس Cassiodorus ، وشغل كل منهما على التوالى وظيفة مستشار الملك وتمتع كل منهما بثقته الكبيرة^(٣) .

وإذا لم يكن لدينا الوقت والمساحة الكافية الحديث عن كل إصلاحاته ثيودريك فى مجال الإدارة ، فلنا نكتفى بالإشارة إلى أن يده الإصلاحية قد امتدت إلى كل انحاء فى إيطاليا فلقبى حكومته قبلًا من الإيطاليين ، للاهتمام الكبير الذى أبداه بالحضارة الرومانية^(٤) ، فضلا عن حرصه على إنفاذ إيطاليا من حالة الفوضى والخراب وإمتاعها بفترة من السلام امتدت سنة وثلاثين عاما ، وتوسيعه إياها ، وإحاطتها بسياس من الدبلوماسية الواقية وإضافة إقليم بروقانس الغربى إليها وأجزاء أخرى كما سنفضل ، واهتم بإصلاح الطرق الرومانية القديمة وحفر القنوات المائية وتطهيرها ، وإعادة حفر المصارف والترج ، وإقامة المباني

(1) Oman: op. cit. p. 22

(2) Lot: op. cit. pp. 240-1

(3) Vasiliev : op. cit. pp. 133-34

Pirenne: op. cit. p. 119

Seldinmayer : Currents of Med. thought. pp, 8-9

(4) Katz: op. cit. p. 110

الفخمة والقصور الراقية وعنايته الكبيرة بتجديد روما (١)، حتى إنه كان يخرج في كل سنة مائتي رجل ذهب لترميم المباني القديمة والاهتمام بالآثار والتماثيل ، ومازاله مدينة رافنا الجميلة تضم رفات هذا الملك الجرمانى ، كما تحفظ شهره آثاره وتحتاج عنايته الدائمة بآثارها ومبانيها وسقاياتها (٢) . ولقد حرص ميودريك على حضور مناقشات مجلس السائق Senate ، واشترك هو نفسه في تلك المناقشات ، كما حرص على تقوية هذا المجلس عن طريق تعيين بعض أعضائه من القوط Gothic Senators وإلى جانب ذلك اهتم بإعادة تنظيم فرض الضرائب ، فخفف كثيرا من كامل الامساك وأبشخ الخرافة الحكومية (٣) ، وشجع كثيرا نمو الفلسفة القديمة في إيطاليا ، وأظهر بالغ الاحترام لكل ما هو روماني وقوطى أيضا (٤).

كان نجاح ميودريك في نظم الحكم والإدارة الداخلية ، مقرونا أيضا بنجاح عظيم في سياسته الخارجية ، فقد وجه عنايته لإقامة علاقات طيبة مع الإمبراطورية البيزنطية ، حتى قبل أن يقضى على أدواكر ، إذ أرسل إلى الإمبراطور زينون سفارة تنبهه بغزو القوط لإيطاليا (٥) ، وتطلب اعتيادا إمبراطوريا منه ، غدير أن السفارة وصلت بعد أن مات زينون وانتمى خليفته أسطاسيوس في سلسلة من المؤامرات ، وانهمك في الفتن ، ولم تعترف الإمبراطورية الشرقية بملك القوط

(1) Letters of Cassiodorus trans, by Hodgkin, Med. world pp.74—5

(٢) انظر : قس المرجع ص ٢٤ - ٢٥

(3) Oman : op. cit. p. 23

(4) Helmolt : "Italy" B. H. VII, p. 3456

(5) Lot: op. cit. pp, 240-1

حكما على إيطاليا قبل سنة ١٩٧ م ، وفي تلك الفترة كان يهوديك قد أكد وجوده على الحدود مع الإمبراطورية جهة الشرق (١) ، وقام قاده بإخضاع بانونيا حتى سيرميوم Sirmium ، وتمدوا ذلك إلى أرض موزيا ، حيث جرت بعض الاشتباكات مع جيوش الإمبراطورية ، وحصلت بعض المتاعب لمدة ثلاث سنوات دون معارك كبيرة أو حروب واسعة على الرغم مما حدث سنة ٥٠٨ م حين قام اثنان من قادة ألساسيوس بالإغارة على أبوليا (٢) ، وأحدثا فيها كثيرا من الخراب والدمار ، ولكن سرعان ما عاد الصفا. وعند صلح على أساس إعادة تنظيم الحدود وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه عند نهري الساف والدانوب (٣) .

ملاتية الشمال

ولقد أعطى يهوديك اهتماما كبيرا لعلاقاته بجيرانه في الشمال وفي الغرب ، فقد واصل سياسة أدواكر في حاية الجهات الرومانية ، فيها وراء جبال الالب ، وكانت تتكون من Rhastia ولوديكوم Norium ، وكان مذان الإقليم قد أصبحا جرمانيين أكثر من كونها أراضي تتحدث اللاتينية (٤) ، وقد لا بد بالإقليم الأول كثير من الألمانى Almanni أو السويبيين الذين طردوا كلوفس القرنجى . سنة ٤٩٩ م أراضيهم على نهر السابن والنكر Nechar ، وقد صار جولا بالاعتراض بلميتهم لثيودريك في مقابل حمايته لهم من شغباء الفرنجية

(1) Camb. Med. Hist. V. II, p. 451

(2) Ibid. p. 451

(3) Oman: op. cit. pp. 24-5

(4) Ibid. p. 25

ومضايقاتهم ، أنه أن الألمانى كانوا من الداخلين فى طاعة^(١) ، وإلى الشرق من ذلك وفى الإقليم الآخر (نوريكوم) أعطت هجرة السكان الرومان من هذا الإقليم فرمة موائية مختلف العناصر التيوتوية وبقايا البلطون المجزأة ، من الروجيين وغيرهم الذين أطلقوا على أنفسهم حينذاك « البافاريين » ، فرصة للاستقرار ب تلك الأراضى والمصارعة أيضا إلى الاعتراف بجميعة ثيودريك مثلما فعل الألمانى من قبل بل باءدروا بدفع الجزية له^(٢) .

أما بالنسبة لعلاقات ثيودريك بجيرانه فى الغرب ، فقد وجد ثيودريك مند البداية جبال الألب تعد ملكته من الجهة الغربية نظراً لأن أدواكر كاف قد تنازل القوط الغربيين من مرسيليا والمدن الأخرى التى كانت داخله فى طاعة الإمبراطور قبل سنة ٤٧٦ م ، وفيما وراء الألب كان الأريك القوطى الغربى يتحكم فى مصب نهر الرون وكل الساحل البروفنسالى ، بينما كان جندوباد البرجندي يحكم فى الرون الأعلى والأوسط^(٣) من مدينة أفينون حتى نيسا سون ولانجرى Langres ، وإلى الشمال من البرجنديين والقوط الغربيين وفيما وراء حدود الألب كانت تقع مملكة الفرنجة الجديدة ، وكانت حينذاك تمتد حتى نهر الوار وأعلى نهر السين ، وقد تعامل ملك القوط الشرقيين كثيراً مع هذه الممالك الثلاث^(٤) . بدأ ثيودريك عهده بإقامة مصاهرة سياسية مع كلوفس ملك الفرنجة مؤملاً أن تساعد هذه المصاهرة على إقامة علاقات ود بين المملكتين ، فتقدم يطلب يد أخيه كلوفس « أجوفيدا » Angafieda ، هل ذلك يقرب منه أولئك الفرسان المتحمسين فى

(1) Holmelt: op. cit. p. 3456 :

(2) Gamb. Med. Hist. V. I. p. 451

(3) Ibid : p. 452

(4) Oman: op. cit. p. 25

غالة^(١) ، وقد أنجب له هذه الواجهة ابنة الشرعية الوحيدة أما لورثا Amalewintha ، على الرغم من أنه كان قد أنجب ابنتين أكبر منها من خطبة له ، قبل قدومه إلى إيطاليا ، وما لبث ثيودريك أن زوج إحدى ابنتيه هاتين من سجموند بن جندوباد البرجندى ووريثه ، والأخيرة من الأريك القوطى الغربى ، ولهذا غدا كل جواره من أنسابه ، وعن ثم علاقات مصاهرة به^(٢) .

غير أن هذه المصاهرات لم تضمن السلام مع أولئك الأنساب المحدد ، ففي سنة ٤٩٩ هاجم كلوفس الفرنجى جواره جندوباد البرجندى لينتزع منه المملكة ، ونجح فلما فى إلحاق الهزيمة به وطرده إلى أقصى نقطة فى جنوب مملكته فى أفيتون. ولكن كلوفس ما لبث أن خسر كل ما أنجزه فى برجنديا واقلب ليحارب الأريك ملك القوط الغربيين ، ولقد جاءه ثيودريك عثا لينزع الحسب بين جيرانه وأنسابه^(٣) ، ولم يكن سيذا حين قام كلوفس سنة ٥٠٧ باجتياح جنوب غالة ، وقتل زوج ابنته الأريك فى المعركة^(٤) ، وحقق تحالفا مع البرجنديين لقيام بتدمير دولة القوط الغربيين ، غير مقيمين وزنا لوساطة ثيودريك ، وحين أصبح أمالريك - حفيد ثيودريك - ملكا على القوط الغربيين بعد مقتل والده الأريك ، وكان ما يزال طفلا ، لم يستطع ثيودريك أن ينض الطرف عما يجرى ضد حفيده فى جنوب غالة وأسبانيا ، وطمح عليه أن يقوم بعمل يحس به ملكة الصغير^(٥) .

(1) Lot : op. cit. p. 242

(2) Cantor. Med. Hist. p. 141,

(3) Letters of Cassiodorus, p. 76

(4) Helmsolt: op. cit. p. 3456

(5) Pirenne : op. cit. p. 64

ولذا أعلن ثيودريك الحريم على الفرنجة والبرجنديين معاً ، وأرسل جيوشه عبر
جبال الألب لتتقدم بقايا المملكة القوطية الفرنجة في غالة ، وهزمت فرقة كبيرة من
جيشه. فعلا جبال الألب وتولت في برجنديا ، على حين دخلت فرقة أخرى لإقليم
بروفانس ، ونجحت في ضرب الفرنجة والبرجنديين المحاصرين لمدينة أول (١) ،
وبشء من الخطأ استطاع ثيودريك أن يستفيد كل غالة جنوب الديورانس و
Cevennes سنة ٤٠٩ م ، حتى إن غزو كلوفس اقتصر على إقليم إكوتين.
Agilanno (٢) ، وأصبح الطريق حينذاك مفتوحاً أمام الجيوش القوطية الشرقية
لتسهر داخل أسبانيا لمعاونة الطفل أمالريك على أعدائه والثائرين ضده في أسبانيا
نفسها (٣) .

ولقد غدا ثيودريك في الفترة التالية ، ولادة إحدى عشرة سنة (٤١١ م —
٤٧٢ م) أي حتى وصول أمالريك سن الرجولة ملكاً على القوط الغربيين.
بالاشتراك مع حفيده الطفل ، فأتيح له أن يوحد قسمي القوط مرة أخرى بعد
انفصال دام نحو مائتي عام (٤) ، وأطبعه أوامرهم وقراراته في أسبانيا
مثلاً سرت في إيطاليا ، وأقام السكوت ثيوديس Thodis — التيل القوطي
الشرق — وكيلاً له على جزء من مملكة القوط الغربيين ، وأخذ ثاروبون مركزاً
له ، كما عهد إلى ليبريوس الرومان بإدارة الإقليم القوطي الفرنج من غالة ، حيث
اتخذ المدينة القديمة أوله مركزاً له (٥) . وغدت سلطة ثيودريك تمتد من

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 286

(2) Oman: op. cit. p. 26

(3) Helmolt: op. cit. p. 3456

(4) Lot: op. cit. p. 242

(5) Oman: op. cit. p. 27

سيرميوم *Sirmium* إلى قانس *Cadix* ومن الدانوب الأعلى إلى صقلية ، أي أنه حكم النصف الأكبر من الامبراطورية الرومانية القديمة في الغرب ، ومارس نفوذا واسعا في غالة وإفريقيا اللتين لم تكونا داخلتهن في حوزته فعلا ، وفي سنة ٥١١ توفي كلوفس الفرنجي وقاسم أبنائه الأربعة ملكه ، وعقدوا سلاما مع القوط الشرقيين ، بينما كان جنودااد البرجندي سيدا بحلول السلام ووقف استماله القوة من جانب جيرانه ، وبهني ذلك أن السلام قد استتب لمدة تقرب من ثلاثة عشرة سنة (٥١١ - ٥٢٣) قبل أن يصبح ثيودريك في سن متقدمة ويضطر بغير تدبير إلى التدخل في غالة^(١) ، وكان ثيودريك قد زوج ابنته غير الشرعية الكبرى لسجسموند الذي أصبح ملكا على برجنديا وكان طاغية متفككا كتيبا ، أقدم على حمل معين وجريئة بشمة آثار بها غضب ثيودريك وحققه ، حين قام بقتل ابنه وولي عهده سيجرك *Sigeric* حفيد ثيودريك ، ولهذا عاقبه ثيودريك بأن تحالف مع الفرنجة وقام معهم بمهاجمة برجنديا ، فاستولى على الأراضي الواقعة بين الديورانس والنوروم *Durmo* بما فيها من مدن هامة ، حتى بلغت مملكة القوط الشرقيين أقصى اتساع لها جهة الشمال الغربي^(٢) .

أما عن علاقة ثيودريك بالوندال ، فكان قد زوج ابنته أمالا فريدا *Amalafrida* إلى ملك الوندال المسجون ثراساموند (٤٩٦ - ٥٢٣) ؛ فاستمرت أمالا فريدا نوعا من السلطة على زوجها الكمل ابتداء من سنة ٥٠٠ م^(٣) ، ونجى أنه يبدو أن ثيودريك أراد أن يقوى هذه المصاهرة مع الوندال فعامل ملك الوندال على أنه أضعفه ، إن لم يكن قابعا إقطاعيا له وحين جرؤ ملك الوندال على مساعدة

(1) Pirenne; op. cit. p. 64

(2) Oman; op. cit. p. 27

(3) Lot : op. cit. p. 247

ثامر أسباني، غضب ثيودريك وفرض عليه الجزية (١)، وأمره ألا يفعل شيئا منذ ذلك الوقت فصاعدا دون استشارة زوجته أمالافريدا، والتربس أن ثراساموند لم يبد أي اعتراض على ذلك، بل إنه أخذ يفعل كل ما في وسعه ليسترعى ثيودريك، إذ لم يكن على استعداد للدخول في أي حرب خارجية قد تعطل على مملكته الحراب والهدمار، ولا سيما أن دولة الوندال اضططعت منذ وفاة هونريك سنة ٤٨٤ م وتعرضت للفتن الداخلية وثورات المغازبة، وتعمل السكاوليك، ولهذا حاول ثراساموند ألا ينضب ثيودريك أو يدخل في صراع معه (٢). لكن قدر لثيودريك أن يستأثر في سنة ٥٢٣ م على يد هلدريك بن ثراساموند من زوجته الرومانية إيدوكيا السكاوليكية، وكان أول ملك وندالي يستق السكاوليكية ويهاجر بها وينشئ الإقطاع الطويل للسكاوليك في شمال إفريقيا (٣)، فقد تزوجت زوجة والده المتوفى، أمالافريدا، الحرب للثامر حده، السكاوليكيته من ناحية ولأنها كانت تطمح في أن يتولى العرش أحد أبناء إخوة زوجها الراحل، غير أن هلدريك نجح في إلحاق الهزيمة بالثوار وأصر أمالافريدا وزوجها في السجن غير هائي. بنضب أخيسا ثيودريك العظيم (٤)، ويبدو أن ثيودريك شغل عن هذا الملك الثامر بمشاكله الداخلية، فلم يتم حده بعمل حرب، واقتصر الأمر طوال السنوات الثلاث الباقية من عمر ثيودريك على مجرد سجن حده الملك، ولكن بمجرد وفاة ثيودريك سنة ٥٢٦ م أمر هلدريك بقتل أمالافريدا

(1) Oman ; op. cit. p. 28

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 313

(3) Oman ; op. cit. p. 29

(4) Camb. Med. Hist. V. I. p. 314

المنة في سجنها ، فارتكب بذلك عملاً بهما يعطاف إلى سجل الوردال الحسافل بالمأسى والآلام^(١) .

ولقد حكوت مملكة ورواة عرش مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا صفو حياة ثيودريك في سنواته الأخيرة ، فهو لم ينجب أولاداً ذكوراً ، وكان قد زوج ابنته الشرعية الوحيدة أمالاسوينثا Amalaswintha إلى أمير قوطى غربى يدعى إيوثاريك Eutharic ، كان يؤمل فيه الحسافة والنجاعة ، وبني ثيودريك خطته على أساس أن يتقاسم هذا الأمير وزوجته الحكم في المملكة ، غير أن إيوثاريك مالبت أن توفى سنة ٥٢٢ م في حياة ثيودريك تاركاً طفلاً صغيراً في الخامسة من عمره هو أثالاريك Athalaric^(٢) . وقد أدرك ثيودريك أن اعتلاء طفل وامرأة العرش - بعد وفاته - يخطو على خطورة كبيرة ، ولا سيما أن ابن أخيه وثيوداهات Theodahat ، وهو أقرب وريث للعرش ، كان معروفاً بميله للتآمر وبأنه نهال لفرص لا أمان له^(٣) ، وأبدل الخراج المذهبي بين الأيوبيين والكاثوليك ليضيف إلى متاعب هذا الملك المعجوز ويعمل سنواته الأخيرة مليئة بالآلام والمتاعب^(٤) ، وكان ثيودريك قد أظهر تسامحاً جاعاً الكاثوليك في بداية عهده ، وحاول التوفيق بين أتباعه الأيوبيين وسكان إيطاليا الكاثوليك^(٥) ، ولم يلجأ إلى مصاهرة الكنائس الكاثوليكية لصالح قومه ، ولكن الخلاف المذهبي

(1) Omann: op. cit. p. 29

(2) Pirenne: op. cit. p. 64

(3) Helmolt: "Italy" in B. B. VII. pp. 3458-9

(4) Lot: op. cit. p. 251

(5) Cantor. Med. Hist. p. 143

ماليك أن استشرى بين الجانبين ، وأظهر القوط أنهم غير مستعدين للتخل عن
مذهب أسلافهم ، وتبرم الرومان قديما من أولئك الأريوسيين الغربيين^(١) ،
ومع ذلك مرت السنوات الأولى من حكم ثيودريك دون أن يتمسك الصفويين
الجانبين ، ويبدو أن ذلك كان بسبب ظروف العصر نفسه ، فلم يكن الامبراطور
البيزنطي حتمسا الكاثوليكية ، والفرنجية يضربون في وثنيهم ، بينما كان القوط
الغربيون والبرجنديون والوندال أريوسيين^(٢) ، غير أنه حدث أن تبدلت تلك
المنظور ، فاعتنق كلوفس الغربي المسيحية الكاثوليكية سنة ٤٩٦ م وأظهر
إمبراطور بيزنطة تماطفا بالنسبة الكاثوليك سنة ٥١٨ ، وذهب في تماطفه إلى
حد التحالف مع الفرنجية للقضاء على المملكة الأريوسية في إيطاليا^(٣) ، ومن القوط
الغربيون بدرجة سامقة في فوييه سنة ٥٠٧ م وتراجع الملك الأريوسي إلى ما وراء
جبال البرانس فضلا عن تحول البرجنديين إلى الكاثوليكية ، كل ذلك أدى إلى
أن يستبد القلق بثيودريك ، فاعتقد أنه حلفا كاثوليكيا - يجرى تكوينه لمناغمته ،
فسيطر الاضطراب على حكمه في السنوات الأخيرة ، وأخذ في اضطهاد رعاياه^(٤) ،
واعتقد أن الإيطاليين لديهم الاستعداد للانحياز إلى جانب الامبراطور الشرقي
بمجرد أن يفتنى ثيودريك من العرش ويمتل وريثه الطفل^(٥) ، ويسدو له
تلك الفكرة كانت حاسمة إلى حد بعيد ، فلم يكن أغلب رعاياه الإيطاليين ،
برغم تماح ثيودريك وحكمته .. على استعداد لتقبل حكم دولة أريوسية ومك

(1) Grant : op. cit. p. 131

(2) Cantor: op. cit. p. 136

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 452

(4) Heard or & Waley : op cit. p. 29

(5) Cantor. op. Cit. p. 144

منبر إلى الأبد ، فأخذوا يتعجلون اليوم الذي يذبح فيه هذا الملك المجال للغيره
حتى يتسنى لهم وضع حد لحكم هذه الدولة الأريوسية ؛ ويبدو أن مجلس السناقو
كان قد كاتب الإمبراطور الشرق - جستن - سرا في هذا الشأن ، فتصيب هذا في
قيام ثيودريك باضطهاد الإيطاليين وتفجير الصراع معهم^(١) ، وأصدر في سنة
٥٢٣ م قرارا يحرم على الإيطاليين حمل السلاح ، وأعقب ذلك بمثل مشين تعرض
بسيه لوم المعاصرين ، حين اتهم عضو السناقو ورئيس الدواوين بإيطاليا
بويثيوس Boethius بالخيانة والاتصال بالإمبراطورية البيزنطية ، وزج به في
السجن حيث ألف كتابه الشهير *Consolation of Philosophy* الفلسفة
يدافع فيه عن نفسه ويلطخ اسم ثيودريك ، كئبه وهو ينتظر الموت ويماني آلام
المصيبة^(٢) ، ولذا جاء عملا هاما حمل الناس على مناصرة هذا الفيلسوف وكره
ثيودريك ، ثم مالبت هذا أن أمر بضرب بويثيوس بالمرادات حتى أسلم
الروح^(٣) ، ولم يكتف ثيودريك بهذا بل قتل أيضا رئيس مجلس السناقوسياخوس
Symmachus سنة ٥٢٥م ليلحق ببويثيوس وأدواكر ، لتكون هذه الأعمال
أسوأ نقطة في تاريخ ثيودريك ، وتدمع بالوحشية أعماله في أواخر
إياديه^(٤) .

(1) Lat: op. cit. p. 251

(2) Seidlmeier : Currents of Med. thought. (trans. by barker)
pp: 7-8

(٣) ديف: أوروبا في القصور الوسطى ص ٣٦ - ٣٧ .

جوف : اضطهاد الامبراطورية الرومانية وسلطها ج ٧ ص ٣٨٧ .

(4) Oman : op. cit. p: 31

ولقد شارك إمبراطور الشرق حسن الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) في صنع المأساة التي ختم بها ميودريك حياته المخافة ، حين بدأ في حركة اضطهاد عنيفة للأروبيين في الشرق ، فأوغر صدر ميودريك وزاد في حنقه ، فسارع هذا في سنة ٥٢٥ بإرسال صيود خاص هو البابا يوحنا الأول ، لإقناع الإمبراطور بالعدول عن تلك السياسة (١) ، لكن هذا البابا استقبل في القسطنطينية بمفاوة بالغة ، وقام بتتويج الإمبراطور ، ولم يحقق شيئاً مما أوصل من أجله ، فزاد غضب ميودريك وأمر بالزوج به في السجن بمجرد عودته وتوفي في سجنه في نفس العام (٥٢٦ م) بعد أن اعتلى صحته كثيراً (٢) ، ثم مالبث ميودريك أن أصدر أمراً بتسليم جميع الكنائس الكاثوليكية للأروبيين ، في أغسطس سنة ٥٢٦ م ، لكنه لم يلبث أن توفي قبل أن يجرى تنفيذ هذا القرار ، وبدأت مملكته الأروبية تترحم قبل أن تنهار نهائياً (٣) .

ولقد راج كثير من القصص والأساطير حول وفاة ميودريك ، ولاسيما أن وفاته حدثت بعد وفاة البابا يوحنا بقليل ، وقيل إن كثير من الأشباح كانت تصور حول جنازه وتأتي من الأفعال ما يؤكد تعذيب الروح ميودريك (٤) ، ولكن يبدو أن كل ذلك كان مجرد رد فعل لدى المعاصرين انعكاساً لإحساسهم ببهاة ما قام به ميودريك من أعمال ، وتعقياً منها ، ومما يكن من أمر فقد توفي ميودريك سنة ٥٢٦ م ، بعد حكم امتد ثلاثة وثلاثين عاماً في إيطاليا ، واتت عشرة سنة على

(1) Cantor : op. cit, p. 144

(2) Oman : op. cit. p. 31

(3) Camb. Med. Hist. V: II, p. 18

(4) Oman : op. cit, p. 32

أسيابيا ، وكانت عمره حينذاك اثنين وسبعين سنة ، ودفنه القوط خارج باب رافنا في مقبرة كان قد بناها لبل ذلك بسنرات طوبيلة (١).

احتل أمالاسوثا وصغيرها العرش ، بعد وفاة ثيودريك ، فأخذت تحسن علاقاتها مع الإمبراطورية الشرقية وتستميل النصر الروماني في إيطاليا (٢) ، وغيرت سياسة المملكة تجاه مجلس السناو وتلطفت مع الكاثوليك ؛ وحلفت على أبناء بويثيوس وسيباخوس Symmachus ، وأطاعت إليهم أملاكهم ، واستخدموا الزمان من جديد في الوظائف الحكومية وفي الجيش ، حتى إنها عينت ليبريوس - مرة ثانية - في وظيفة هامة مكنته من الوصول إلى إمرة الجيش القوطي (٣) ، ولهذا أظهرت الإمبراطورية الشرقية موافقتها على ذلك وأيدت هذه الخطوات الجديدة. ويبدو أن هذه السياسة قد أغضبت القوط وقد اقترنت بانتشار إشاعة بأن نائبة الملك تبغى تسليم إيطاليا إلى الإمبراطور البيزنطي ، ثم كانت وفاة ابنها أمالريك في سن الثالثة عشرة (٤٥٣ م) أملا جديدا في الزدياد السخط بين القوط ، وأحسفت هي بنقل التبعة واضطراب الأمور ، فزوجت ابن عمها ثيودامات (٤) ، لتسكن من الاستمرار في الحكم ومشاركة الملك الجديد في السلطة ، غير أن ثيودامات أظهر مطامحه الحقيقية في الاستحواذ على العرش والانفراد بالسلطة ، مجرد زواجه منها ، ومالبث أن أمر بنفى أمالاسوثا إلى جزيرة نائية ثم أودف

(1) Camb. Med. Hist. V. I, p. 454

(2) Lot : op. cit. p. 259.

Hodgkin : "The moulding of the Nations" B.H. VII p. 3372

(3) Lot : op. cit. p. 260

(4) Oman : op. cit. p. 29, p. 80

Helmselt: "Italy" B.H. VII, p. 3458

ذلك بقتلها في إبريل سنة ٥٣٥م فقد القوط الشرقيون بذلك ملكتهم وصاروا على أعتاب مرحلة جديدة في تاريخهم^(١)، ولا سيما أن جستنيان تفرغ بهذه الحادثة لغزو إيطاليا وتدمير المملكة القوطية فيها .

جد جستنيان في غزو إيطاليا ، وتحصن بلوارىوس لإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية ، مستنلا ضعف الممالك الأريوسية الأخرى وقاعها عن نجدة أريوس إيطاليا^(٢) ، وكان تحت إمرة بلوارىوس حينذاك جيش صغير لا يكفي لإتمام هذا المشروع لم يكن يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، ومع هذا نزل بلوارىوس في صقلية في سبتمبر سنة ٥٣٥م ، فلقى ترحيبا شديدا من أهلها ، وأعلن البابا سرورده بمقدم القوات الإمبراطورية ، على حين خذل الإيطاليون حكمهم القوط^(٣) ، واستولى بلوارىوس على صقلية وأخذ في إعداد العدة للنزول بجنوب إيطاليا ، ولم يكن الملك ثيوداهات في موقف يسمح له بمحصد مقاومة حقيقية ضد الإمبراطورية الشرقية ، بل إنسه كان أقرب إلى الرومان منه إلى القوط ، فقد ربي تربية رومانية ، وأحب الأدب والعلوم الرومانية وأذريه المجندية^(٤) .

نزل بلوارىوس في إيطاليا في نهاية سنة ٥٣٦م ، فاستولى على نابلي ، ثم دخل روما وسط ترحيب الأهالي ومظاهر فرحهم ؛ في وقت كره الإيطاليون فيه

(1) Piranesi : op. cit. p. 42, pp. 64-5

(2) Oman : op. cit. pp. 80-81

(3) Canter. Med. Hist. p. 161

(4) Diehl : Justinian et la Civilization byzantine au VI^e Siècle. p. 182

حكامهم القوط لأريوسيتهم من ناحية ولأنهم غرباء على البلاد من ناحية أخرى، وبدا كأن الاستيلاء على إيطاليا لم يصبح سوى مسألة أيام قليلة، وربما أسرع مما حدث في شمال إفريقيا (١). غير أن ذلك لم يكن سوى مبالغة في التفاؤل، فقد أظهر القوط مقدرة وكفاية في الدفاع عن البلاد، واستبسالاً عظيماً في الحرب، أكثر مما أظهر الوندال، إذ بادروا بخلق ملكهم المهزوم ثيودامات وجرده من سلطاته الملكية، وأقاموا بدله ضابطاً من أصل متواضع، ولمكنه في غاية الفجاعة - ويدعى وتيجيس Witigis - كان قد أبلى بلاء حسناً في الحروب ضد الجياداي (٢)، ولهذا استغرق استعادة إيطاليا نحو ثمانية عشر عاماً، اندلعت فيها حروب ضارية ومعارك صروعة، ذاق فيها الجيش الإمبراطوري كثيراً من الأهوال والمضائق وأبدى فيها القوط كثيراً من ضروب الفجاعة والإقدام (٣).

بادر وتيجيس بمحاصرة بلزاريوس في روما لأول مرة في مارس سنة ٥٢٧م، حيث تحصن القائد الروماني ومعه نحو خمسة آلاف مقاتل، ولكن وتيجيس اضطر إلى الارتداد وفك الحصار عنها بعد نحو عام كامل أمام نجاح بلزاريوس في الدفاع عن المدينة وعن المقاومة الرومانية (٤)، غير أن جيشاً بنظيرها ثانياً نجح في الاستيلاء على شمال إيطاليا، وفي سنة ٥٤٠م لعبت الحياة دورها في وضع حد للنشاط وتيجيس فتم القبض عليه وسلم البيزنطيين وأرسل إلى القسطنطينية حيث عومل

(1) Lot : op. cit. p. 260

(2) Helmolt : op. cit. p. 3459

(3) Hodgkin : op. cit. p. 3372

(4) Oman ; op. cit. pp. 84-7

عمامة كريمة ، وتقدم بلاذريوس فاستول على رافا وبسط سلطانه على أقاليم
إيطاليا الوسطى والجنوبية (١)، ويدور أن جسنيان اعتقد حينذاك أنه قد
إيطاليا وحقق أهدافه فيها ، فسحب بقايا جيوشه وأعادها إلى الشرق . غير أن
القوط مالبثوا أن عادوا من جديد إلى المقاومة بعد أن استقر رأيهم على اختيار
توتيلّا Totilla ملكا عليهم سنة ٥٤١هـ (٢)، وكان توتيلّا حارباً قذا حاز الإصحاب
دون ملوك القوط في تلك الفترة وجمع بين كثرة من الفضائل ، فكان كريماً عطوفاً
ورجل دولة حكماً ، منع للمذابح التي كان القوط يمدنونها في النساء والأطفال عند
عند المهرجومات على المدن وحال بين قومه وبين القيام بالإرهاب والسلب في الأقاليم
الريفية (٣)، وأصبح مثلاً فريداً القروسية الحقة في ذلك الوقت المليء بالفساد
والمذابح ، فضلاً عن أنه لم يحمل المبدأ للإمبراطورية البيزنطية هدفاً من أهدافه ،
وإنما حاول التفاوض معها ، وعرض الاستسلام التام عند اختياره ملكاً ، ولما
تلكت الإمبراطورية في إجابته ، وتم اختياره ملكاً فضلاً ، لم يعد أمامه سوى
التفكير في إلقاء شبه من العمار (٤).

ولقد جمع توتيلّا جيش لا يزيد عنده على عشرة آلاف مقاتل ، في إلحاق المعركة
بجيش بيزنطي قوامه اثنا عشر ألف جندي قرب فانوا Fanza ، قسم فصل شمال
إيطاليا عن سلطة البيزنطيين ، ثم أحرز توتيلّا نصراً كبيراً في مجيئو Mugillo

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 65

Camb. Med. Hist. V, II, pp. 12-13

(2) Pirenne : op. cit. p. 60

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 439

(4) Lot : op. cit. p. 261

في تسكاليا ترتب عليه استيلاء القوط على أواسط إيطاليا^(١)، وفي ربيع سنة ٤٤٣ كان ثوبيلاسيد مدينة نابلي وجنوب إيطاليا فهجمه هذا إلقاء الحصار على روما، ولهذا أرسل بلوازيوس يطلب النجدة، فلم يحصل على معاونة تذكر نظرا لقلة الفرق العسكرية المستعدة وما للقتال، فعزل بلوازيوس في التصدي القوط وفتحهم روما أبراجها لثوبيلاس في ديسمبر سنة ٤٥٦م^(٢) بعد مفاقمة تحملها القوط. ولقد فكر ثوبيلاس وهو في قمة غضبه في القيام بتدمير روما وبسويتها بالأرض، لولا أن اقنعه ممثل بلوازيوس بالمدول عن ذلك ليشاعة هذا العمل وتحمله كافة المسئوليات المترتبة عليه^(٣)، وشرح الملك القوطي بعد ذلك في فتح بقية إيطاليا؛ فأضافه إلى أملاكه صقلية وسردينيا وكورسيكا، وكون أسطولا استطاع أن يهاجم به سواحل دالماتيا وإبروس، واتخذ ثوبيلاس روما عاصمة له ودانت له إيطاليا أكثر عما دامت لبيزودريك العظيم، وبدأ كان أعمال جستنيان قد انهارت تماما^(٤)، غير أنه جستنيان بذل جهدا مضاعفا في إيطاليا، واختار قائدا آخر كانت له شهرة ذائعة في ذلك الوقت هو نارسيس ليحل محل بلوازيوس، وكان نارسيس خصيا أرمينيا اشتهر بالمقدرة الحربية والكفاية السياسية فضلا عن مرونة فائقة في معالجة الأمور^(٥)، وكان نارسيس في الخامسة والستين من عمره لكنه كان مليئا بالنشاط والحس، وأمل فيه جستنيان تحقيق ما فشل بلوازيوس في

(1) Oman : op. cit. pp. 99-100

(2) Pirenne : op. cit. p. 67

(3) Dishl : op. cit. p. 196

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 65

(5) Lot op. cit. p. 282

Bussay : op. cit. p. 18

تحقيقه ، وأمدد بجيش كان يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألف مقاتل .

قرر نارسيس أن يختار دالماتيا قاعدة لعملياته العسكرية ، وفضل أن ينزل برا في شمال إيطاليا ليبدأ في استعادة البلاد من القوط (١) ، وتربط على طول تلك الجيوش البيزنطية الكبيرة أن اتزعج توتيل ، وعرض أن يسترق بقلبيته للإمبراطور ، وأن يدفع الجزية له ، إلا أن جستنيان رفض ، وتقدم نارسيس مباشرة من رافنا متجها نحو الجنوب ، وفي نفس الوقت تقدم توتيل من روما للقائه ، وحدثت المعركة ، في تادينو Tadinoo ، وقاتل توتيل جيشا يفوق جيشه عددا وعدة ، إذ ضم نحو ألفين وخمسة مائة من اللباردين قدموا من بانوينا بقيادة ملكهم أدوين (٢) ، وكان نارسيس قد استطاع أن يفرضه بمبلغ كبير من المال نظير هذه المعونة ، كما ضم كثيرا من الجماعات والقبائل والمجند المرتزقة من أطراف إيطاليا وما حولها ، حتى أصبح هذا الجيش حلفا كبيرا موجها لحرب القوط وليس بجيشا واحدا ، ويرجع الفضل في ذلك إلى مهارة نارسيس ونجاحه في جذب كثير من المحاربين الأشداء إلى صفوفه جيشه (٣) ، وشكل الفرسان القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الجيش بأسلحتهم المتفوقة واندفاعهم الشديد ، ولهذا انهارت دفاعات القوط عندما حدث الاشتباك في ربيع سنة ٥٥٢م ، واختزلتها جيوش نارسيس وخرج توتيلاجرحا قاتلا (٤) ، وأرغم القوط على التفتت فارتدوا لمحاولة لمشتتهم واستخدام مناوراتهم للمهودة ، وفي باقي اختار القوط ملكا جديدا عليهم هو

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 65

(2) Let: op. cit p. 262

(3) Ibid. pp. 262-3

(4) Omsa: op. cit p. 103-4

تياس Teias وعادوا للقائمة . إلا أنهم هزموا من جديد على يد نارسيس في كابانيا ثم لقي تياس حتفه في النهاية سنة ٥٥٣ م بعد أن حارب حربا باسلة وقاتل قتال الأبطال ، وانتهت ملكة القوط الشرقيين بإيطاليا^(١) على الرغم من أن القوط استدعوا في العام التالي (٥٥٤ م) الفرنجة والألمان لمساعدتهم ، فنزل هؤلاء في إيطاليا وبدلاً من أن يقدموا مساعدتهم لمملكة القوط للشمالكة أخذوا في نهب الأموال من الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، ثم مالبت أن انتشرت بين جيرانهم الأوبئة والأمراض ، ودفعتهم القوات البيزنطية إلى كابسا Capua خريف سنة ٥٥٤ م ففشلت هذه النجدة ولم تحقق أهدافها ، وأدى ذلك إلى استسلام نحو سبعة آلاف من القوط كانوا قد هربوا إلى غابات الأبين وانخفروا بها ، إذ عرضوا خدماتهم على الإمبراطورية وأبدوا استعدادهم لمعاونتها ، فقبلوا إلى بلاد فارس^(٢) سنة ٥٥٥ م ، وهكذا اختفت ملكة القوط الشرقيين بإيطاليا وزالت نهائياً من صفحة التاريخ ، على الرغم من أن بعض الحاميات القوطية ظلت تتمسك بأماكنها في بربسكيا وفيرونا في الشمال وتقاوم مقاومة باسلة امتدت إلى سنة ٥٦٣ م حين تم القضاء عليها^(٣) ، واعتبر نارسيس محرر مدينة روما وعطس إيطاليا كلها من الجرمان^(٤) ، كما اعتبر جستنيان رسول الحرية والسلام وباعث مجد روما ومحرر أهلها من الاستعمار ، على الرغم من أن حروبه في إيطاليا أدت إلى إعادة

(1) Hodgkin op. cit. p. 3372

(2) Pirenne : op. cit. p. 67

(3) Oman: The Hist. of the art of war p. 34

(4) Hearder & Walsey : op cit. p. 29

مقارب الساعة من جديد إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كما أدت إلى
تدمير اقتصادياته البلاد وإلحاق مواردها ، وأحدثت كثيرا من الخراب
والدمار فيها (١).

(١) Cantor : *op. cit.* p. 161

الفصل الثامن

مملكة الفرنجة في غالة

كلوفس وتأسيس المملكة الفرنجية - سياسة كلوفس في غالة - تحوله إلى الكاثوليكية - أثر احتياق الفرنجة للكاتوليكية - علاقات كلوفس بكل من البرجنديين والقوط الغربيين - وفاة كلوفس وتقسيم المملكة بين أبنائه الأربعة - إعادة توحيد المملكة على يد لوثر الأول سنة ٥٥٨م - أحوال المملكة بعد وفاة لوثر حتى احتلاء داجويرت العرش سنة ٦٢٨م - عهد داجويرت (٦٢٨ - ٦٢٩) - النزاع بين مستريا وأستراسيا وظهور رؤساء البلاط - سبوت الثالث في أوستراسيا (٦٢٨ - ٦٥٦م) وكلوفس الثاني في مستريا - إزياد قوة رؤساء البلاط في أقسام المملكة - بين الصنيد (الثاني) أو بين مرستال (٦٨٨ - ٧١٥م) - شارل مارتل (الطقرة) (٧١٥ - ٧٤١م) - سياسته الخارجية واتصافه على المسلمين في تور - برأيه سنة ٧٢٢م - نتائج هذا الانتصار - علاقته بالكنيسة الغربية - بين التصعيد (الثالث) (٧٤١ - ٧٦٨م) - سياسته تجاه الكنيسة - إنهاء عهد الميروفنجيين وتأسيس آل الكارولنجي - سياسة بين الخارجية - حضارة الميروفنجيين - خصائص المملكة الفرنجية - المجتمع العالي على عهد الميروفنجيين - التنظيمات السياسية - الإدارة المحلية - القضاء - السياسة الدينية - النظم الاقتصادية والمالية - الجيش .

بدأ الفرنجة تاربخهم في حالة سنة ٤٨٦ م ، بزعامة كلوفس ، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بنحو عشر سنوات ، وكان الفرنجة السالون قد استقروا على الضفة الغربية لنهر الراين ، وهدموا دورهم عالفين ومصادين للإمبراطورية الغربية منذ القرن الرابع (١) ، وبهذه الصفة شارك الفرنجة الرومان في صد الهون تحت قيادة القائد الروماني الشهير إتيقيوس في منتصف القرن الخامس الميلادي (٢) ، على حين ظل الفرنجة الريبواريون قاطنين فيما وراء الراين ، وبشوى كلوفس زعامة الفرنجة السالين سنة ٤٨١ ، بعد وفاة والده شلدريك ، بدأت فترة هامة في تاربخ ذلك الشعب الجرمانى (٣) . ولم يكن كلوفس قد تجاوز الخامسة عشر من عمره حين احتل العرش ، ومع ذلك فقد بدأ نشاطه في حالة بتوجيه ضربة ساحقة لسيانجريوس الذى كان يمثل الأوستراقية الرومانية القديمة ويتخذ من سواسون عاصمة له ، فأزل به كلوفس هزيمة ساحقة وقضى على آخر أثر السلطة الرومانية فى الغرب سنة ٤٨٦ ، ونقل عاصمته إلى باريس (٤) .

ترتب على انتصار كلوفس قرب سواسون ، أن استولى على أموال الخزانة الرومانية ، ولال من الغنائم ما جعله يبدو سخيا مع كبار أتباعه وزعامه قومه ، فضلا عن استيلائه على الأراضى المسماة ، التى تغطى عنها السلطات

(1) Heyek : " Rise of the Frankish dominion " in B. H. VII. pp. 3471-2

(2) Lot : op. cit. p. 214

(3) Oman : op. cit. p. 58

(4) Lot : op. cit. p. 316,

الرومانية المهزومة، ولهذا لم يضطر الفرنجة إلى نزوح الملكيات الخاصة أو إلى اقتسام الأراضي مع الأهالي مثلاً فعل القوط الغربيون أو البرجنديون في غالة^(١) غير أن كلوفس هب في سنة ٤٩٦م لنجدة أقاربه من الفرنجة البريين (الريواريين) فيما وراء نهر الراين، ضد قبائل الألمان، ونجح كلوفس في سحق جموعهم، ومد نفوذه إلى ما وراء نهر الراين، ويشتبه بعض المؤرخين اقتصاد كلوفس على جموع الألمان نقطة تحول خطيرة في تاريخ الفرنجة في تلك البلاد^(٢)، ففي تلك المناسبة تحول كلوفس إلى المسيحية الكاثوليكية، إذ تشير الروايات إلى أنه ابتلى أثناء تلك الأزمة، وقبل الموافقة الفاصلة، إلى إله زوجته النقية بهذه الكلمات: «لقد دعوت آلهتي ولكنهم لم يستجيبوا لي، فأليك الجسماء وبك سأومن إذا أحرزت النصر على يدك»^(٣)، فبر كلوفس بوعده وتحول عن وحيته إلى الكاثوليكية، وتم تمييده ليصبح عضواً هاماً في الجالية الكاثوليكية، ومقدّم آمال رجال الدين الغالين^(٤). ولا شك أن اعتناق الفرنجة السالين الكاثوليكية، قد أعطى على نتائج باهرة بالنسبة لمحكمتهم، وحل في ثنائه بدور التاريخ الأوربي الغربي^(٥)، فقد منحت الكاثوليكية هذا الشعب المتبربر فرصة للامتزاج بالسكان الرومان، وطوت ما بين الأهالي والمتبربرين من كراهية، وشجعت على حلول التعاطف والتعاون بينهم، وكففت التحالف بين ملوك

(1) Cantor : Med. Hist. pp: 148-9

(2) Lot: op. cit. p. 317

Grant ; op. cit; p. 139

(٣) نصر : قصة ص ٤٢ .

(4) " Gregory of Tours : Frankish government and society in Med. World by cantor, p, 80

(5) Heyek ; op. cit, pp, 3473-4

الفرنجة والكنيسة الغربية ، وهو التحالف الذي عدا بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ غرب أوروبا قاطبة (١) ، كما قرب على هزيمة الألمان أن سار الاتصال قائما بين الفرنجة في حالة وموطنهم الأصل فيها وراء الراين ، واشتد الطابع الجرمانى لمملكة الفرنجة وأوقف تيار التوسع للعناصر الجرمانية نحو غالة ، وانفتح الطريق أمام الفرنجة ليلعبوا دورا خطيرا في تاريخ غرب أوروبا (٢) .

غير أن الخلاف المذهبي مالبث أن أثار الكراهية بين هؤلاء الكاثوليك المهدد وغيرهم من البرمان الأريوسيين في غالة ، من البرجنديين والقوط الغربيين ، ففى سنة ٥٠٠ م تحول كلوفس إلى البرجنديين لإخضاعهم ، وعلى الرغم من أنه أزال هزيمة بملكهم جندوباد عنه أفيتون ، وأجبره على الحرب إلى أبعد نقطة في مملكة جهة الجنوب ، فإنه فعل في اقتحام المدينة التي تحصن بها ذلك الملك المهزوم وأخفق في القضاء التام على مملكته ، واضطر إلى العودة إلى عاصمته بعد أن حقق نجاحا جزئيا في حملته (٣) ، ثم مالبث ملك برجنديا أن تحول إلى الكاثوليكية وأقر بدفع جزية للفرنجة مع إظهار عزم أكيد على التصدى لمحاولات كلوفس ضد بلاده ، ولما خضع إلى حد كبير حدة العداء بين الجانبين وانصرف كلوفس عن برجنديا إلى تحقيق أهدافه في جنوب غالة وأسبانيا (٤) . فقد التفت

(١) نصر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في ١ ص ٣٦ ،

Gies: op. cit. p. 61

(2) Cantor ; Med. Hist. pp. 146-8

(3) Lot: op. cit. p. 318

(4) Pirenne : op. cit. p. 39

كلوفس في سنة ٥٠٧ م إلى القوط الغربيين ، ونجح بفشل تحالفه مع البرجنديين ، في إزال هزيمة ساحقة بملك القوط الغربيين ، ألياريك الثاني ، عند فوييه وقتله يده ، واستولى على عاصمته تولوز وجعلها طعمية للنيران ، واستأنف مع ملك البرجنديين بما فيها من كنوز القوط الصغيرة ، وقلد بقايا القوط إلى ما وراء جبال البرانس ، وسمح لهم أن يسيروا هناك في سلام ، بعد أن تغلوا عاصمتهم إلى طليطلة (١) ، وانجلى هذه الأحداث عن تطهير غالة من الأريوسيين فيما عدا إقليم سبتانيا الصغير ، الممتد على شاطئ البحر المتوسط فيما بين جبال البرانس ونهر الون ، على حين خرج ملك البرجنديين ، جندوباد ، من هذه الغنيمة بمدينة ناربرون (٢) ، وحاز ثيودريك العظيم - وكان قد هب لمساعدة أقاربه في جنوب غالة - إقليم بروفانس الغني وحمله إلى أملاكه في إيطاليا (٣) ، وبهزيمة القوط الغربيين سنة ٥٠٧ م امتد سلطان الفرنجة من نهر الروار إلى جبال البرانس ، لكن كلوفس تمكن قبل وفاته في سنة ٥١١ م من توحيد الفرنجة السالين والريوارين تحت زعامته ، وصفى بقايا الأملاك الرومانية في غالة ، وجعل مملكته متحد من صفى الراين إلى جبال البرانس باستثناء إقليم بروفانس وسبتانيا ، وحصل من إمبراطور الشرق ، على اعتراف بشرعية حكمه وبنيابته منه في الحكم وبمرتبة البطركية (٤) .

وشغل كلوفس في أيامه الأخيرة بالتقضاء على الأسرات الفرنجية المنافسة ، والحصول على ولاء قومه كافة ، وتوفي بعد عهد امتد قرابة ثلاثين عاما ، قضاها

(1) Oman : op. cit. p. 62-63

(2) Lot : op. cit. p. 319

(3) Camb: Med. Hist. V. I. p. 484

(4) Keen : A hist. of Mod. Europe, p. 5

في التقوى والورع وإبتغاء مرضاة الله على قول المؤرخين المعاصرين ، فقل الرغم عما اشتهر به كلوفس من العرامة والحيل لسفك الدماء ، فقد جرى اعتباره أداة الله لخدمة الدين (١) : « لقد بارك الله في مملكته بالتوسع كل يوم ، لأنه سار بقلب نقي مستقيم ، وقام بأعماله إبتغاء مرضاة الله » ، وأنه لم يفعل كل ما فعل إلا خدمة لله ، وأنه لم يفعل إلا ما يعتبره حقاً وصدقاً ، ولا سيما أن قومه تبعوه واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية وصاروا أداة طيعة في يده لخدمة الكنيسة الغربية (٢) .

على أن كلوفس اتجه في وراثة العرش طريقاً أعطى المملكة الفرنجية طابعاً يختلف عن بقية ممالك الجرمان بغرب أوروبا ، فقد لجأ إلى تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة ، كما لو كانت إرثاً خاصاً ، ليأخذ كل منهم حاضرة له في قسمه الخاص ، في إطار دولة فرنجية كبيرة ، فندت من أووليان وباريس وسواسون مثل عواصم الأقسام الأربعة (٣) ، وراعى في اختيار هذه العواصم أن تكون متقاربة حتى يمكن أن يسرع الملوك بجيوشهم لمداومة أحدهم إذا تعرض للخطر ، ولم يفتر حماس أولئك الملوك بعد وفاة كلوفس ، فصرعان ما مدوا نفوذهم في الجهات المجاورة ، وحاربوا القبائل الضاربة فيما وراء نهر الراين (٤) ، وعلى الرغم من أن أحدهم وهو لوثر الأول استطاع توحيد المملكة الفرنجية من جديد سنة ٨٥٨م متبرداً فرصة وفاة أخوته الثلاثة ، فإن هذه المملكة ما لبثت أن تعرضت لتقسيم

(١) هيجز ، نفس المرجع ص ٨٢ .

(2) Heyck : op. cit. p. 3474

(3) Lot : op. cit. p. 324

(4) Ibid. pp. 325-6.

من جديد ، عقب وفاد لوثر الأول سنة ٥٦٩ ، بين أبنائه الأربعة أيضا ، إذ حاز كل منهم جزءا من المملكة على أنه ميراث خاص به (١) ، وفي هذه المرة ووعيت بعض الاختلافات بين أجواء المملكة ولاسيا تجاهن السكان والاختلافات التاريخية السابقة ، وغير ذلك ، ولكن بقيت المراكز كما هي ، وظهرت أوستراسيا متضمنة الجزء الشمال الشرقي من غالة وبلاد الراين ، ومستريا بشمال غالة ، وبرجنديا وأكوتين في جنوب غالة ، ورغم هذا التفتت تميزت الفترة الممتدة بين وفاة لوثر سنة ٥٦٩ ووفاة الملك جنترام Guntram سنة ٥٩٣ م وهي تزيد على ثلاثين عاما ، بأنها كانت من أهم فترات حكم الفرنجة للميروفتجين ، وقد أسهب جريجوري التوري في الحديث عنها وخصها بكثير من اهتمامه ، واعتبرها فترة ازدهار ورخاء في حياة مملكة الفرنجة (٢) ، وظلت المملكة مقسمة إلى أن اتحدت من جديد سنة ٦٩٣ م ، وعاشت حتى سنة ٦٣٨ م مرحلة جديدة وهامة في تاريخها وفي تاريخ الميروفتجين (٣) .

ولاشك أن عادة تقسيم المملكة الفرنجية ، لو أنها اتبعت بدقة ، لادت إلى انحلال المملكة الفرنجية وزوالها إلى غير رجعة ، ولكن انصر أثرها على إضمار للمملكة وازدياد اضطلالها ، لا كان يحدث عقب كل تقسيم من حروب أهلية وتطاحن بين الإخوة ، وهي حروب استفذت جابا كبيرا من نشاط الدولة ومن طاقتها (٤) ، ولهذا لم يفرغ خلفاء كلوفس لتوسيع رقعة المملكة ، ومدة

(1) Cantor : op. cit. p. 149

(2) Lot : op. cit. p. 328

(3) Omsa : op. cit. p. 178

(٤) ديجر : خمسة من ٤٤

Renouf : Outlines of General Hist. p. 181

Gregory of Tours. op. cit. in Med. World. p. 81

نغزوها في الجهات المجاورة ، وخلال الخمسين سنة التي تلت وفاة كلوفس لم يحدث سوى انتحاح البرجنديين وبعض القبائل الصاربة على تخوم المملكة مثل البافاريين والثورنجيين ، ولجأ هؤلاء الخلفاء إلى شراء إقليم بروفانس من القوط الشرقيين نظير ما عدهم حرسيا ضد جستنيان ، ولم ترق لهم عين إلا بعد أن اعترف جستنيان بملكية الفرنجة لهذا الإقليم^(١) . والواقع أنه لم يتم في حكم الميروفنجيين حتى سنة ٦٣٨ م ملك يجذب الانتباه سوى داجوبرت الأول (٦٢٨ - ٦٣٩ م) ، وهو الذي قوى استحكامات الجبهة الشرقية ، وتمقب الثوار وفرغ من ميثه على السكسون^(٢) ، وعقد صلحا مع الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٣١ ، وأخضع البريتون في شبه جزيرة أروموزيكا في غالة ، وكان فوق ذلك دينا اهتم بإقامة الأديرة وظل بعضها يحمل اسمه مدة طويلة^(٣) ، وباستثناء ذلك لا نجد في أعمال الميروفنجيين الاوائ حتى قيام رؤساء البلاط في أقسام المملكة الكبرى : أستراسيا ومستريا وبرجنديا سوى القليل^(٤) ، إذ لم يبدل الميروفنجيون الأوائل بمجهودا طيبا لحفظ مظاهر الحضارة الرومانية ، والقانون الروماني أو الالتزام بالنظريات النيباسية الرومانية والادارة ، ولهذا ليس من المنالاة في شيء القول بأن غالة قربرت على يد الفرنجة مريما ، بسبب قصور الميروفنجيين وقلة كفايتهم ولدينا دليل حتى على ذلك من واقع كتابات شخص ينتمي إلى القرن السادس هو

(1) Pirenne : op. cit. p. 65, p. 68, p. 189

Lot : op. cit. p. 265

(2) Heyck : op. cit. p. 3475-6

(3) Lot : op. cit. pp. 333-4

(4) Oman : op. cit. pp. 158-9

بريجورد التوروي ، وهو من عائلة غالية - رومانية ، وكانت له صلة وثيقة
ببيس كلوفس (١) ، ولكن مع ذلك فإن ملكة الفرنجة في غالة كانت المملكة
الوحيدة - بين ملك الجرمان - التي كتب لها البقاء والاستمرار داخل حدود
الإمبراطورية الفرنجية ، والمملكة التي ساهمت فعلا في صنع جباب غسير مثيل
من تاريخ غرب أوروبا .

مرت ملكة الفرنجة اذن ، في الفترة بين وفاة كلوفس سنة ٥١١ م ونهاية عهد
داجويرت سنة ٩٢٩ م بأحداث متلاحقة ، قسمت خلالها إلى ثلاثة أقسام هي
أوستراسيا وإوستريا وبرجنديا ، وطالبت الملك الثلاث - بعد عهد داجويرت -
بحق كل منها في إدارة منفصلة ولو كانت تخضع للملك واحد (٢) ، وأعيد توحيدها
أكثر من مرة ، واندلست إبانها الحروب الأهلية والنزاعات الداخلية ورن على
الدولة ضعف والاضلال (٣) . وعلى الرغم من ذلك ظل البيت الميرفنجي باقيا على
العرش ، لما انصف به أبناء كلوفس وسلالته من عظمة المهابة والاحترام فضلا
عن أنهم لم يكتفوا في نظر شعوبهم ملوكا فحسب ، بل كانوا كهيئة كذلك ، ومما
ارتكبوا من منكرات فإنهم مقدسون لا يهرق أحسد على تقدم ، بالإضافة إلى
ما نعموا به من عطف الكنيسة الكاثوليكية (٤) ، ولهذا ظلوا أكثر من ثلاثة
أرباع قرن من الزمان ، ينصبون على العرش وتوضع على رؤوسهم التيجان

(1) The Med. World, by Cantor. p: 78

(٢) ديز : أوروبا في العصور الوسطى ص ٤٠ .

(3) "Gregory of Tours, Hist. of the Franks" in the Med
World, by Cantor, pp,80-1

(4) Lot : op. cit. p, 337

وتقدم إليهم فروض طاعة والولاء ، بسد أن صاروا أطبافا ملكية واهية ، وأضحى السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء البلاط (١) . والواقع أن الفترة التي تلت وفاة داجوبرت انصفت بنصف سلطة الملوك وازدياد قوة النبلاء ، وازدياد نفوذ الكنيسة وكثرة ثروتها وانفاسها في السياسة الديمقراطية ، وتدهور السلطة العامة (٢) ، وانفلاتها في صورة امتيازات عليا منحتها الملوك لثوابهم وصنائعهم أو اغتصبها أولئك الثواب لأنفسهم فأدى ذلك إلى شياع هيبة الدولة وسلطانها تماما (٣) ، والدلاع الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية ، التي غذت قاعدة عامة حتى سنة ٦١٣ م ، ثم أصبح تاريخ الفرنجة بعد ذلك حتى ظهور شارل ماثل سنة ٧١٤ ، يمثل تاريخ النزاع بين العائلات الكبرى في فرنسا وأستراسيا اللورد بمركز رئيس البلاط (٤) .

احتل سيجبرت الثالث Sigibert III ابن داجوبرت (٦٢٨ - ٦٥٦ م) عرش الفرنجة في أستراسيا ، وكان في الثامنة من عمره ، فأصبحت السلطة الحقيقية في يد رئيس البلاط ، ولم يستطع هذا الملك حتى بعد بلوغه الرشد أن يستعيد السلطة من خادمية ، وقد كان أخوه كلوفس الثاني تولى عرش فرنسا تحت وصاية والدته وهو في السادسة من عمره ، ولعب رئيس البلاط هناك أيضاً ، دورا لا يقل عن دور زميله في أستراسيا . وهكذا أصبح تاريخ الميرفنجيين مرتبطا برؤساء

(١) نفس : نفس المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠ ،

Cantor : Med. Hist. p. 146

(2) Hoyek : op. cit. p. 3478

(3) Firenze : op. cit. p. 158, p. 191

(4) ديتز : نفس المرجع ص ٤٠ .

البلاط ارتباطا كاملا^(١)، وحين توفي سيجبرت الثالث سنة ٦٥٦ م وهو في السابعة والعشرين من عمره تاركاً ابناً صغيراً في الثانية من عمره، قام رئيس البلاط في أوستراسيا جريموالد gremold بنفى الطفل الصغير إلى دير إيرلندي ليصبح راهباً، ونصب ابنه هو ملكاً على أوستراسيا وحياء بنحية الملك^(٢) غير أن الوقت لم يكن مناسباً لطرده سلافة البيت الميرفتجي، وإحلال بيت آخر عنه، فخلال كثرة أعداء جريموالد ومنافسيه، ولهذا سرعان ما تكالب بلاء أوستراسيا على جريموالد، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى باريس حيث أعدهم كلوفس الثاني ملك لستريا^(٣)، و زاد من سوء الأحوال في دولة الفرنجة حينذاك وفاة كلوفس الثاني بعد أشهر قليلة، تاركاً ابناً صغيراً لتصبح أقسام المملكة كلها خلوا من ملك يستطيع جمع كلمة الفرنجة ويوحد جهودهم، فأدى ذلك إلى تحكم رؤساء البلاط من جديد، وفي هذه المرة برز إبروين Ebroin رئيس بلاط لستريا (٦٦٠ - ٦٨٨ م)^(٤).

غير أنه إبروين أثبت أنه طاغية من الدرجة الأولى، ورجل قاس يفتر إلى الرحمة والعطف، فقد قتل وسحق وتآمر، وأمسك بزمام السلطة برباطة الجأش في ملكة الفرنجة كلها، وقاد الجيوش وقضى على المناوئين ولا سيما في ملكة أوستراسيا. فلجأ بلاء أوستراسيا إلى تنصيب أحد أفراد بيت رؤساء البلاط

(1) Oman : op. cit, pp. 256-7

(2) Lot : op. cit. p. 337

(3) Oman : op. cit. pp. 256-7

(4) Pirenne : op. cit, p. 195, p. 200

القديم ويدعى بين الصغير (الثاني)^(١) ، وعلى الرغم من نجاح إبرووين في إزاحة هزيمة بيمش أوستراسيا في لافو Lafaur فإنه مالبث أن اغتيل على يد أحد أهواله سنة ٦٨٠ م ، لتنتهي سيادة لستريا وتعود من جديد سلطنة أوستراسيا^(٢) ، فبعد حروب أهلية امتدت أكثر من سبع سنين حدثت معركة تستري Testry سنة ٦٨٧ (ترتري Tertry) ، مصير مملكة الفرنجة ، حين هزمت تستريا على يد فرنجة الشرق بقيادة بين ، وأجبر ملك تستريا على إجابة مطالب بين وأوستراسيا^(٣) .

سازت أوستراسيا الغلبة إذ في هذا الصراع ، في أواخر القرن السابع ، ويرجع ذلك في الحقيقة إلى أن رئيس بلاطها كان يوسعه أن يضم من الاتباع ما يريد على ماله منافسه في لستريا وبرجنديا ، فقد كانت أوستراسيا تمثل الشطر الشرقي من للملكة الواقع شمالي جبال الألب^(٤) ، حيث توافست الأراضي الفاسحة سواء غطتها الغابات أم كانت أراضي مهجلة ، وبفضل ما تبتأ لهذه الثنائية من رؤساء بلاط لفظين ، جرى استصلاح مساحات شاسعة من أراضيها ، وإلغاء قرى جديدة ، واجتذاب للزارعين وتبيث الفرص الطموحين وراغبى الثروة من الأدواق والكوكبات^(٥) ، في الوقت الذي اعتمدت فيه الأجزاء الأخرى على وراج التجارة ونشاط المدن ، فلما تداعت التجارة وتدهورت مكانة المدن في

(1) Cantor : Med. Hist. pp. 207-8

(2) Lot : op. cit. p. 340-1

(3) Grant : op. cit. pp. 140-1

(4) Lot : op. cit. p. 342

(5) Heyck : op. cit. p. 3478

نستريا وبرجنديا ، حلزت أوستراسيا الغلبة (١)، واجتذبت الاتباع الذين ساندوا
رئيس بلاطها وآذروه في حروبه ، وفي امتزاج الغلبة لهذا الشر من المملكة ،
هذا فضلا عن غلبة الصفة الجرمانية ، وغلبة المنصر الجرمانى على المنصر الفئال
الرومانى من الناحية المددية في هذا القسم من المملكة الفرنجية (٢) . أصبح بين
الثانى - الذى عرفه بين هريستال - رئيسا البلاط في المملكة كلها ، فاتخذ مستر
Metz مقرا له ، وغسدا بيت بين منذ ذلك الوقت أم كثيرا من البيت الميرونجى
المالك ، كما غلب الطابع الجرمانى على هذه المملكة ، منذ ذلك الوقت ، أكثر من
الطابع الفئال - الرومانى ، فأصبح مركز المملكة حول أوستراسيا ومتروآخن
وكولونيا ، وليس حول نستريا وسواسون وباريس وليون (٣) ، وبقي بين
رئيسا البلاط مدة تقرب من سبعة وعشرين عاما (٦٨٨ - ٧١٥ م) ، بدل خلاها
جهدا صادقة لإقالة المملكة الفرنجية من شراتها وتجنبيها النزاع الداخلى والحروب
الاهلية التى شهدتها طوال خمسين عاما (٤) ، فضلا عن محاولة إعادة حدود المملكة ،
إلى ماكانت عليه أيام داجوبرت الأول ، بعد أن انتهكت هذه الحدود في كل
الجهات (٥) ، فقد صرف بين جانبا كبيرا من جهته لمساعدة الفرنجيين ، الذين
أغاروا - من مصب نهر الراين - على وادى السالف والميز ، وأجندوا الجزاء

(1) Hirsman : op. cit. pp. 197-8

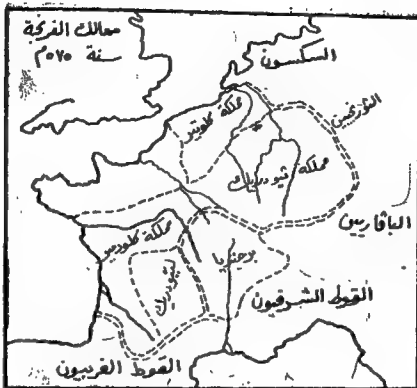
Keen : op. cit. p. 18

(2) Cantor : op. cit. p. 208

(3) Oman : op. cit. pp. 261-2

(4) Heyak : op. cit. p. 3479

(5) Grant : op. cit. pp. 140-1



والدمار هناك ، وفتح بين في إحراز انتصارات باهرة عليهم ، وأجبر دولهم على تقديم الطاعة للملك الفرنسية^(١) ، وتسليم الجزء الغربي من بلاده وهو المعروف حالياً بمنطقة ويلام وجنوب هولندا ، كما حارب الألماني على طول نهر الراين وفي الغابة السوداء ، وأجبرهم على الاعتراف بالتبعية لمملكة الفرنسية - وإلى بين هذا يرجع جانب من الفضل في بداية تحويل ألمانيا إلى المسحة^(٢) .

توفي بين الثاني سنة ٧١٥م خلفه ابنه غير الشرعي شارل، الذي عرف فيما بعد بشارل ماوئل (الطرقه) Charles the Hammer (Martel)، بعد نزاع بين

(1) Let t op. cit. p. 343

(2) Oman : op. cit. pp. 262-3

Piranesi : op. cit. p. 203

أوستراسيا ونستريا وحروب أهلية جديدة ، استمرت سنوات في بداية عهد ، واستعان فيها ملك نستريا بأعداء المملكة المحيطين ولاسيما الفريزيين^(١) ، غير أن شارل مارتل نجح في إزوال الهزيمة بنستريا وإجبار ملكها على الإذعان ، ثم تحول إلى جيرانه الناورين ، فأجبر السكسون على التراجع ، ودفع الفريزيين إلى الرضوخ وإعادة غزو فريزيا للمرة الثانية ، كما حارب الألاني والبافارين وفرض هيبة على القبائل الضاربة حول للمملكة الشرقية ، ودأبه له رئاسة البلاط منذ سنة ٧١٩ ميلادية^(٢) . وتعتبر الأعوام الاثنتان والعشرون التي قضاها شارل مارتل رئيس البلاط (٧١٩ - ٧٤١ م) نقطة تحول خطيرة في تاريخ غرب أوروبا ووسطها ، فقد واصل سياسة والده بين في الداخل والخارج فأعاد حدود المملكة ، إلى ما كانت عليه قديما ، واهتم بشئ للمسيحية بين قبائل ألمانيا الوثنية ونشر القانون ، وحارب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة في الداخل مثلما حقق انتصاراته في الخارج^(٣) ، وقال شارل لقب المطرقة لفددة مارتل بأعدائه على يديه في الداخل والخارج ، فضلا عما نزل بالكنيسة الكاثوليكية من صرام ضرائب وقراراته ، وساعده على إحراز انتصاراته شدة بأس جنوده الأستراسيين للنازيين المزدودين ، الذين لم تقسدم حياة المدن^(٤) ، غير أنه جانيا كبيرا من شهرة شارل مارتل يستند إلى ما حققه من نجاح تجاه المسلمين في جنوب المملكة ، فقد عبر عبد الرحمن النفاقي أواسط البرانس إلى جنوب حالة سنة ٧٣٣ م ، وأزول هزيمة ساحقة بأودو دوق

(1) Lot: op. cit. p. 344

(2) ديفر : هي المرجع ص ٤٦-٤٨ .

(3) Grant : op. cit. p. 141

(4) نصر : المرجع نفسه ص ٧٦

أكوتين (أفطاليا) ، وأجبره على الفرار إلى ما وراء الوار عثميا بشارل مارتل ، واستولى المسلمون على بورديو وتقدموا بجناحين المنطقة حتى يواثيه (Poitiers) (١) . وحينذاك عبر شارل مارتل نهر الوار قرب مدينة تور ، وتقدم لملاقاة عبدالرحمن ، وبقي كل منهما سبعة أيام ينتظر هجوم الآخر ، وفي النهاية قرر عبدالرحمن المبادأة ، فاشتعلت معركة تور - يواثيه العظيمة التي ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية (٢) . وعلى الرغم من أن تفاصيل ما حدث إبان هذه المعركة الحاسمة غير معروفة ، فإنه يبدو أن خيالة المسلمين عجزت عن اختراق حائط مشاة الفرنجة الذين صمدوا لذلك الهجوم الخاطف ، ثم تحولوا بسرعة للقتال في معركة بالغة الضراوة قتل فيها من الفريقين عدد كبير ، وامتدت حتى المساء وانجلى عن مقتل عبدالرحمن الغافقي نفسه وكثير من رجاله ، وانسحب المسلمون حينذاك غلظين كثيرا من القتلى ، كانوا قد استولوا عليها من دوق أكوتين ، ولربث في ذلك الوقت أن ملكة الفرنجة في حالة كانت أصعب هودا من ملكة القوط الغربيين التي انهارت أسام المسلمين في أوائل القرن الثامن (٣) ، فقد انسحب المسلمون إلى ما وراء جبال البيرانس ، وعاد أودو دوق أكوتين لاحتلال بورديو وتولوز ، كما عاد شارل مارتل إلى أوستراسيا محملا بالقتلى ، فدافع حيته في أنحاء غرب أوروبا ، واشتهر بأنه بطل المسيحية الأكبر ، وثاني مدافع عنها بعد قنسططين (٤) .

والحقيقة أن هذا الانتصار الكبير كفل الخلاص والحماية لملكة الفرنجة من

(1) Oman : op. cit. p. 203

(2) Heyck : op. cit. p. 340

(3) Oman : op. cit. p. 204

(4) Lot ; op. cit. p. 389

خطر المسلمين وإن لم يؤد إلى توقيفه نهائياً ، لأن المسلمين أعادوا الكرة بعد ذلك ، فاستولوا على مدن آرل وأفينون ، وأقاموا بهاقرة قبل أن يخرجهم منها شارل (١) ، ولكن هذا النصر منح شارل شهرة فائقة في أوروبا ومكانة بارزة في الأوساط الكنسية (٢) ولا شك في أن شارل ماوتل يعتبر المؤسس الحقيقي للعهد الكارولنجي ، كما يعتبر أعظم رجال الفرنجة - بعد كلوفس وقبل شارلمان ، وبفضله تدهمت أركان مملكة الفرنجة ، بعد أن تداعت فترة طويقة ، وبفضله أيضاً زال خطر المسلمين عن غالة ووضعت أسس الحقبة الكارولنجية (٣) .

قام شارل بعد ذلك بمحاولة ترتيب الأمور في برجنديا وإحلال أعوانه ورجاله محل أدواقها وكورتاتها ، وإكمال إخضاع فريزيا والتصدى لإخضاع دوق أكويتين الجديد سنة ٧٢٥م وكان أدواق هذه المقاطعة يطعمون دائماً للاستقلال عن مملكة الفرنجة وبما منذ سنة ٦٧٥م (٤) ، وتصدى شارل للمحاولات الإسلامية الجديدة في جنوب غالة ، وغزا بروفانس وشمال سبتانيا ، ونجح في ذلك إلى حد بعيد ، واسترد بعض المدن التي استعادها المسلمون وأعاد نفوذه في جنوب غالة (٥) ، ثم قضى السنوات الأخيرة من عهده (٧٢٧ - ٧٤١م) في إكمال

(1) Pirenne : op. cit. p. 207

(2) Heyak : op. cit. p. 3480

Lot : op. cit. p. 389

(3) Cantor : Med. Hist. p. 171

Lot : op. cit. p. 345

(4) Pirenne : op. cit. p. 197

(5) Heyak : op. cit. p. 3480

إخضاع الحكومون وإتمام تنظيم الكنيسة المسيحية في جنوب ألمانيا ، ومساعدة بونيفاس في تحويل قبائلها إلى المسيحية (١) ؛ ولكنه مع ذلك رفض أن يساعد البابا جريجوري الثالث ضد البياردين ، حين طلب البابا تدخله ضد ليتيراند ، وأرسل للمفاتيح قهر القديسين بطرس سنة ٧٣٩ ، وطلب منه أن يحمل حمل الإمبراطور في المحافظة على روما ، وذلك بسبب مساعدة البياردين الفرنجة أثناء حربهم ضد المسلمين من ناحية ، بالإضافة إلى أن شارل مارتل لم يكن متحمساً لأعمال حرية خارج بلاده من ناحية أخرى ، فأثار ذلك البابا وأحقه فعلاهما حدث من استيلاء شارل مارتل على بعض أراضي الكنيسة لمنحها لاتباعه وتعيين أعرابه في الأسقفيات الفاعرة ، ولهذا اتسعت الشقة بين الجانبين ، على الرغم من جهود شارل الصاعدة في تنظيم الكنيسة في ألمانيا ونشر المسيحية بين قبائلها الوثنية ، وتوفي شارل مارتل في النهاية في ٢١ أكتوبر سنة ٧٤١ م ، بعد أن قسم المملكة ، بين أبنائه الثلاثة (٢) .

كان بين القصر (الثالث) أبرز الأخوة الثلاثة دون شك ، وساعده الظروف في بداية عهده ، فانزاع من طريقه أصغر إخوته ، فقد أهد إلى قلعة في الأردن ، واختار الأخ الآخر - بعد فترة تعاون صادق مع بين - الانخراط في الحياة الديرية سنة ٧٤٧ ، فأصبح المجال لبين لينال وحده رياسة البلاط في المملكة ،

(١) نفس : المرجع السابق ص ٧٨ ؛ ديفز : المرجع السابق ص ٤٨

Grant : op. cit. pp. 142-5 , Cantor : op. cit. pp. 208-9

Seidlmayer : Currents of medieval thought p. 35

(trans. by barker)

(2) Pirenne : op. cit. p. 208

ويقضى على كل القبات التي أثيرت في وجهه (١) ، ويقوم بتسوية الأمور مع الكنيسة ولاسيما فيما يتعلق بالأراضي التي انتزعتها شارل مارتل منها ، ليصبح الجو مهيئاً لتقيد صلح مع الكنيسة سنة ٧٤٤ م تمهد فيه بين باستمرار مساندة القديس يوليئاس في جهوده لإصلاح كنيسة الفرنجة وجهوده في خدمة المسيحية في تلك البلاد ، فأذن ذلك بمهد جديد في العلاقة بين الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية (٢) ، على أن يبين القصر مالبك أن خطأ أم خطوة في تاريخه حين أمضى عهد البيس الميروفنجي ووضع بداية عهد بيت جديد في تاريخ الفرنجة (٣) ، فإذا كان بين هريستال (الثاني) وشارل مارتل لم يجرؤا على اتخاذ هذه الخطوة خشية أن يتعرضا لمصير جريء والد ، فإن يبين القصر رأى أنه ليس من الضروري انتظار وفاة تهلندريك الثالث لتتغير سلطة الميروفنجيين لإنهاء عهد هذه الأسرة المتهاكة (٤) ، وبإدراكه بجمع المجلس القومي الفرنجي سنة ٧٥١ م ، وعرض عليه الأصم ، فوافق المجلس بحماسة على إزالة تهلندريك الثالث ، واختيار يبين القصر ملكاً ، غير أن يبين لجأ إلى إكساب هذه الخطوة بعض الشرعية ، فقام بإرسال سفارة إلى روما يسأل البابا ذكرها : « أليس من حق الشخص الذي ييده السلطة الحقيقية أن يكون له أيضاً لقب الملك ؟ » ، ونظراً لأن البابا كان بطمع في

(1) Oman : op. cit. pp. 322-5

(٢) هيز : قس المرجع ص ٤٨

(3) Mahrenholtz : "The Empire of Charlemagne" B. H, VII, p. 3481

(4) Keen : op. cit. p. 18

مساعدة بين حد المباردين (١) ، فقد اتجه إلى تملقه ومحاولة إرضائه فأجاب :
ومن حق الرجل الذي بيده السلطة الحقيقية أن يحصل على لقب الملك بدلا من
أن يحتفظ بهذا اللقب الرجل الذي ليس له سلطة حقيقية ، وحينذاك اجتمع
جلس النبلاء في سواسون بنستريا في أكتوبر سنة ٧٥١ ، وقرر أن يمنح بين
لقب ملك وأن يرسمه القديس بونيفاس لهذا المنصب ، وجرى رفعه على التروس
ملكاً جديداً للفرنجة حسب المادة الجرمانية القديمة (٢) ، ثم جرى تنصيبه ملكاً
على يد البابا ستيفن الثاني في شتاء سنة ٧٥٣ - ٧٥٤ م ، كما توج البابا ولدى
بين : شارل وكارلومان ، وأصبحت ذرية بين - كما عبر البابا بنفسه - ذرية
مقدسة (٣) ، وحرّم البابا على الفرنجة - أن يختاروا ملكاً من بيت غير بيت بين ،
لأنهم سلالة مقدسة وكنية ملكيون ، وترتب على ذلك حصول البابوية على مساعدة
الفرنجة ولإزدياد قوة البابوية في إيطاليا (٤) .

غدا بين التصير بهذا ملكاً على الفرنجة مدة سبعة عشر عاماً (٧٥١ - ٧٦٨ م) ،
قام خلالها بأعمال جليلة ، ومد حدود المملكة إلى مناطق لم تخضع من قبل للفرنجة
وشارك في أحداث المعركة فمالة فتعامل مع البابوية ومنحها حمايته ،
واصطدم بالمباردين وقاد ضدهم حملتين ، جرت الإشارة إليهما من قبل ،
وخضع على أثرهما أستولف وتهد بتقديم جزية سنوية ورد ما سلبه من أملاك

(1) Grant : op. cit. p. 145

(2) Oman : op. cit. p. 326

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3481

(4) Ostrogorsky : op. cit p. 151

الباوية^(١) ، كما حارب بين المسلمين وأدواق أكوئين في الجنوب ، ونجح في الاستيلاء على كل المدن الخاضعة للمسلمين في سبتايا شمال تاربون ، وقاد بنفسه حملة سنة ٧٥٩ ضد تاربون ذاتها وكانت آخر مدينة للمسلمين وراء البرانس ، ولم يكد يلقى الحصار عليها حتى هب المسيحيون من أهلها بقتل الحامية الإسلامية فيها وفتح الأبواب لبين ، ثم كانت غزوه لأكوئين وحروبه ضد أدواقها المناوئين سببا في إخضاع هذه المقاطعة وربطها بالتاج الفرنجي سنة ٧٦٧ ؛ وفي أثناء ذلك شن بين حروبا ضارية ضد السكون ونجح في كبح جماحهم ، وإن لم يستطع إخضاعهم نهائيا ، وتحركت هذه المهمة لابنه شارل الكبير^(٢) ، غير أن بين ما لبث أن مرض مرضا طويلا وهو في قمة مجده ، ومصر في اليوم ٢٢ سبتمبر سنة ٧٦٨ بكنيسة سانت ديس Denis قرب باريس حيث أمهله القدر بعض الوقت كي يقسم مملكته بين ولديه ، قبل أن يسلم الروح ، بعد أن قدم أحسالا جليلة لدولة الفرنجة ، وخلفها بخطوات هائلة وأرسى دعائم حقبة جديدة في تاريخها^(٣) .

أما بالنسبة لمضارة الميروفنجيين وخصائص مملكتهم ، فقد سبقتنا الإشارة إلى أبرز تلك الخصائص ، والعوامل التي كفلت لهذه المملكة البقاء بغرب أوروبا بعد زوال معظم الممالك الجرمانية ومن بين تلك العوامل اتجاه الفرنجة إلى اعتناق المسيحية على مذهبها الكاثولكي ، ف قرب ذلك كثيرا بينهم وبين أهل البلاد

(1) Camb. Med. Hist. V. II, pp. 589-90

Harder & Waley : op cit. p. 32

(2) Oman ; op. cit. pp. 326-32

(3) Ibid : p. 233

المفتوحة (١) ، فضلا عن اتجاههم إلى ملائمة السكان وعدم استهلاك العنف والقسوة في معاملتهم ، وعدم مصادرة أملاكهم أو أراضيهم ، يضاف إلى ذلك ما أدى إليه الزواج المختلط من تحطيم الحاجز الفاصل بين الجرمان والرومان (٢) ، وما حدث من مساواة سياسية بين أفراد المجتمع ، كل ذلك كان له أثر دون شك في إزالة الهوة العميقة بين الطرفين ، لكن على الرغم من هذا ظل الفرنجة يمثلون طبقة مميزة عن بقية السكان تحفظ إلى حد ما بخصوصياتها الجرمانية ، ومعظم سماتها البدائية ، وإن كانت هذه الخصائص والسمات قد بدأت تتهدب ويبدأ رويدا رويدا بفعل المدنية الرومانية من ناحية والمبادئ المسيحية من ناحية أخرى (٣) .

وتقدير رواية جريجوري أسقف تور ، الذي ينتمي إلى القرن السادس وينحدر من أسرة غالية رومانية لما صلة بيت كلوفس (٤) ، إلى إن المجتمع الغالي انقسم على عهد الميروفنجيين إلى فئتين مختلفتين إحداهما تمثل السياسة العليا في حالة الميروفنجية ، كانت تشدها نوازح بربرية وخصائص مسيحية إلى حد ما وهم الفرنجة ، والآخرى فئة خشيلة الأهمية قوامها التجار والصناع وسكان المدن ومزارعو القرى والريف ، ممن ظلوا يقدمون لسادتهم المجد والضرائب والخدمات ويهيئون لهم مناخا متمدينا وبيئة متحضرة ويمدونهم بأسباب الرفاهية والزرف (٥) . على أنه يبدو أن الفرنجة الميروفنجيين لم يتبرأوا أنفسهم ملوكا على غلة باعتبارها إغليا أو

(1) Lot : op. cit. p. 317

(2) Cantor : Med. Hist. p. 152

(3) Heyck: op. cit. pp. 3478-80

(4) " Gregory of Tours, Hist. of the Franks " by Cantor, Med. World, p.78

(5) Ibid. pp. 79 -82, Cantor : Med. Hist pp., 151 -2

ولاية، بقدر ما اعتبروا أنفسهم ملوكاً على الشعب الفرنجى نفسه غير المرتبط بإقليم معين^(١)، لعل الدليل على ذلك أنه جرى التقسام غالباً فيما بين أبناء كلوفس وأحفاده على أنها أرض يعيش فيها الشعب الفرنجى^(٢)، ولا أهمية عندهم إذا لم يكن نصيب الواحد منهم متعللاً أو يؤلف وحدة مترابطة^(٣)، وفي الأوقات التي قامت فيها وحدة سياسية أو ملكة واحدة برزت الجمعية الوطنية أو المجلس القومى العام، ليمثل سلطة جرمانية لها وزنها، قوامها كبار رجال الفرنجة الذين يحضرون مدججين بالسلاح، فإذا عن أمر يتصل باعتلاء ملك جديد العرش رفعوه على الأروس حسب العادة الفرنجية القديمة^(٤)، ومع ذلك اختلقت الملكية الفرنجية عن غيرها من ملكيات الجرمان، بأنها كانت ملكية وراثية غير انتخابية، جرى فيها تقسيم الإرث بين أبناء الملك الذكور، فضلاً عن تمتع الملك بسلطات مطلقة في مختلف النواحي^(٥). ولقد ظل الرهايا مرتبطين بالملك المهر وفنجه يمين الولاء وكانت في الأصل هي الوسيلة التي تجمع الرهايا ليتبعوا الملك في الحرب والقتال، فتسبب هذا الارتباط في نمو طائفة من النبلاء استندت في البداية إلى قربها من الملك حتى إن الملك ظل يحمل اسم «ملك الفرنجة»^(٦)، ثم استمدت هذه الطائفة قوتها بعد ذلك من التفوذ الوراثى من ناحية والامتيازات التي حصلت عليها أو اغتصبتها من ناحية أخرى، ولقد لعبت هذه الفئة دوراً هاماً

(1) Heyck ; op. cit. pp. 3471-2

(2) Koen ; op. cit. p. 18, Cantor : Med. Hist. p. 149

(3) Heyck ; op. cit. pp. 3471-2

(4) Oman : op. cit. p. 326

(5) Camh. Med. Hist. V. II p. 133

(6) Lot : op. cit. pp. 348-50

في تاريخ الميروفنجيين ولا سيما الأواخر منهم^(١) ، هذا فضلا عن نمو طائفة أخرى من الأعوان ، ارتكبت هي الأخرى في البداية إلى الملك ، وأظهرت الاخلاص له ، تجديداً لدور الرقاي ، والاتباع في المعاصر الجرمانية إلا أنها مثلت فيها يد حاشية الملك وأتباعه وحرسه الخاص ، وموظفي القصر ، ومن هذه الفئة برز رؤساء البلاط الذين ارتبط بهم تاريخ الميروفنجيين منذ وفاة داجوبرت سنة ٦٢٨م^(٢) .

أما بالنسبة للإدارة المحلية ، فيبدو أن الميروفنجيين لم يقوموا بتعديل شيء فيها ، وظلت الأقسام الإدارية كما كانت عليه تقريبا زمن الرومان ، وتولى إدارة الأقاليم رجال عرفوا بالكونتات جنحوا في أيديهم السلطتين العسكرية والمدنية ، وقاموا بجباية الضرائب ، والفصل في القضايا وقيادة الحيوش المحلية^(٣) ، ومع ما أظهره الفرنجة من لين في معاملة الأهالي ، فإنهم مالوا إلى تمييز أنفسهم عن السكان الأصليين أمام القضاء ، فكان الكونت مطالبا بأن يحاكم كل رجل حسب قانونه الخاص ، مع صريان مبدأ الأخذ بالشأن الذي عرفه الجرمان من قبل ، ومبدأ الأدية المرحسية لأهل القتل ، وكتابات جريجوري الثوري مليئة بقصص الانتقام ، التي انطوت على كثير من البغاة والقسوة^(٤) ، وكانت دية الفرنجي تفوق دية الغالي الروماني ، لكنهم مع ذلك جنحوا إلى جعل الوظائف المسماة الحكومية والكنسية مشاطا بين الجميع يتولاها الفرنجة والأهالي دون تمييز ، كما

(١) انظر : المرجع السابق ص ٦٩-٧٠ .

(2) Grant : op. cit. p. 140

(3) Lot : op. cit. p. 350

(4) Gregory of Tours, op. cit. p. 79-82

سبقت الإشارة^(١)، ونظرا لما تمتع به الكونتات من سلطات واسعة، فقد حرص الملوك الميروفنجيون على موازنة الأمر، ومحاولة كبح جماح هذه الفئة باستخدام نواب الملك في الأقاليم كانوا حادة من الأساقفة، وادعى ملوك الفرنجة منذ القرن السادس أحتيهم في تقليد الأساقفة وهو الأمر الذي طارحته الكنيسة فيما بعد، وتسبب في صراع مرير بين البابوية والسلطات العلمانية^(٢)، فضلا عن حرص الميروفنجيين على أن تسيّر الكنيسة في ركابهم، وأحتيهم في دعوة المجامع الدينية ورياستها، لكن ملوك الفرنجة أقادوا ضلالتهم هذا التقليد بوضع أعوانهم مثلين لهم في الأقاليم، فتمتروا بمنزلة سامية بين الأهالي بفضل مكانتهم الروحية^(٣).

وعلى الرغم من ذلك نشأ تحالف بين الفرنجة والكنيسة، كان له أثر بعيد في تاريخ غرب أوروبا، وأخذت الميروفنجيون على رجال الدين الامتيازات والاتصالات، وبمرور الوقت أصبح رجال الدين من كبار الاقطاعيين، وتضخمت ثروات الأديرة ومنح الأساقفة سلطات واسعة في مجال القضاء^(٤)، ولاحت لهم فرص التعرف على مصالح أقاليمهم وتقديم خدمات جليلة لها ببناء الكنائس الجديدة وترميم ما يتصدع منها، فضلا عن الحصول على تفويض الميروفنجيين لنظر في أمور الزواج والطلاق والمسائل التي لها صلة بالنواحي الدينية والروحية، فأصبحت الكنيسة تباشر النظر في تلك الأمور وغيرها مما كانت

(1) Heyck : op. cit. pp. 3474-6

(2) Lot : op. cit. pp. 386-7

(3) Camb. Med. Hist. V. I, p. 152

(4) Lot ; op. cit. p. 386

تباشره السلطات الرومانية القديمة^(١)، غير أنه بمرور الوقت أحل المهروفنجيون أتباعهم ورجالهم من الفرنجة محل الأساقفة من الرومان الغالين، فسأدى ذلك إلى فساد شئون الكنيسة الفرنجية، وتدهور ثقافات رجال الكنيسة^(٢)، وجنوح رجال الدين إلى التسمية التامة للدولة فأحق ذلك البابوية، وأغضب المصلحين الوافدين إلى ظلة أمثال المبشر الإنجليزي القديس بونيفاس^(٣)، ومما يكن من أمر فإن الفرنجة عموماً لم يسمحو بالسلطة الدينية أن تتنازعهم اختصاصاتهم أو أن تعلو فوق سلطانهم، برغم ما أظهروه من ميل إلى محالفة البابوية ورفع شأنها في أوروبا^(٤).

ومع اتجاه الفرنجة إلى الإبقاء على النظم الاقتصادية والمالية السائدة في البلاد، فإن سياستهم أدت بمرور الوقت إلى تركيز الأراضي في أيدي فئة قليلة من السكان وإزلال جانب كبير من السكان إلى مرتبة العبودية، ولعل ظهور طبقة النبلاء ورؤساء البلاط يمثل انتصاراً لمصالح الطبقة الأرستقراطية الجديدة، التي اعتبرت نفسها في مركز وسط بين الملك والشعب^(٥)، كما أدت سياسة المهروفنجيين إلى ظهور النظام القطاعي وتركيز ملكية الأرض في أيدي فئة قليلة من

(١) Heyck : op. cit., p. 3474

(٢) Cantor : Med. Hist. p. 151

(٣) ديفز : المرجع السابق ص ٤٨

Camb Med. Hist. V, II, p. 540

Cantor : Med. Hist. p. 208, Med. World. pp. 127-8

(٤) Grant : op. cit. pp. 142-3

(٥) Heyck : op. cit. p. 3474

الملك^(١)، وتمتع الملك بإيراد ضياعه الواسعة، فضلا عن أن الهبات والخدمات الخاصة، وما يورده الكرتات من لقي الضرائب التي يجمعونها من الأهالي^(٢)، ومثلت هذه الأموال حصة الإيرادات الملكية التي يصرف منها الملك على قصره وبلائه وحاشيته وموظفيه دون الخدمات العامة، ومع ذلك ظلت ثروة الملك من الأرض أقل كثيرا من ثروات ببلاته^(٣). ومع أن الطابع الزراعي غلب على دولة الفرنجة نتيجة لنمو الانقطاع وظهور نظام الضياع، الأخذ بسياسة الاكتفاء الذاتي وتحول جانب كبير من السكان إلى أقتان، فإن المصد الميرفنجي شهد نشاط التجارة وتبادل السلع بين الشرق والغرب عن طريق المنافذ التجارية في جنوب غالة، كما شهد نشاط التجار الإيطاليين واليونانيين واليهود في الموانئ المطلقة على البحر المتوسط، فضلا عن استمرار التجارة المحلية، ولم يؤد نمو القوة البحرية الإسلامية ابتداء من القرن السابع إلى تهديم هذا النشاط الكلية، بل ظلت العلاقات التجارية سارية وإن قلت عن قوتها قبل بسبب تدهور مكانة المدن وزيادة هجمات المتبربرين في أوروبا^(٤).

أما بالنسبة للجيش فإنه لم يكن يكلف الميرفنجيين شيئا، إذ التزم غالبية الفرنجة بالخدمة العسكرية، وتعمل فريق آخر من غير الصالحين للخدمة العسكرية ضرائب كبيرة، واهتم خلفاء كارفس بتطبيق نظام الخدمة العسكرية على كل

(1) Cantor : Med. Hist. p. 140, p. 151

(2) Lot : op. cit. p. 350-1

(3) Keen : op. cit. p. 8

(4) Cantor : op. cit. p. 152

Keen : op. cit. p. 33

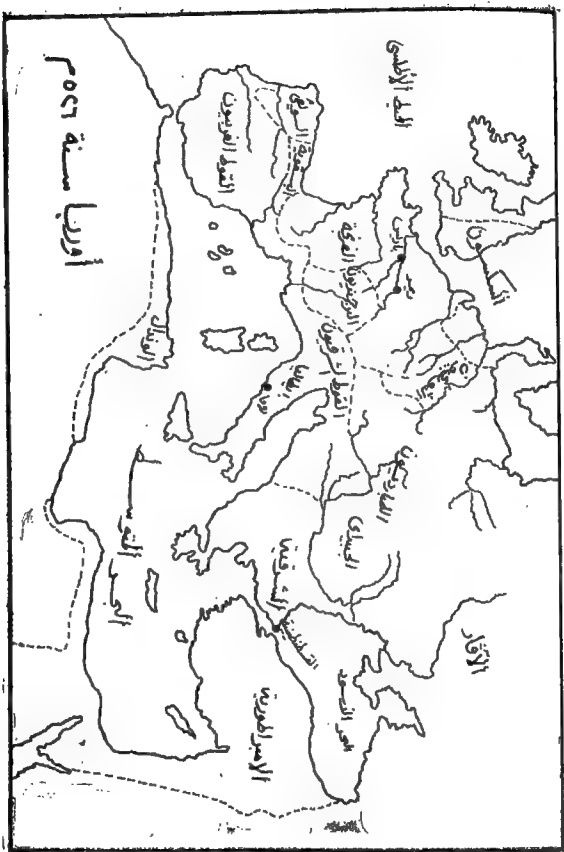
رحابام (١) من الرومان والبرجنديين والالمان والسكسون في نثرها ، ولم يفروا
أحدا منها حتى الفتراء ولهذا كانت جيوش الفرنجة خليطا من المواطنين مدتهم
يفتقر للتدريب العسكري ، ولم تكن لهم قيمة حربية حقيقية (٢) . وفي النصف
الثاني من القرن السادس كان الملوك هم قادة الجيش بأشخاصهم أو بمن ينوب
عنهم من الأدواق والكونتات ، أما التجنيد الإجباري ، فكان نادرا ، ولهذا
يسبب الانسان كيف استطاعت هذه القوات المضطربة الفروغانية ، أن تكسب
المبارك الحربية ، وبما يكون السبب أن أعداء الفرنجة من قوط أسبانيا وإيطاليا
والالمان والنورمانيين والبريغون كانوا أسوأ تنظيما وأقل عددا (٣) ، فاستطاع
الفرنجة أن يتفوقوا عليهم بقوة العدد ، ولما قابل الفرنجة فرسان الآفار
المسلمين جيدا وعاربيهم للتدرب كانت النتيجة الحتمية هي الخزيمة للفرنجة . غير
أنه حدث في استراسيا قرب أواخر العهد الميروفنجي أن حل الفرسان همل الهابة
لتدعيم قوة الجيش ، فعاد ذلك ثمرة في نظم الجيش واتسلابا حقيقيا في الخط
الحربية ، أعطيا شارل مارتل القوات التي مكنته من حماية مملكة الفرنجة من أعدائها
وإزالة الهزائم بالظلمة فيها (٤) .

(١) Heyak ; op. cit. p. 3475-6

(٢) Lot ; op. cit. p. 353

(٣) Ibid : p. 353

(٤) Lot ; op. cit. pp. 353-4



الفصل التاسع

ممالك الجرمان في بريطانيا

بريطانيا والتاريخ القديم - الفتح الروماني لبريطانيا - انتشار المسيحية بين عناصر الكلت - سحب الفرق العسكرية الرومانية من بريطانيا - غزوات الجرمان لها - غف الغزو الجرمان لبريطانيا - بروز الممالك القبلية المسيحية ببريطانيا : كنت . اسكس . سسكس وسكس . ليمس أنجليا . مرسيا . نورثمبريا . عقد الروامة لمملكة كنت - ثم لمملكة نورثمبريا - ثم لمرسيا - ثم لوسكس - ألفريد العظيم ملك وسكس - إدوارد الأكبر - الملكستان - إدجار - ألفرد الثاني - غزو الدانين وقيام كاثول في الحكم - عودة بريطانيا إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية - بشة القديس أوغسطين الصنير - أوغسطين الصنير أول رئيس لأساقفة كانتربري .

المعروف أن الجور البريطانية عاشت عصرها القديم في شبه عزة تامة عن القارة الأوروبية ومؤثراتها ، وتعرضت في القرن السادس قبل الميلاد لغزوات قبائل الكلت الجلبين ، وهم من العناصر الهندو - أوروبية ، الذين تدفقوا إليها من ظلة بعد استقرارهم في أجزاء مختلفة من أوروبا (١) ، وفي القرن الأول قبل الميلاد ، نزحوا فريق من الكلت يعرف بالكلت البريتون Britons إذ انسابوا إلى جنوبها

(1) Reynar ; Concise Hist. of Britain, p. 1

وشرقها واستقروا في ويلز وكورنول ، وإلى هذا الفريق من الكلت تنسب بريطانيا (١).

ويحدد الفتح الروماني للجزر البريطانية على يد يوليوس قيصر ، قرب منتصف القرن الأول قبل الميلاد (٥٥ ق.م - ٩ ق.م) بداية مرحلة هامة في تاريخ تلك الجزر ، إذ ربطها بسجلة الأحداث في القارة الأوروبية (٢) . وجعلها عرضة للتأثر بالاتجاهات الحضارية في القارة الأم ، وساهم في صنع جانب كبير من تاريخ تلك البلاد ، وخاصة بعد أنه اكتمل الفتح الحقيقي لهذه الجزر في القرن الأول الميلادي (٣) . ولقد ثارت التناقض في وجه الحكم الروماني في القرون الثاني الميلادي ، وبسبب الأباطرة الرومان جهوداً في تثبيت الفنون الرومانية ، وإقامة التحصينات الدفاعية ، ومن بينها سور عادريان الشهير ، وبث الحاميات لصد القبائل الاسكتلندية (الساكسونية) وغارات الأيرلنديين (٤) ، ومع ذلك قنصت روما بعد حملات الإمبراطور سيفروس في أوائل القرن الثالث (٢٠٥ - ٢١١ م) ، بحكم أجزاء واسعة من الجزر البريطانية والانصراف إلى حماية سلطانتها وتركيز قوتها فيها عرف بالتحطرا وويلز (٥) . وظلت الجزر البريطانية تابعة للإمبراطورية

(1) Davis : " The British Isles from the earliest times to the Med. ages, " in B. H. VII, p. 3497

نهر : تاريخ أوروبا في الصور القديمة ص ٢٨ (مترجم) .

Trevelyan : Hist. of England, Part, I, pp. 10-13

(2) Davis : op. cit. p. 3498 .

(3) Camb. Med. Hist. V, I, p. 368

(4) Bayner : op. cit. p. 6

(5) Katz : op. cit. p. 79, pp. 97-8

الرومانية منذ قسماً ، مدة تقرب من أربعة قرون وجهت روما خلافاً للمهرود
للازدهار بملك البلاد ، نفق الرومان الطرق وشيدوا المباني وحفروا الآبار ،
وجهدوا الطرق^(١) لجمعها وسيلة عامة من وسائل نقل التجارة والمواصلات ،
واهتموا بالريف ، وخططوا المدن وأصلحوا الحمامات ، وشجروا الأودية
والتجارة ، واهتموا بإنتاج بريطانيا من الرصاص والفضة والفلز والجلود ،
حتى أصبحت بريطانيا إحدى الولايات الرومانية الثنية^(٢) .

ولقد حافظ الكثيرون بغرب الجزيرة البريطانية على معظم مقوماتهم القبلية ، ثم ما لبثوا
أن اعتنقوا المسيحية التي انتقلت إليهم من إيطاليا مباشرة ، وصرحوا ما انتشرت بينهم
انتشاراً سريعاً وساهمت في زيادة الروابط مع الإمبراطورية الرومانية ،
وشارك رجال الدين البريطانيون في المجمع الديني ، التي عقدت في القارة الأوروبية
في القرن الرابع وأدلو بدورهم في السياسة الدينية في ذلك الوقت^(٣) ، ثم حلوا
لواء التبشير بين البكتين والقبائل الوثنية فيما وراء سور هادريان ، وحاز بعض
رجالهم شهرة واسعة في هذا الميدان ، ولاسيما باتريك Patrick وسوكات Suet
الذين بشرا بالمسيحية في أيرلندا^(٤) ، وساهما في إقامة أديرة أيرلندية غدت نواة
للديرة ، التي ذاع صيتها فيما بعد ، وألغت شهرة واسعة فسيما بين القرنين
السادس والثامن .

ولقد انعكست حالة الفوضى والاضطلال التي آلت إليها روما في القرن

(1) Davis : op. cit. p. 3498-502

(٢) ول ديوانلو : ج ٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ص ٨٦

Camb. Med. Hist., V. 1, p. 373

(3) Davis : op. cit. p. 3502

(4) Raynes : op. cit. p. 9

الخامس الميلادي على الولاية البريطانية ، كما ترتب على غزو الجرمان لغالة في أوائل القرن الخامس أن انقطعت الصلة بين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية ، فاضطرت روما في نهاية الأمر إلى سحب فرقها العسكرية منها ، لمواجهة الاخطار التي أحدهت بها ولصد هجمات الجرمان على أراضيها ، وأستند أمر الدفاع عن بريطانيا لبريطانيين أنفسهم^(١) ، ولاسيما أهل ويلز ، فأصبح عليهم النهوض لصد البيكتيين والاسكتلنديين في الشمال وقراسة السكسون الجرمان من الجنوب ، ولاسيما إلى معرفة درجات المقاومة التي بذلها أولئك البريطانيون في صد تلك الاخطار ، ما دامه أخبار تلك الحنة شبه مفقودة لم يبق منها سوى النذر اليسير^(٢) . وعلى الرغم من أنه ليس معرقة تماما الوقت الذي انسحبت فيه القوات الرومانية نهائيا من بريطانيا ، فإن روما لم تكن لتتخل على هذه الولاية بسهولة وهي الولاية الفنية ، التي ظلت مصدرا الثروة طيلة أربعة قرون ، ولكنها أجبرت في أغلب الظن على سحب فرقها منها ، قرب منتصف القرن الخامس ، حين غدا أمن روما ذاتها موضع شك كبير ، على أثر هجمات الجرمان ، وتقدم الهون صوب الغرب^(٣) .

وتمثل الحقبة الواقعة بين انسحاب الفرق الرومانية من بريطانيا ، ووصول القديس أوغسطين الصغير مثل البابا جريجوري العظيم إلى شرائطها سنة ٥٩٧ م ، وهي نحو قرن ونصف من الزمان ، فترة غائصة بالنسيان لتاريخ هذه البلاد .^(٤) وكانت هجمات الجرمان ولاسيما السكسون لاتنقطع على السواحل الشرقية من

(1) Cantor : Med. Hist. p. 135

(٢) نعر : تاريخ أوروبا في الصور الوسطى ق ١ ص ٢٧

(3) Katz : op. cit. p. 92

Med : op. cit. p. 203

(4) Rayner : op. cit. pp. 8-9

الجزر البريطانية ، وشواطئ بحر المانش ، وذلك منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للميلاد^(١) ، غير أن سحب آخر حامية رومانية من بريطانيا سنة ٤٧ م أدى في الواقع إلى اشتداد موجة الهجمات الرومانية ، ويطور الأمر إلى رغبة ملحة في الاستيطان ، ومالئ الجرمان أن يهزوا بقواهم هباب الانهيار التي تصب في السواحل الجنوبية والشرقية ، واستقروا بؤديان تلك الأنهار^(٢) . وكان الجرمان الذين غزوا بريطانيا ، قد جاءوا إليها من شواطئ بحير الشمال ومن شبه جزيرة جنتلاند ، ومن شبه الجزيرة المعروفة حالياً بالهاترك ، ومن البلاد الواقعة جنوبها مباشرة ، ومثل الانجليز والسكسون والجيوت عناصر هذه المجموعة الجرمانية ، يربطهم اشتراكهم في اللغة والعادات والتقاليد ، وعرفوا باسم الانجليز - السكسون Anglo - Saxon^(٣) .

وتمثل الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ، ومنتصف القرن السادس تقريباً مرحلة أولى في تواريج الغزوات الجرمانية لبريطانيا ، توافد فيها الانجليز والسكسون في حركة تشبه الاستعمار ، ولم يصادفوا خلالها سوى مقاومة ضئيلة من أهل بريطانيا الرومانية خاصة في المنسوب الشرقي^(٤) ، وانتهى الأمر باستيطان هذه العناصر الجرمانية في وديان الأنهار ، بينما كان البريطانيون يميلون إلى سكن الجهات المرتفعة ، ولهذا لم يحدث نزاع بين الجانبين حينذاك ، بل سادت

(1) Trevelyan : op. cit. pp. 57-58

Camb. Med. Hist. V. I, p. 378

(2) Trevelyan : op. cit. p. 33

Camb. Med. Hist. V, 1, p. 388

Trevelyan : op. cit. p. 30

(٣) ديفي : نفسه ص ٢٢ ،

(4) Davis : op. cit. p. 3502

فترة من السلام (١) . غير أن هذا السلام لم يستمر طويلا بسبب رغبة الجرمان في التوسع ، ولهذا دب النزاع سريما بين الجانبين ، ولم يمد أمام البريطانيين سوى النضال ، فترتب على ظهور الصراع بينهما أن خرب البلاد وحرقت المدن ، وحل بالسكان القتل والأسر ، وطورد من نجا منهم غربا وشمالا بغرب (٢) . ويبدو أن شخصية الملك آرثر Arthur ، التي احتلت مكانا ساميا في نفوس البريطانيين ، وصورت بطريقة فيها شيء من الخيال ، كانت لأحد القادة البريطانيين الذين برزوا أثناء الكفاح ضد الجرمان واستطاع أن يلحق بالجرمان هزائم متوالية ، وينزع الإعجاب من قومه (٣) ، ولكن على الرغم من ذلك انتصر الجرمان في نهاية الأمر ، ولم يكديقترق القرن السادس من نهايته حتى كان الجرمان قد بلغوا سفن Severn ، وحاولوا بين السكان البريطانيين في شرق الجزيرة وحلفائهم في ويلز وشمال شرقي الجزيرة ، وفي بداية القرن السابع كان الجرمان قد استولوا على كل ما هو معروف الآن باسم إنجلترا فيما عدا بعض المناطق والمدن (٤) .

وأنتم غزو الإنجليز والسكسون والجلوت لبريطانيا بشيء من القسوة ، واتخذ طابع العنف ، ولم يفتق في ذلك سوى غزو الوندال لشمال إفريقيا ، فعلى الرغم من أن بعض القرى ظلت بأيدى سكانها من البريطانيين ، واكتفى باسترقاق أعداد من الأهالي ولاسيما النساء ، فإن هؤلاء الفسزاة صرغفوا مهمهم لانتزاع الأراضي

(١) نشر : نفس المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٩

(2) Rayner : op. cit. p. 8

(3) Bury : Later Roman Empire, II p. 201

(4) Lot : op. cit. p. 210

Katz : op. cit. pp. 104, p.114

والإيمان في القتل والتشريد لسكانها وتحويل قراهم إلى قرى جرمانية (١)، وتربى على هذه الموجة العاتية من الفسوز أن تَهْجُرَت اللغة اللاتينية وتراجعت الديانة المسيحية، وتأخرت المدن الكبيرة، وبعثت النظم الرومانية، وقضى على ما كان روما من دلائل السيطرة والسلطان في تلك البلاد (٢)، ولكن على الرغم من ذلك ظلت الجزيرة البريطانية تحتفظ بعناصر سكانها القدامى، فقد بقى الآيبيرون السمر والكتييون الجبليون والكتييون البريتون، كل هؤلاء وأولئك لم تذهب بهم الرياح أو تهمز عليهم الكارثة، بل ظلوا يمثلون عنصرا من عناصر سكان الجزر البريطانية (٣). وينحدر الفضلام عن بريطانيا في نهاية القرن السادس (٥٩٧م) عند مقدم القديس أوغسطين، فتبدو وقد تغيرت معالمها، فصارت جرمانية وثنية، وتغير اسمها فأصبح انجلترا بدلا من بريطانيا، وحل مجتمع جرمانى بدائى محل مجتمع كاثى تابع للإمبراطورية الرومانية، وغشت اللغة جرمانية خالصة والإله المعبود اسمه أو دين (٤)، والزراعة عصب الحياة فيه. وليس هناك شك في أن ذلك يرجع في أغلبه لعدم تأثر الانجليز والسكسون والهلوت بالمدينة الرومانية قبل هجرتهم إلى تلك البلاد أو بعدها (٥)، ولهذا سكنوا القرى والكفور دون المدن، وزرعوا الأرض على نظام الحصص المبعثرة (٦)، ونجحوا في محو ما كان لروما من أثر ربما كان أمرا سطوحيًا بسبب تركيز روما على الاحتلال العسكري دون

(١) نفس المرجع ص ٧٧ .

(2) Trevelyan : op. cit. p. 33, Remond : op. cit. p. 179

(٣) نفس تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في ص ٣٨

(4) Davis : op. cit. pp. 3504-5

(5) Pirenne : op. cit. p. 141

(6) Rayner ; op. cit. p. 12

حمل الوطنيين على هجر لغتهم واتخاذ العادات الرومانية وتقبل كل ما هو روماني عن رضى واختيار (١) .

ولما كانت غزوات الجرمان ابريطانيا قد تمت تحت قيادة نفر من رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، فقد غدا أولئك الزعماء ملوكا مترجين بعد الاستقرار ، واتخذ كل مملكة قائمة بذاتها ، واستمدت لمبة من إله الوثني واستعان في شئون الحكم بمجلس من الرجال (الحكام) يعرف باسم الوتان Witan (٢) ، ومالبت الجرمان أن انضموا في مجتمع طبقي على قنة البيت المالك ، ثم طبقة الجزير Josithe ، ثم الايرلات Earls (٣) ، ومن هذه الطبقات الثلاث تكونت فئة المحاربين ، ومن بينهم يختار أعضاء مجلس الحكماء (Witan) ، ومهمته انتخاب الملك (٤) ، من بين أفراد الطبقة الأولى Aethelings ، وتقديم المعونة له فيما ين له من أمور الحكم . أما أهم الطبقات العاملة فهي طبقة الأحرار من الفلاحين ، ثم يليها طبقات عديدة من غير الأحرار (٥) . غير أنه مما يسترعى الانتباه أنه برغم وحدة الأصول والتجانس بين العناصر الجرمانية الثلاث التي اشتركت في غزو بريطانيا فإن التماسك بينهم في البداية كان مفقودا ، ولم تتوحد أهدافهم ومشروعاتهم ، وربما يرجع ذلك إلى المساحات الشاسعة من المستنقعات التي كانت تفصل بين قبائلهم ، والغابات الكثيفة التي تقطع تسلس وحدتهم وتصددهم عن

(١) نظم حسان سداوى : تاريخ البحرا وحضارتها ص ٢٥ .

(2) " Germanic Law : The Anglo-Saxon Dooms " by Cantor in Med. World. pp. 92-3

(3) Trevelyan : op. cit. p. 91, p. 97

(4) Cantor : Med. Hist. p. 127.

(5) Painter; A. Hist. of the Middle ages. p. 82

الاتصال بعضهم ببعض (١) ، ولهذا لم تصبح إنجلترا دولة متحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة ، ومن مظاهر هذا الانقسام وعدم التعاون ، قيام مالك قبلية عظيمة سميت بالممالك السبع Hptarchy ، وهي الممالك التي أنشأتها العناصر الثلاث المهتركة في هذا الغزو (٢) ، أقام الجوت ملكة كنت ، وكون السكسون ثلاث ممالك هي اسكس وسكس ووسكس ، واختص الانجلىز بالثلاث الباقية وهي انجليا الشرقية (ايشت انجليا) ومرتيا ونورثمبريا ، ولقد تقلصت هذه الممالك إلى ثلاث ممالك فقط ، وساعدت الظروف الجغرافية على تكوين هذه الممالك ، إلا أن الحروب الداخلية طغت الجرمان عن تطورها (٣) .

فقد اندلعت الحروب الطاحنة بين تلك الممالك ، واهتم ملوكها بإثارة البغضاء وشن الحروب فيما بينهم ، وسمت خمسة بعضهم لتبيل الواسعة في تلك الدويلات الجرمانية ، وتصفية أملاك جيرانهم واحتواء مالكمهم ، فإذا أزل أحدهم المزعجة بالآخر ، احتوى أرضه وأضافها إلى مملكته أو ألزمه بدفع إتاوة معينة ، وإذا استطاع أحد هؤلاء الملوك إلحاق المراتم بكل أنداده ومنافسيه ، حصل على سيادة إنجلترا كلها (٤) . وما حدث في ملكة كنت Kent التي كونها الجوت ، وقد كانت جنة إنجلترا منذ القدم ، وأعظم جهاتها تقدما وحضارة ، يؤكد هذه الحقيقة ، فقد ظهرت مدنية هذه المملكة مزيجاً من عناصر حضارية متنوعة ، وظلت على حصة

(١) Ellis and Fisher : A Hist. of English life V. I. p. 65

(٢) نشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق ١ ص ١٧٢

Davis & Archer : " The British Isles " B.H. VII. p. 3737

(٣) Rayner : op. cit. p. 10-11

(٤) نشر : قس ص ٢٩-٤٠ ، ديفي : نشر ص ٣٢ .

بجيرانها من البريطانيين الرومانيين ، فضلا عما قام بينها وبين شعوب أوروبا من علاقات تجارية وصلات اجتماعية (١) . وشهدت هذه المملكة أوج عظمتها أيام حكم ملكها إثلبرت Aethelbert ، وكان هذا الملك صديقا لقديس أوغسطين السفير ، واستطاع أن يفرض سيطرته على كل الممالك الأخرى (٥٦٠ - ٦١٦ م) كما كان اعتناقه للمسيحية إيذانا بفترة جديدة في تاريخ البلاد (٢) فقد أخذت المسيحية تنتشر من جديد فيها ، وبدأ انفتاح الجزيرة البريطانية من جديد على القارة الأوروبية (٣) ، لكن مالبثت ملكة كنت المجتعية أن فقدت قيادها ، وأصابها الذبول وأخطت مكانها لمملكة أخرى تقدمت الصفوف وحملت لواء الوعامة ، وتكرر ذلك أيضا في ملكة نورثمبريا Northumberia الإنجليزية التي مالبثت أن حازت السيادة في إنجلترا بفضل اتصالها بالمسيحية الكلتية (٤) فحلت القبائل الإنجليزية في نورثمبريا وليستر وهدفورد وكامبردج ، وفي أقصى الشمال نزل البرسيون وهم فرح من الإنجليز ، وامتزجوا بالكلتين امتزاجا وثيقا ، نشأت منه ملكة نورثمبريا التي استقامت لها ولحضارتها الكلتية زعامة الممالك الثابتة بهمال الجزيرة (٥) ، ولقد ازدهرت ملكة نورثمبريا في القرن السابع ولاسيما تحت حكم ملكها أوزوالد Oswald وأوزوي Osway (٦) ، وظلت رائدة الممالك الجرمانية حتى سنة ٦٥٨ م لكنها اضطرت بعد ذلك إلى الانزواء ، وترك القيادة لملكة إنجليزية أخرى ،

(١) انظر حسان سمداوى : تاريخ إنجلترا وحضارتها ص ٣٧ .

(2) Oman : op. cit. p. 193

(3) Davis : "The British Isles" B.H. VII. p. 3505

(4) Cantor : Med. Hist. p. 204

(٥) انظر حسان سمداوى : قس المرجع ص ٣٤

(6) Rayner : op. cit. p. 11

ثم كانت نهايتها على يد زعيم القراصنة الدانين منجوار سنة ٧٦٩م حين اكتسبها بين ما اكتسح من الممالك الانجليزية الواقعة بين التيمز والفكيد في حملة واحدة خاطفة ، فأكره أهل هذه الممالك على دفع ضريبة الذهب الداني ^(١) . ثم صار للمملكة مرسيا الزعامة لفترة طويلة ، امتدت إلى قرب نهاية القرن الثامن الميلادي أي إلى نهاية عهد ملكها الكبير أوتا Offa (٧٥٧-٧٩٦م) ^(٢) ، وشهدت هذه المملكة فترة من الازدهار تحت حكم أوتا ، فنال شهرة واسعة وعامله ملوك أوروبا على أنه مساو لهم ، وكان قد بنى الحائط الخائلي العظيم الذي عرف بـ Offa's Dyke ليكون حداً فاصلاً بين إنجلترا وويلز ^(٣) ، ثم ضعف هذه المملكة بعد ذلك وساهمت موجات منجوار زعيم القراصنة الدانين في القضاء على هذه المملكة وخاصة بعد أن استولى منجوار على نوروتجهم في إنجلترا الوسطى ، فانظمت الزعامة إلى مملكة أخرى سكسونية هي مملكة وسكس Wessex (٨١٩-١٠٦٦م) التي أسسها الملك إيجبرت Egbert (٨٠٢-٨٣٩م) ^(٤) ، وكانت هذه المملكة قد اخترقت في عهد ملكها كيولن Ceallin (٨٦٠-٨٩٢م) خطوط المقاومة التي بُنيت عليها البريطانيون عشرات السنين وامتدت حدودها ما بين نهرى التيمز وسفره ، وفصلت بين بلاد الغال الغربية وشبه الجزيرة المتد في الجزء الجنوبي الغربي منها ^(٥) ؛ والواقع أن هذه المملكة غدت أعظم قوة سياسية في إنجلترا قبل

(١) نظهر حسان سبداوي : قس ص ٨

(2) Davis : op. cit. p. 3506

Trevelyan : op. cit. p. 31

(3) Rayner : op. cit. p. 11

(4) Davis : "The British Isles" B. H. VII. p. 5307

(٥) نظهر حسان سبداوي : نفس المرجع ص ٣٩

سقوط الغزاة الجدد من الدانين في القرن التاسع الميلادي (١)، فقد تهيأ لها بفضل ملوكها الأقوياء فرصة المقاومة الباسقة ضد غزوات المهاجرين الجدد، وهوى إليها المحاربون من الملوك المهزومة التي هدها الدانيون، وكان الملك إيجبره Egbert قد اختير ملكاً سنة ٨٠٢ بعد استدعائه من منفاه في بلاط شارلمان حيث حيث كان أوطاً قد نفاه من قبل فقضى سنوات من شبابه في بلاط الملك الفرنجي الكبير، ثم عاد من جديد ليستعيد مملكته ويرزم المرسيين في معركة إيلاندون Eilandune سنة ٨٢٥، وقد منحه ذلك النصر فرصة احتواء مرسيا والممالك التي حكمها المرسيون مثل كنتي وسكس وإنجلترا الشرقية، كادانت له نورثمبريا واعتبر أول ملك يحكم كل إنجلترا (٢)، وأخير مؤسساً لعهد الفتوة في هذه المملكة السكسونية (٣)، وتولى بعده ابنه إيثيلولف Ethelwulf فقام بإصلاحات هامة في المملكة، أبرزها عنايته بالكنيسة الإنجليزية وتوطيد صلاتها بروما، وقيامه برعاية روما حاجاً مصطحباً معه ولده ألفريد Alfred وهو في الرابعة من عمره، فبارك البابا حجتها وشملها بكريم رعايته (٤).

تولى الملك ألفريد العظيم (٨٧١ - ٨٩٩) عرش هذه المملكة، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، أي أنه لم يكن في سن تمكنه من إنجاز كل ما أنجزه، وتحقيق كل ما تحقق على يديه من أعمال (٥)، إلا أنه ومع ذلك استطاع أن

(١) غفر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق ١ ص ٤٠

(2) Rayner : op. cit. p. II

(3) Trevelyan : op. cit. p. 67, 70

(4) Rayner : op. cit. p. 15

(5) Painter : op. cit. p. 91

ينفذ مملكته من خطر الدانين ويمنعهم من الاستيلاء على الجزيرة برمنشا ، إذ
 أنزلهم الجزيرة سبع مرات كانت أخراما في واقعة إدينجتون (Edington) (Ethandone)
 سنة ٨٧٨ فأوغم زعيمهم على قبول شروط ودمور Wedmore سنة ٨٨٦ (١) .
 ومن بينها موافقته على التمسك وإقراره بأن تكون الحدود الفاصلة بينه وبين ملكه
 ألفريد خطا يمتد عبر الأقاليم الوسطى بالجزيرة على طول الطريق الروماني
 المعروف باسم واتلنج ستريت Watling-Street ، لتكون سلطة الدانين إلى
 الشرق من هذا الخط ويضم نور كهيرو لينكولن ولنكشير وايسيت انجليا وشرق مرسيا (٢)
 ثم عاد ألفريد بعد ذلك بسبع سنين فأكره الدانين على إقرار معاهدة أخرى
 جرى بموجبها مد حدود مملكته إلى الشرق داخل أراضيهم ، ففتت لندن تحت
 سيطرته مستقطعا إياها منهم وقام بتحصنها من جديد بعدما نزل بها من تخريب
 على أيديهم (٣) . وبالإضافة إلى ذلك شرع ألفريد العظيم في تحسين وتنظيم المملكة
 السكسونية ، فبنى خمسة وعشرين حصنا متبعا حول وسكس ، وخر الخنادق وبنى
 الأسوار حول مدنها الكبيرة وشحنها بالحاميات العسكرية ، وشيد أسطولا
 عظيما (٤) ، حاول أن يتصدى به لفراسة الدانين ، وغزاة الفايكنج ، وجمع في
 لوزال هزيمة بحرية كبيرة بالأسطول الداني سنة ٨٩٦ م ، ونظرا لعناية ألفريد
 الشديدة بالبحرية ، اعتبر مؤسس البحرية الإنجليزية ، التي صار لها شأن عظيم

(1) Trevelyan : op. cit. p. 79, Rayner : op. cit. p. 16

(2) Davis & Arthur : op. cit. p. 3835

(3) Trevelyan . op. cit. p. 79

(4) Davis & Arthur : op. cit. p. 3835

Rayner : op. cit. p. 16

فيا بعد (١) . وفنلا عن هذا فقد أظهر ألفريد غاية تلبية بالجيش الوطنى ، ونصب على قيادته الفرسان الحليين ، وأعاد جميع وتدوين القوانين كلها ، كما أصدر قانونا شاملا لمادات السكون ، وأعاد كتابة قوانين الملوك الجرمان السابقين فى بريطانيا مثل ألفريد ملك كنت وأوفا ملك مرسيا (٢) .

وكان ألفريد حارسا من أحلام غرب أوروبا فى عصره ، لأنه لم يها أن يقيم داخل الجزيرة البريطانية ، وإنما مال إلى الانفتاح على القارة الأوروبية ، وصادق شارلمان معاصره ، ومثله فى كثير من الأوجه ، فقد كان كل منهما بطلا من أبطال المسيحية ضد الوثنية والكفر ، وكان كل منهما محاربا فذا ورجل دولة ومنظما بارعا وراعيا للعلوم والفنون والآداب (٣) ، وكان قد زار روما وأبدى عناية فائقة بالآداب والعلوم الإنجليزية وعنى بالمدارس ، ونقل عن شارلمان كثيرا من اهتماماته العلمية وميوله الأدبية ، فأنشأ مدرسة القصر بمملكته واستقدم إليها العلماء والأدباء من قلب القارة الأوروبية ولاسيما من ألمانيا وفرنسا وخلق بها أبناء النبلاء العلم (٤) ، واستعان بالمترجمين فى النواحي العلمية والثقافية لتثقيف نفسه وشعبه ، واهتم بترجمة الكتب اللاتينية الهامة إلى الإنجليزية ، ومنها أشهر مؤلفات ييدى وأورسبوس وجريجورى ويوفريوس والقديس أوغسطين ، وترجم همو نفسه بعض الكتب إلى الإنجليزية ، وسجل تاريخ بلاده بالإنجليزية ، وألف كتاب

(1) Painter ; op. cit. p. 92

(2) Davis & Arthur : op. cit. p. 3836

(3) Cantor : Med. Hist. p. 87

Rayner : op. cit. p. 16

Truvelyan : op. cit. p. 78

(4) Rayner : op. cit. p. 18

تاريخ الأنجلو سكوت، فطلا عن اهتمامه بالأدب والفن حتى ليعد مؤسس
الفن في الأدب الإنجليزي (١).

ولقد وضع ألفريد العظيم أسس النهضة العسكرية والمهد الزاهر لمملكة
وسكس، فقد تمكن ابنه وخليفته إدوارد الأكبر Edward the Elder
(٩٠٠-٩٢٤م)، بالاشتراك مع إملرد ملك مرسيا من غزو الدانين في البقاع
التي تمركزوا فيها في نورمبريا وإيست انجليا ورسيا، وصفى أملاكهم شرفى
والننح سترينج (٢)، كما استطاع حفيده أثلستاف Athelstan (٩٢٤-٩٤٠م) أن
يصد هجومًا هائلا لدانين في واقعة برونابرى Brunanburgh سنة ٩٣٧م، وبلفه
ملكة وسكس أوج قوتها وعظمتها على عهد ملكها إدجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م)،
بفضل سياسته الحكيمة، وما استنه من التعاون بين الكنيسة والملكية السكسونية وكان لهذا
التعاون نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ إنجلترا من ناحية والقارة الأوروبية،
من ناحية أخرى (٣)، فقد أسفر هذا التعاون عن بحث النشاط في
الديرية في إنجلترا، بعد أن كان الغزو الداني قد أصابها بالذبول وأبعد إصلاح
الآديرة وتنظيمها على أسس قوية، فعادت الديرية البندكتية سيرتها الأولى (٤).

يستنتج من كل ما سبق أن ملكة وسكس حازت الغلبة على سائر إنجلترا نحو
سبع وسبعين سنة بعد وفاة ألفريد العظيم، فدت نفوذها إلى أبعد من أراضيها

(1) Davis & Arthur : op. cit. p. 3837

(2) Ibid : p. 3836; Trevelyan : op. cit. 81

(3) Cantor : Med. Hist. p. 205

Rayner : op. cit. p. 18

Davis & Arthur : op. cit. pp. 3836-7

(4) Rayner : op. cit. pp. 8-9

وحسنت بلاد الدانين بالانجلترا ، كما نصحت بفضل تعاونها مع الكنيسة في النجاة من الاخطار التي هددتها ، وأعادت من جديد الحياة إلى الديرية في انجلترا ، وبعث النشاط في الديرية البند كنيته ، بعد أن كاد الفرو الداني يقضى على تلك الحياة وعلى الثقافة أيضا (١) . ولقد شهدت ملكه وسكس على عهد ملكها إرنلد الثاني (٩٨٧-١٠١٦ م) ، فترة ضعف واضمحلال بسبب صغر سن هذا الملك من ناحية ولجئء للموجة الثانية من موجات الدانين الغزاة من ناحية أخرى ، وقد اشتدت وطأتها اعتبارا من بداية القرن الحادى عشر (٢) ، فلجأ إرنلد لإزاء تلك الاخطار إلى عقد مصالحة سياسية مع دوقية نورمانديا ، فتزوج من ابنة ريتشارد دوق نورمانديا ليستعين به على الغزاة ، فضلا عما لجأ اليه من شراء مسألتهم بدفع مبالغ كبيرة من المال ، ففرض الضريبة التي عرفت بذهب الدانين أو مال الدانين Danegeld (٣) ، وأمام ضغط الدانين وخطرهم اضطر إرنلد في النهاية إلى الفرار إلى نورمانديا مصطحبا زوجته النورمانية وأولادها ، وأقيم سوين ملك الدانين ملكا على انجلترا سنة ١٠١٣ م ولما توفي هذا الملك في نفس العام ، ولى بعده ابنه ذائع الصيت كانوت Canute (٤) .

ومما يكن من أمر ، فإن تاريخ انجلترا في تلك الحقبة يمثل تاريخ المملكة المهيمنة ، التي تحولت في ظلها الممالك الأخرى إلى كيانات أشبه بالمقاطعات ،

(1) Cantor : Med. Hist. p. 206

(2) Bayner : op. cit. p. 20

(3) Trevelyan : op. cit. p. 96

(4) Cantor : op. cit. p. 207

دون أن تفقد تلك الممالك المتدثرة طابعها أو وحدتها (١)، بل تمتع بمصنوعاتها في ملكة كبيرة واحتفظت في بعض الأحيان بأفراد بيتها الحاكم وقد تحوّلوا مع الوحدة الجديدة إلى رؤساء مقاطعات (٢)، وظلت هذه المقاطعات تحتفظ بأشكال المؤسسات الدستورية والتشريعية القديمة، فظلّ للمقاطعة جميعها الشعبية التي تتكون من محاربين يجتمعون مع الزعماء مرتين في كل عام لبحث ما يهم المقاطعة والتهاور فيما يمن لهم من أمور. وحافظت المملكة الكبرى على نظامها الدستوري والتشريعي الجرمانى، فكان لها جمعية عمومية تكونت في أغلب الأحيان من رؤساء المقاطعات وهيئة من المحاربين من رجال الملك وحاشيته، إلى جانب الأساقفة وبعض مقدى الإدارة (٣).

وكانت المسيحية قد تهيّأت في الجزر البريطانية، على أثر غزوات الجرمان، بعد أن تراجعت العناصر الكلتية، وفرت أمام الغزاة وبقيت آثار السلطة الرومانية، وغرقت البلاد في عهد وثني جديد، لكن لم يكبد يفتى القرن السادس وتستقر الأوضاع وتنتشع ملكة كنت الجزرية، مزمعة لكافة الممالك حتى جادت إنجلترا من جديد إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية (٤)، ولم تنقل المسيحية إلى إنجلترا في هذه المرة عن طريق خالة، وإنما وصلت إليها من إيطاليا مباشرة على يد أشهر المبشرين في ذلك الوقت وهو القديس أوغسطين الصنوبر مبسوث البابا جريغوري العظيم (٥٠٩-٥٤٠ م) (٥). فقد رأس أوغسطين الصنوبرية مكرمة

(1) Davis : op. cit. p. 3507

(2) Trevelyan : op. cit. p. 61-62

(٣) سداولى : المرجع السابق ص ٢٩

(4) Davis : op. cit. p. 3505

(5) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 538-40

من أربعين واحبا ، كان من أعضائها ثيودور الطرسوسى Theodor of Tarsus وكان أوغسطين أحد كبار الديريين البندكتيين ، ولهذا أظهر تمحسا كبيرا لتبشير بالمسيحية في تلك البلاد على الرغم من الصعوبات التي اعترضت طريقه حتى قبل وصوله إليها ، لكن مالم أن صادف أوغسطين حظا طيبا في مهمة (١) ، فقد كان الملك إثلبرت ملك كنت قد تزوج أميرة فرنجية تستق المسيحية ، واستطاعت هذه الأميرة أن تحوله من وثنيته إلى المسيحية ، فاستقبل أوغسطين في إنجلترا استقبالا حافلا ، بمجرد وصوله سنة ٥٩٧ م ، وسهلت مهمته في التبشير بالمسيحية ، وتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين (٢) . ولم يبذل أوغسطين ورفاقه جهدا كبيرا في مملكة ، كنت ، بسبب تحول غالبية سكانها إلى المسيحية ، على اثر اعتناق ملوكهم لهذه العقيدة ، ولأن الناس تنعموا بما شاء لهم ملوكهم من العقائد ، بل انتشرت المسيحية في غير مملكة كنت من الممالك السكسونية والإنجليزية الحاخامة ، ومعظم ماصادف أوغسطين ورفاقه من معقة كان في بقية أنحاء الجزيرة البريطانية ، حيث بدأت المسيحية تتقدم تقدما بطيئا ، ونزل القديس أوغسطين في مدينة كانتبرى عاصمة الملك إثلبرت ، وجدت البعثة التبشيرية في إعادة بناء كنيسة القديس مارتين ، التي ترجع إلى العهد الرومانى ، فأقاموا بذلك أول كنسرواية مسيحية في إنجلترا ، وأصبح أوغسطين الصغير أول رئيس لأساقفة كانتبرى (٥٩٧-٦٠٥) (٣) وبدأت المسيحية تتقدم في بقية الممالك الجرمانية بالإنجلترا في نورثمبريا وإيسن انجليا ومرسيا ووسكى ، غير أن مدينة لندن أظهرت عنادا شديدا للعقيدة الجديدة ، وطردت

(1) Pirnne : op. cit. p. 127

(2) Trevelyan : op. cit. pp. 40-50

(3) Pirnne : op. cit. p. 127

يمعق أو غسطين إليها ، وخيبت أمسل البابا جريجورى لمجملها مركزا للمسيحية وحسنا في إنجلترا ، بدلا من كاتبرى ، لكن على الرغم من هذا كافة دخول إنجلترا دائرة الكنيسة الغربية من جديد قد عرض جزءا من الخسارة التي منيت بها الكنيسة بعد ذلك حين استولى المسلمون على أسبانيا ونشروا الإسلام فيها (١).

وحازت الكنيسة الغربية بذلك السيادة على إنجلترا ، وصارت صاحبة الأمر والتي في شئون المسيحية فيها ، وتولى أسقفية كاتبرى في القرن السابع نضر من رجالها تميزوا بالحماسة والدأب على تأييد نفوذ البابوية وسلطتها ، وأظهروا همة في ربط إنجلترا بسجلة البابوية ووجيا وحضاريا (٢) ، ومن هؤلاء فيثاليان ثيودور الطرسوسى ، وكان من أصل يونانى وقد صرف همه إبان رياسته (٦٦٩-٦٩٠م) لإنشاء المدن الأسقفية ، وجعل مدينة يورك عاصمة إقليمية روحية ، وإعفاء النظم الرومانية والثقافة الرومانية على الكنيسة الانجليزية ، وعقد أول مجامع دينية عرفتها الكنيسة في إنجلترا ، وبذل مساعيه الحميدة لدى ملوك إنجلترا لمنح الكنيسة الانجليزية الأراضي للصرف منها على الكنائس والأديرة ولا غرو إذا عد هذا الرجل مؤسس الوحدة الدينية الانجليزية (٣) ولقد ترتب على هودة إنجلترا لظهور المسيحية وسيطرة روما على شئونها الدينية أن ارتبطت إنجلترا من جديد بسجلة الأحداث الأوروبية ، وحدثت صلة ثابته بينها وبين العالم اللاتينى ، وأظهر الزهبان الأوغسطينيون مهمتهم في تعليم الناس اللاتينية والمسيحية

(١) سجد طاعور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ١٠٧ .

(2) Pirenne : op. cit. p. 127

(3) Painter : op. cit. p. 87 ,

الفصل العاشر

ملك الباردين بإيطاليا

ظهور الباردين - حالة الباردين قبل غزوهم لإيطاليا من
النواحي الحضارية والدينية والسياسية - تعاون ملكهم أودين مع
فارسيين ضد القوط الشرقيين - الغزو الباردي لإيطاليا سنة ٥٦٨م
تحت قيادة الملك ألويين بن أودين - استقرار الباردين فوق سهل
نهر إلبو واتخاذهم بافيا عاصمة - مقتل ألويين واختيار كليفو
ملكاً - السلطة البيزنطية في إيطاليا - مدح انتشار الباردين فوق
أرض إيطاليا - عودة الباردين إلى اختيار ملك جديد في ظل
تهديد الفرنجة - التحالف بين البيزنطيين والفرنجة لمحاربة الباردين
ملوك الباردين : الملك أوتاري - أجيولف - خطر الآفار بالنسبة
لمملكة الباردين على عهد أجيولف - أدولف - عهد الملك روتاري -
نشاط البيزنطيين في إيطاليا - الملك ليتبراند - استولف ومناصنة
النفوذ البيزنطي في شمال إيطاليا والاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١م -
ازدياد نفوذ البابوية - حروب استولف ضد البابوية - طلب
البابوية تدخل الفرنجة - غزو شارلمان لإيطاليا بمدونة استولف
وإنهاء المملكة الباردية .

ترتب على انبهار إمبراطورية الهون في النصف الثاني من القرن الخامس
الميلادي ، وعلى وفاة جستنيان سنة ٥٦٥م ، أن تفتت الظروف بالنسبة لكثير من

القبائل الضاربة بشرق أوروبا ووسطها ، وتبدلت أوضاع كثير من القوي ، سواء تلك التي دانت لأتيليا أو التي دارت في فلكه ، أو التي أخضعت السكينة في عهد جستنيان (١) ، إذ برز الآفار في حوض نهر الدانوب ، وبدءوا يلعبون دورا هاما باعتبارهم وارتزوا الامبراطورية الهونية ، وصبت الجيوش وهم من بقايا القوط الذين ظلوا في هذه الجهات بعد رحيل بقية القبائل إلى أسبانيا وإيطاليا (٢) ، وكذلك عبرت السلاف في المنطقة ، مستغدين دون شك من الظروف الجديدة للماء الفراخ الذي تركه كل من أتيليا وجستنيان (٣) .

غير أن ظهور اللبارديين على مسرح الأحداث بعد أبرز تلك التغيرات ، كما بعد غزوم لإيطاليا في القرن السادس أهم نتائج هذه التغيرات . والليبارديون أحد الشعوب الجرمانية التي انسابت من موطنها الأول حول البحر البلطي إلى أطراف الامبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي ، بل كانوا آخر موجة من موجات الغزوات الجرمانية التي ساهمت في صنع جانب من التاريخ الأوروبي الوسيط (٤) ، إذ بدءوا ينسابون ببطء في حوض نهر الراين نحو نهر الدانوب ، وظهروا في بافاريا منذ نهاية القرن الخامس ، فبدأ احتكاكهم بالمسلم الروماني يرداد ، وفي السنوات التي تلت اندحار أوداكر في إيطاليا ، كان الليبارديون يستقرون في أواسط الدانوب ، وأصبحوا يجاورون كلا من الجيبيدي والقوط

(1) Heyck : "The Great Teutonic deluge". in B.H, VII, p. 3454

(2) Oman : op. cit. p. 183

(3) Hussy : op. cit. p. 22, Rique : op. cit. p. 70

(4) Lot : op. cit. p. 285

الشرقيين (١) ، وطغفوا يسيطرون سلطانهم على جيرانهم بالقوة تارة وبالتحالف تارة أخرى ، لكنهم لم ينازحوا الامبراطورية البيزنطية سلطانها في بادىء الامر بل خمدوها فترة قبل أن يصبحوا أداة لزعزعة النفوذ البيزنطى فى إيطاليا (٢) ، والواقع أنه ترتب على طرد القوط الشرقيين من إيطاليا نتائج بالغة الاهمية، وكان من الانفع للامبراطورية فعلاً أن تصادق أولئك القوط، لتدأ بهم شر عناصر أكثر بربرية ، فقد كان القوط الشرقيون أكثر الشعوب المتبررة حفاظاً على الحضارة ولتنظم الرومانية (٣) ، ولو لم تصدع دولتهم فى إيطاليا لما حدثت الفزوات البارادية ، ولما برزت دولة البابويه بكيانها واستقلالها ولما تضاربت المصالح المختلفة فى ذلك القطر الكبير ومزقه الخن ، وألحق عليه صروف الزمان .

فلم يمض أكثر من خمسة عشر عاماً على هودة إيطاليا الى حظيرة الامبراطورية حتى زحف اللبارديون من أواسط الاندالوب الى إيطاليا مرتسحين خطى ميودريك يحفزهم صيعة نجاحه ، وكان اللبارديون أكثر الشعوب الجرمانية تغلباً ، وأقلها حظاً من الحضارة (٤) ، لأنهم ظلوا يمزج عن المدنية الرومانية ، قابعين فى ظلام الشمال فترة طويلة ، فلما بدءوا فى التدفق إلى حدود الامبراطورية ، كانت هذه قد تصدعت وانهارت (٥) ، ومن ثم ظل اللبارديون فى نفس المستوى من الحياة

(1) Oman : op. cit. pp. 181-2

(2) Pirenne ; op. cit. p. 69

(٣) نعر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٥١ ،

Lot : op. cit. p. 286

(4) Grant : op. cit. p. 133

(5) Heyck ; op. cit. p. 3454

القبيلة الذي رسمه تاجيتوس عن الصعوب الجرمانية في القرن الثاني ، وكان يجري انتخاب الملك من بين البيوت الملكية بواسطة كل الشعب الباردي (١) .

وكان البارديون يستقون المسيحية الأريوسية ، ويتسمون بشيء من الغلظة والقسوة ، فأذاقوا الإيطاليين كثيرا من أصناف المذات ، وانزعوا منهم أراضيمهم ، وأنزلوهم إلى مراتب العبودية ، وتعمصوا كثيرا لأصلهم الجرمانى وحضارتهم الجرمانية ، ومثلوا فئة أرستقراطية مميزة ، لكنهم استعملوا اللغة اللاتينية ، وتحوّلوا فيها بعد من الأريوسية إلى الكاثوليكية ، التي انتشرت بينهم بعد أن اعتنقها أحد ملوكهم (٢) ، وكان أدوين Audein هو ملك البارديين المنتخب في الفترة الحامة التي شهدت حروب نارسيس ضد القوط الشرقيين بإيطاليا ، وهو الملك الذي استطاع نارسيس أن يحصل على موته ضد القوط ، بما بذله لهم من الأموال والهدايا ، فقاد أدوين بنفسه نحو خمسة آلاف عارب وانحاز إلى الجيش البيزنطى في غزوه لإيطاليا سنة ٥٥٢ م (٣) وأبلى بلاء حسنا في معركة قاجين Taginae ، ويبدو أن هذه الحرب هي التي أوضحت للبارديين مدى ثروة إيطاليا وغناها ومدى ضعفها وتفككها في نفس الوقت ، ولم يؤخر غزوهم لها نحو خمسة عشر عاما بعد ذلك سوى انشغالهم في حروب طاحنة مع جيرانهم في الدانوب من ناحية وكبر سن ملوكهم أدوين من ناحية أخرى (٤) .

(1) Oman : op. cit. p. 182

Pirene : op. cit. p. 70

(٢) هاجن : أودوا في العصور الوسطى ص ٤٠ ،

Cantor · Med. Hist p. 164

(3) Lot : op. cit. p. 262

(4) Oman : op. Cit. p. 182

والواقع أنه لم تقم ليندطة حكومة قوية في إيطاليا على عهد جستنيان ، إذ لم يسيطر النائب الامبراطوري في رافنا ، في وقت من الأوقات على جميع البلاد ، ولم يستطع أن يحصى حدودها البتة من هجمات الأعداء ، فتدفق البارديون عليها ، ولم يلبثوا أن دقوا أوتادهم في البلاد سنة ٥٦٨ م^(١) ، فحين انتهت الحرب بين البارديين والجيبيدائ سنة ٥٦٦ ، بفضل مساعدة الآفار البارديين ، كان ألبرين Albein ابن أدوين قد أصبح ملكا على البارديين وصمم على غزو إيطاليا^(٢) ، وقاد قومه فعلا في صيف سنة ٥٦٨ ، واجتاز بهم جبال الألب الشرقية واخترق الأراضي الإيطالية عن طريق شبه جزيرة أستريا^(٣) ، ونزل بهم بسهولة الفبال الفسيحة ، دون مقاومة تذكر ، بل سارحت بعض المدن مثل أكويليا Aquileia وميلاو بفتح أبوابها واستقبال الغزاة بترحاب ، ولم تقاوم سوى بعض المدن التي نزلت بها حاميات ليندطية مشل : فيرونا وبادوا وبافيا ، وسرعان ما انتشر الغزاة المحدد فوق سهل إلبو حتى أبواب رافنا^(٤) . وهكذا لم يصادف البارديون سوى مقاومة خفيفة من الحامية الليندطية ، التي اعتمدت في البداية على المراسم والثغور والمدن المسورة لصد الغزيرين ، إلا أن ذلك كله لم يوقف زحف الغزاة ، لما لبثت أن دانت فيرونا ، فضلا عن ميلاو وأكويليا ، فاحتلوا بافيا عاصمة لهم ، وانتشروا فوق سهل نهر إلبو^(٥) ، بكثافة بحيث ضحوا هذا

(١) لغر : نص المرجع ص ٥٠

(2) Helmolt : "Italy and the Lombards" in B. H. VII, p. 3460

(3) Lot ; op. cit. p. 285

(4) Nearder & Waley : op. cit. p. 30

Ostrogorky : op. cit. p. 72

(5) Helmolt : op. cit. p. 3460

السبل اسمه الجديد ، فندا يعرف بسبل لبارديا ، وفي خلال ثلاثة أرباع قرن برهن اللبارديون على أن سلطان بيزنطة لم يكن إلا سلعانا أجوف (١) .

وعلى الرغم من مقتل ألبرن بعد سنوات قليلة من بداية الغزو ، إذ قتل في مايو سنة ١٠٧٢ م ، فإن أدواق اللبارديين سارعوا باختيار أحدهم ويدعى كليفو Clepho ملكا عليهم ، فقام هذا باشتفاف غزو شمال إيطاليا حتى حدود نيكايا (٢) ، لكنه ما لبث أن لقي مصرعه هو الآخر على يد أحد غلمانه سنة ١٠٧٣ م ، وحينذاك توقف أدواق اللبارد لنحو عشر سنوات عن اختيار ملك جديد ، وظلت كل قبيلة ترح في أرباضها تحت رعاية دوقها المختار (٣) . ولم يفد الامبراطورية البيزنطية ما لجأت إليه من محاولة إعادة تنظيم الولايات الإيطالية على أساس دوقيات متعددة يسمح فيها الدوق بين السلطين الحرية والمدنية ، وترتبط كلها برباط الخضوع لأرخون رافنا ، على أن يجمع هذا بين السلطين الحرية والمدنية هو الآخر ، لكن حال دون قيام قوة إمبراطورية واحدة في إيطاليا ما حدث من تناثر هذه الدوقيات وتبشرها ، الأمر الذي بالغ في إضعافها ، ولم يؤد إلى نتيجة حاسمة في تغيير الأمور بهذه البلاد (٤) ، ولم يكن نفوذ الإمبراطور مويس (١٠٨٢ - ١٠٧٠ م) ساريا سوى في نحو ثمانية أقاليم ، أولها شبه جزيرة إستريا Istria وجنوب ساحل البندقية ، بما فيها من مدن قوية مثل بادوا وماترا ، وثانيها الساحل الليجوري Ligurian Coast بما فيه

(١) ديتز : نفس المرجع ص ٣٩

(2) Helmolt : op. cit. p. 3462

(3) Oman : op. cit. p. 186

(4) Camb. Med. Hist. V, II pp. 101-3

مدينة جنوا ، وكل المنطقة بين جبال الأبنين وساحل البحر ، وثالثها الأرض النجيلية بمدينة رافنا وشريط على طول الساحل الأدرياتي يمتد من دلتا نهر إلبو إلى أبوايه ريميني Rimini (١) ، ورابعها الإقليم الممتد من ريميني Rimini إلى أنكونا Ancona ، أما الإقليم الخامس فيقع في أمبريا Umbria رغم تدخل دوقيات المباردين في بعض أجزائه (٢) ، ثم تأتي أراضي روما لتمثل الإقليم السادس ، وهي أراضي واسعة في وسط إيطاليا وتمتد من الأبنين إلى البحر ، ولا يقطعها عن دوقية نابل وأمالفي التي تمثل الإقليم السابع سوى مدينة كابوا Capua المباردية ، وأخيرا تمثل كالابريا وبريتوم ولوكايا Lucania الجنوبية وكل المنطقة الساحلية الممتدة من برنديزي Brindisi إلى بوليكانسترو ، الإقليم الثامن والأخير من أملاك الإمبراطورية في إيطاليا (٣) . وواضح أن تنظيم هذا العدد المتناثر من الأقاليم كان يحتاج إلى جهد كبير ، بل إن منظم المباردين هو الذي تسبب في بروز قوة البابوية وجعلها سيدة أواسط إيطاليا في القرن السابع في ظل المصاعب الجمة التي عاقت الإدارة البيزنطية في هذه البلاد (٤) .

وكان انتشار المباردين ، في الفترة بين سنتي ٥٧٢ و ٥٨٣ فوق الرقعة

(1) Lot : op. cit. pp. 287-8

Grant : op. cit. pp. 133-4

Oman : op. cit. pp. 190-1

Oman : op. cit. pp. 190-1 (٢) ديلز : المجلد ٣٩ ،

(3) Prins : op. cit. p. 70

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 30

Oman : op. cit. p. 191

الإيطالية ، له دخل في بعثة هذه المناطق وجعلها تبدو كجزر بمزة وسط محيط
عالم ، فلقد كان المبارديون يمثلون في ذلك الدور اللعب الجرمانى الأول ،
الذى لا يبحث عن الملك بوصفه ركنا أساسيا في البناء القبلى ، ولكن كقائد حرب
يقودهم في المعارك ويجمع شملهم^(١) ، ومع ذلك فقد ظل توسع المباردين ساريا
فوق الأرض الإيطالية ناحية الغرب والجنوب ، فقد زحف ثلاثة من أدواق
المبارد نحو الغرب واستولوا على إقليم بروغانس ليصبح جزءا من الأملاك
المباردية ، في حين اتجه أدواق آخرون ناحية الجنوب في قلب شبه الجزيرة
الإيطالية^(٢) . وإذا لم يكن لدى أولئك الأدواق خطة منسقة للفتو ، فقد أخذ
كل يضغط يمينا ويسارا تاركا وراءه كثيرا من المدن الغاصة بالحاميات البيزنطية ،
حتى يجد مكانا صالحا للاستقرار فينزل فيه بقومه ، وهكذا كانت دوقيات
المبارد ومدن الرومان متداخلة في الأرض مشتركة في النفوذ والسلطان^(٣) ، ففي
وسط إيطاليا ترك فاروالت Farouald — أول دوق لسبوليتو Spolito — رافنا
وانكرونا Ancona إلى الشمال ، واستقر في الوادى الأوسط لنهر التير Tiber ،
وسط حاميات إمبراطورية تحيط به من كل جانب^(٤) على حين مرزوتو Zotto — أول
أدواق بنفتو Benevento — إلى أقصى الجنوب فأقام حكمه في وادى السامنايت
Samnite ، ففدا بمزول عن بقية الدويلات المباردية^(٥) .

(1) Oman : op. cit. pp. 186-7

(2) Lot : op. cit. p. 288

(3) Keen : op. cit. p. 5

(4) Helmolt : op. cit. p. 3462

(5) Oman : op. cit. p. 187

Pirenne : op. cit. p. 69

وفيما عدا وادي نهر إلبو الذي كان كله ملكا للمباردين، وبرتيوم *Bruttium* وكالابريا التي كانت كلها رومانية، فليس هناك جزء من الأرض لم يكن مشاركة بين الفزاة والحكومة الامبراطورية القديمة، وحين أصبحت الأمة المباردية في اختيار ملك لها في بافيا لم تكن سلطة هذا الملك واسعة بالنسبة للأدواق المبارد (١)، ولم يكن أدواق سبوليتو وبنفتو سوى برسم سلطة شكلية لهذا الملك، كما كانت سلطته مقيدة في سهل نهر إلبو نفسه وفي تسكاليا، ويبدو أنه ملوك المباردين لم يمنحوا للملكية إلا بحق أفضليتهم في القتال وسمو مكانتهم في الحرب (٢). هل أن الشعب المباردي لم يقبل على اختيار ملك جديد بعد فترة توقف دامت نحو عشر سنوات، إلا في ظل ظروف خلفها بعض أدواق المبارد، الذين هاجموا إقليم بروفانس سنة ٥٧٤ - ٥٧٥م، وفجروا الحرب مع الفرنجة، وهي الحرب التي امتدت سنوات طويلة (٣)، في الوقت الذي أرسل فيه الإمبراطور البيزنطي ثيودوروس *Tiberius* السفارات والهدايا للملك الفرنجة يطلب مساعدتهم ضد المباردين في إيطاليا، كما بعث الإمبراطور موريس سنة ٥٩٠م إلى الملك الفرنسي قهلقبرت يطلب مساعدة الفرنجة ضد المباردين في إيطاليا أيضا (٤)، وكما فعل الإمبراطور هرقل حين تحالف مع داجوبرت ملك الفرنجة (٥٦٨ - ٦٢٨م) ضد المباردين في إيطاليا كذلك (٥). وهكذا ساعد

(1) Helmolt : op. cit. p. 3402.

(2) Oman : op. cit. pp. 187-8

(3) Lot : op. cit. p. 285

(٤) نفس : نفس المرجع السابق ص ٧١

(5) Oman : op. cit. p. 190

نشاط المباردين في غالة على إيجاد تقام بين البيزنطيين والفرنجة^(١)، وفي ظل هذه الظروف تم اختيار ملك لمباردي جسدته هو أوثاري Anthari ابن كليفو سنة ٨٨٣ م، وكان والده قد قتل من قبل وظل العرش خاليا إلى أن تم اختيار أوثاري ملكا على المباردين^(٢).

ولقد شغل أوثاري (٨٨٣-٩٠٠ م) بالصراع مع ملك الفرنجة Childebert II تضلبره الثاني طيلة الايام السبعة التي قضاها في الحكم، فقد هدد الفرنجة بمحاولة نائب رافنا البيزنطي بسبورجبال الالب أكثر من ثلاث مرات، وغرخوا لمبارديا فلامرتين^(٣)، ولكن أخطر هجمات الفرنجة ما حدثت سنة ٩٠٠ م^(٤) حين انحدر جيهان كبيران أحدهما من برجنديا قاصدا ميلان، والآخر من أوستراسيا قاصدا ترنت Trent وفيرونا، وشق الاثنان طريقهما إلى أهدافهما وأشاعا الخراب والدمار في أملاك اللامباردين، لكنها فعلا في أن يلتقيا مما أو أن يلتقيا بالفرق الرومانية، التي كان نائب رافنا قد وعد بتقديمها. وهكذا فعلا في الوصول إلى ملك المباردين، الذي كان قد تحصن في بافيا، واضطر الجيهان المسودة إلى بلادهما^(٥). على أن أم مايير عهد أوثاري ما حدث من زواجه من ثيوديلندا Theodelinda ابنة دوق بافيا الكاثوليكية، التي قادت هذا الملك إلى المسيحية

(1) Pirenne : op. cit. p. 71, p. 190

(2) Oman : op. cit. p. 192

(3) Geaguet : L' Empire byzantin et La monarchie franque
p. 185. Pirenne : op. cit. p. 72

(4) Helmolt : op. cit. p. 3462

(5) Oman : op. cit p. 192

الكاثوليكية، وترتب على ذلك انفجار الكاثوليكية بين الشعب اللباردي^(١)، على الرغم من أن هذه الأميرة لم تتمك معه سوى فترة قصيرة، إذ توفي أوثناري سنة ٥٩٠ م، فاجتمع مجلس الوتان Witan اللباردي وفوض هذه الأملة الحكيمة اختيار ملك جديد للباردين، فأشارت باختيار أجيلوف Agilulf دوق تورين Torin، الذي كان ابن أخ الملك الراحل، وتزوجته فأصبح هذا ملكا جديدا في ميلان سنة ٥٩٠ م^(٢).

حكم أجيلوف مدة تقرب من خمس وعشرين سنة (٥٩١ - ٦١٥ م)، وحاش حتى رأى ابنه يافعا يشاركه الحكم، وشغل كسله بحرب الفرنجة، عامة في محاولتهم سنة ٥٩٣ م، كما نجح في اقتطاع بعض الأقاليم الإمبراطورية المبحرة^(٣)، وضم بعض المدن الهامة، فاستولى على ستريوم Satrium وأورتو Orto وتودر Tudar وبيروجيا Perugia وغيرها من مدن جنوب تسكانيا وأمبريا وذلك سنة ٥٩٨ م ولم يوقف هذه الحروب المستمرة بينه وبين البيزنطيين سوى تدخل البابا جريجوري العظيم^(٤)، ونجاحه في عقد صلح بين الطرفين سنة ٥٩٩ م لأول مرة، إلا أن الحرب مالبثت أن استؤنفت من جديد، فاستولى أجيلوف في هذه المرة على بادوا وماتوا وبعض القلاع القوية في المناطق المنخفضة على ساحل البندقية سنة ٦٠٢ م وبسقوط بادوا فقدت الإمبراطورية آخر مدينة قوية في قلب الأملاك اللباردية^(٥). ونظرا لما تعرضت له الإمبراطورية

(1) Lot : op. cit. p. 289

(2) Oman : op. cit. p. 193

(3) Helmolt : op. cit. p. 3463

(4) Camb. Med. Hist. V. II, pp. 200-201

(5) Oman : op. cit. p. 194

البيزنطية من خطر الفرنج، حصر الإمبراطور فوقاس، ثم من بعده هرقل من إرسال نجدات إلى رافنا أو روما ولهذا تركت يد أجيلولف حرة لإكمال غزوه للإملاك الإمبراطورية في إيطاليا، على أن هذا مرصان ما أدرك أنه ينبغي أن يمنح مملكته فترة هدوء وسلام، وأن يصرف همه لتأكيد سلطانه على الأدواق الخارجين لاسيما، وأن يحصر ثلاثة منهم نافسوه للوصول إلى السلطة ولكنه نجح في إخضاعهم دون كبير هتاء (١).

بيد أن الأخطار ما لبثت أن مهدت دولة اللبارديين من ناحية الحدود الشمالية الشرقية من قبل الآفار والسلاف، وندط السلاف وهدودا إيطاليا، لكن تهديد الآفار كان أخطر، إذ لم يحفلوا بماعتدوه من معاهدات مع أجيلولف وتوغلوا في شمال إيطاليا سنة ٦١٠ م، وأحدثوا الخراب والدمار في الشمال، ودمروا البندقية وحلوا معهم كثيرا من الأمرى ومن حسن حظ اللبارديين أن هذه الحرب لم تستمر طويلا إذ شغل الآفار بمشروعاتهم في شبه جزيرة البلقان (٢) وعلى الرغم من هذه المناعب فقد كان عهد أجيلولف عهد ثناء ورجاء وتوسع في حياة الملكية اللباردية، وعهد ازدهار وحضارة بالنسبة للبارديين، فقد شهدت سنواته الأخيرة تحول بقية اللبارديين إلى المسيحية، بعد استقرارهم في وطنهم الجديد، فبددوا يبنون الكنائس والفصور، وقيمون بعض العلاقات الطيبة مع البابوية، وتعلموا كيف يعيشون في شبه سلام مع جيرانهم بعد حروب متصلة على مدى الأعوام الثلاثين الأولى لخدمهم بإيطاليا (٣).

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 202

(2) Hussey : op. cit. p. 23

Oman : op. cit p. 195

(3) Oman : op. cit. p. 195

خلف أجيلزاف ابنه الوحيد أدالوالد Adalwald ، لكنه مالبث أن نزع من العرش بسبب إصابته بالجثون. فانخسار البارديون بدله دوق تورين Torin ويدهى أدوالد Arionald (٦٢٤ - ٦٢٦ م) ، الذى حكم نحو اثنتى عشرة سنة دون شيء يثير الانتباه اللهم إلا أنه كان على عكس أسلافه مسيحيا أريوسيا (١) ، وعند وفاته احتل العرش أشهر ملوك البارديين وأبدم ميتا وهو الملك روثارى Rothari (٦٢٦ - ٦٥٢ م) . فقد أكل هذا الملك فتح شيك إيطاليا بالاستعراذ على الجمعين اللتين كانتا ، وما تزالان في أيدي قوات الإمبراطورية (٢) ، فأخضع كل منطقة الساحل النيجورى من ليس إلى لونا بما فيها المدينة الهامة جنوا ، وذلك سنة ٦٤١ م ، كما ضم أيضا مدينته أودرزو Oderzo ، آخر أملاك الإمبراطورية ناحية البندقية ، وبذل روثارى جهدا كبيرا فى استخلاص هذه المناطق (٣) . على أن شهرة روثارى مرجعها بالدوجة الأولى لجهوده فى خدمة القانون الباردي ، فقد أصدر بمجموعة القوانين العرفية البارادية سنة ٦٤٢ م التى ولدت كانت تتناول حياة شعب جرمانى بدائى وتعالج المسائل المتعلقة بالقبيلة والوراثة والتزامات التبعية وغيرها ، مما يخلص الحياة القبلية أكثر مما يمس شعبا متحضرا يعيش فى قلب إيطاليا ، إلا أنها كانت بحق عملا هاما حفظ تراث هذا الشعب من الضياع ، وسجل لتطور حياته وتدرجها ، برغم استقراره فى وطنه الجديد (٤) ،

وبوفاة روثارى سنة ٦٥٢ م بدأت للنساب فى دولة اللنباردين الذين تفرقوا عن اقتطاع الأراضى من الإمبراطورية ، وغرقوا فى الحروب الأهلية

(1) Lot : op. cit. p. 280

(2) Helms : op. cit. pp. 343-4

(3) Oman : op. cit. p. 196

(4) Cantor : Med. Hist. p. 164

والنزاع الداخلي، ولم يمكث ابن روثاري في الحكم أكثر من ستة أشهر^(١)، في الوقت الذي بدأت فيه الإمبراطورية البيزنطية تحاول استعادة نفوذها الضائع في إيطاليا، على عهد الإمبراطور قسطنطين الثاني (٦٤١-٦٦٨ م)، الذي قاد حملة ضد اللباردين سنة ٦٦٣ م فاسترد بعض المدن، وحصل على نصر عسكري وحاصر بنقشوم، لكنه اضطر للتراجع عنها إلى نابلي، وقد ساهمت هذه المحاولات في وعزة النفوذ اللباردي في إيطاليا، والتزم اللباردين منذ ذلك الوقت سياسة الدفاع^(٢)، غير أن انشغال الإمبراطورية في مشاكلها الداخلية وفي حرب البلقان، فضلا عن توقف نشاط اللباردين في إيطاليا بالنسبة للفترة السابقة أدى إلى توقيع معاهدة سنة ٦٨٠ م التي تم بمقتضاها تقسيم إيطاليا بين البيزنطيين واللباردين فأشاعت قليلا من الهدوء والسلام في هذه البلاد^(٣)، وإن لم تقض على العداء المستحكم بين الطرفين؛ وذلك قبل أن ينتهز اللبارديون فرصة الهن ليوسعوا صفوفهم بقيادة ملكهم الشهير ليتوراند (٧١٢-٧٤٢ م)، الذي نجح في تأكيد سيادته على الأديان اللبارد في الشمال، وكان كاثوليكيًا عظمًا اهتم بالنواحي الدينية وبنى الأديرة وأظهر نزعة تقوى وورع^(٤). وقد استأنف ليتوراند العمل ضد الدولة البيزنطية، فاستولى على بعض المدن التابعة لها مثل بولونيا وريميني، وحرص على ألا ينجر صراحا كبيرا بينه وبين البابوية لما عرف عنه من "مس الكنيسة، ولما أظهره من تقوى وورع، فدفعه ذلك إلى عقد معاهدتين مع البابوية

(1) Lot : op. cit. p. 290

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 109

(3) Pirenne : op. cit. p. 72

(4) Lot : op. cit. p. 290

سنة ٧٧٠ م، ثم سنة ٧٧٤ م^(١).

وبعد وفاة ليتوبراند سنة ٧٤٣ م، احتل العرش الليباردى ثلاثة ملوك أهمهم استولف Aistulf (٧٤٩-٧٥٠ م)، الذى التهم فرصة انقضاء الإمبراطورية البيزنطية على عهد الإمبراطور فسطنطين الخامس بالزاعات الداخلية والحركة اللايقونية والتصدى للبغار والفرس، فاستولى على مدينة رافنا فى إيطاليا^(٢)، ووضع نهاية لنفوذ البيزنطى فى شمال ووسط إيطاليا سنة ٧٥١ م^(٣). وهكذا بلغ المد الليباردى مداه على عهد هذا الملك وعامة بعد أن فشلت حملات الفرنجة فى إيطاليا فى القرن السابع ضد الليباردين، وانتهت الحروب المستمرة معهم، وهى التى كان آخرها سنة ٦٩٣-٦٩٤ م^(٤)، غير أن البايوية كانت قد قويت وأخذت مكانتها منذ عهد جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤ م) لتصبح القاسم الأعظم لقسوى السياسة فى إيطاليا، بعد أن منحها الشعب تأييده على أثر انهيار السلطة الإمبراطورية وتصدعها فى البلاد^(٥). ثم كان سقوط رافنا فى أيدي الليباردين طاملا هاما فى تحررها من سلطة بيزنطة وانهاجها سياسة الاستقلال، وإذ لم يمدحها ما يدعواها لمداواة الامبراطورية البيزنطية والسير فى ركابها، بمد ضياع نفوذها وهيبتها فى كل شمال إيطاليا ووسطها، فضلا عن الخلاف الناشب بينها حول عيادة الصور والايقونات^(٦).

(1) Oman : op. cit. p. 287

(2) Oman : op. cit. p. 327

(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 151

(4) Pirenne : op. cit. p. 72- p. 101

(5) Hearder & Walsey : op. cit. p. 27,31

Lot : op. cit. pp. 297-306

(6) Ostrogorsky : op. cit. p. 151, Pirenne : op. cit. p. 70

غير أن ازدياد نفوذ البابوية لم يرض لملك الطموح أستولف ؛ كما أن امتداد أملاكها في إيطاليا مهدد الملكية اللباردية ، ولهذا نسط أستولف لضم بعض أملاك البابوية ، ولم يحفل بتهديد البابا بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو الاستعانة بالبيزنطيين ، فأتجه البابا نحو الفرنجة وطلب مساعدتهم ، لاسيما بعد أن نصب بين القصير نفسه ملكا مكلن الملك الليروفنجى سنة (١٧٥١)^(١) قلب بين مطالب البابا ، وقاد جيوشه مرتين لحرب اللبارديين في إيطاليا ، الأولى سنة ٧٥٤م والثانية سنة ٧٥٦م ، فأزله المروعة في المرتين بجيوش اللبارديين ، وأجبر أستولف على احترام البابوية ، وإعادة ما أخذ منها من أملاك ، ثم كانت وفاة أستولف في نفس العام سنة ٧٥٦م إيذانا بتفكك المملكة اللباردية في إيطاليا ، وطاملا هاما في ازدياد نفوذ البابوية (٢) ، ومالبت شارلمان أن يحارب اللبارديين وانصر على ملكهم انتصارا حاسما ووضع نهاية للبيت اللباردى في إيطاليا ، بعد أن حكم ملوكه مائتين من السنين ، واتخذ شارلمان لنفسه تاج المملكة اللباردية وأمر أن يذهب آخر ملوك اللبارديين إلى أحد الأديرة ليقضى حياته في صومعة من صوامع التسك (٣) :

وهكذا ظلت إيطاليا طوال تلك الفترة نهبا للقوى المختلفة ومطمعا للظالمين حيث أسس اللبارديون مملكتهم ، واستعاد البيزنطيون سطوتهم في بعض جهاتها ، وظهرت قوة البابوية وأخذت مكاتها الهامة في البلاد ، ولما استولوا على صقلية في القرن السابع أصبحوا يمثلون قوة أخرى في جنوب إيطاليا (٤) ، ولما

(١) فشر : قس المريج السابق ص ٨٢

(2) Oman : op. cit. p. 331

(٣) فشر : قس ص ٨٥

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 185

Firenze : op. cit. p. 158

سأت العلاقات بين البابوية وبين بيزنطة في القرن الثامن، تجمد وضع البيزنطيين في إيطاليا ، وانطلقت البابوية إلى جانب اللباردين ، واضطرتها الظروف إلى البحث عن بديل تعتمد عليه بدل بيزنطة، فاتجهت إلى الفرنجة بشماله (١)، فأظم الكارولنجيون دولة البابوية في إيطاليا عزيمة قوية ، وأزالوا من أمامها خطر اللباردين وأدى ذلك إلى استحالة تأسيس دولة موحدة في إيطاليا حتى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٠م) (٢) ، فضلا عما أحدثه ذلك من اتساع المنوة بين روما وبيزنطة واتساع المجال أمام البابوية لتصبح دولة سياسية مستقلة . ولهذا افتقرت إيطاليا طويلا للوحدة السياسية وظلت نهبا للطامع ومسرحا للصراع فترة طويلة من الزمن .

(١) نفع : نفس المرجع ص ٧٥

(2) Hearder & Waley : op. cit, p. 28



الباب الثالث
مالك النورمان بأوروبا

الفصل الحادي عشر

غزوات الفايكنج

من هم الفايكنج - اسكنديناوه وحوض البحر البطلي - صفات
الفايكنج وميزاتهم - اسباب غزوات الفايكنج في أوروبا - وجهة
كل فريق منهم - الأدوار التي مرت بها غزوات الفايكنج - غزو
الفايكنج لانجلترا: ألفريد العظيم والداديين ، انجلترا والداديين حتى
الفتح النورمانى - غزو الفايكنج لأيرلندا - أيرلندا والنرويجيين - الفايكنج
السويديين - غزوات الفايكنج في روسيا شرق أوروبا - دوقيات
الفايكنج السويديين في روسيا - دوقية كييف - الفايكنج والامبراطورية
الكارولنجية : على عهد شارلمان - لويس الثقي - للملك الفرنجية بعد
عهد لويس الثقي - هجمات الفايكنج على فرنسا - الفايكنج وشارل
البسيط - ظهور رولو - دوقية نورمانديا - تأثير النورمان بمظاهر
الحضارة الأوروبية - حضارة الفايكنج - المجتمع الفايكنجى - نظمهم
السياسية - مجتمع أيسلندا الفايكنجى - ثرات الفايكنج الأدبى -
الديانة المسيحية .

الفايكنج Vikings أو الفايكيون أو النورثمن Northmen هم مجموعة الشعوب
التي سكنت شبه جزيرة اسكنديناوه وشبه جزيرة الدانمرك وحوض بحر البطلى ،
من السويديين والنرويجيين والداديين (الدانمركيين) ، ويرجع أصلهم للعنصر

الجرماني أو النيتوتوني المعروف (١) ، وإن أدت عزلتهم في موطنهم إلى كثير من الاختلافات بينهم وبين عناصر الجرمان الأول الذين غزو أوروبا من قبل . ولقد ظل الفيكنج على وثبيتهم وتمسكهم بعبادة قوى الطبيعة ، وآلهة ترمز لها مثل إله الرعد وإله الحصب وآلهة الحروب وغيرها ، كما أدت عزلتهم وتعطف وضعهم الجغرافي إلى عدم تأثرهم بالمؤثرات اللاتينية ، التي لعبت دورا هاما في تطوير الجماعات الجرمانية الأولى (٢) ، ولهذا ظل الفيكنج متبريرين بدائيين يحافظون على بنائهم الاجتماعي ، ويتمسكون بنظمهم في الحكم مثلا يحافظون على ديانتهم الوثنية (٣) .

وكالت أسكنديناوة وحوض البحر البلطي قد اكتنفها الهدوء والعزلة ، أكثر من قرنين من الزمان فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين ، على الرغم من أن أسكنديناوة كانت قد دفعت بموجات متلاحقة من القبائل الجرمانية إلى السرج الأوربي فلاحه صنبا وحربا وحسبجا ، غير أن الأمر ما لبك أن تبدل في السنوات الأخيرة من القرن الثامن حيث خرجت من هذه البلاد آخر موجة من موجات الجرمان وأخر هجرة كبيرة من هجراتهم (٤) ، ويبدو أن السكون الذي ران على تلك البقعة الناشطة طوال القرنين المذكورين ، جاء بعد حروب طويلة بين الفيكنج والسكون ، كان لها أثرها في إحداث حالة هدوء ومجود على شبه الجزيرة طوال تلك الفترة ، ثم ما لبك أن تبدل ذلك السكون قرب نهاية

(1) Cantor : Med. Hist. p. 121, p. 235

(٢) لغو الخس المرجع ص ١١٣

(3) Schjoth : "The lands of the Northmen" in B. H. VII. p. 3532

(4) Oman : op. Cit. pp. 414-15

القرن الثامن ليعود الصنوب من جسدبد لاسيا في الفترة التي شهدت حكم الماعل
الفرنسي الكبير شارلمان (١).

وعلى الرغم من أن الفينكج احتفظوا بكثير من صفات الجرمان ونظمهم، فإن
تأخرهم في الخروج إلى داخل القارة واستقراوم لفترة أطول ببلادهم، كان له أثر
في تميزهم عن الجماعات الجرمانية الأخرى بصفات ومزايا أخرى، لعبت الطبيعة
دورا هاما في تكوينها وتشكيلها (٢) فقد قسمت الطبيعة على بلادهم كثيرا، إذ
اكتنفها غابات ومستنقعات وجبال وأحراش، فضلا عما من سواحلها من
خلجان عميقة وفيوردات عميقة (٣)، فلم يدع ذلك كله لفينكج بحالا رجا
يسعون فيه، بل أجبرهم على العيش على رؤوس تلك الخلجان والفيوردات، وعلى
شريط ساحلي بالغ الضيق كثير التماريج (٤)، كل ذلك جعلهم شعبا أكثر ميلا
للمغامرة والحرب، بارزها في أمور الملاحة وبناء السفن وصيد الأسماك، وأدنى
على حياتهم شيئا من القسوة والعريضة، وجعلهم أكثر رغبة في توجيه نشاطهم
نحو القرصنة البحرية بدلا من الإغارات البرية (٥)؛ فاشتهرت سفن الفينكج
بأنها كانت سفنا هائلة قليلة العمق مبنية ببناء قويا، كما كانت قواربهم الصغيرة
مكشوفة وطويلة ومدببة من نهايتها، ودعت كل حافيتها بصف من الدروع،
وكانت تسير بالمجداف أو الشراع (٦)، وطافوا بهذه السفن سواحل أوروبا

(1) Ibid : p. 415

(2) Haskins : The Normans in European Hist. p. 29

(3) Trevelyan : op. cit. p. 71

(4) Schjoth : op. cit. p. 3532

Grant : op cit. p. 154

(5) Haskins ; op. cit. p. 1

وجابوا بها المحيط المتجمد الشمالى وشمال المحيط الأطلسى ، ووصلوا إلى البحر المتوسط^(١) .

ولقد حاول المؤرخ المحدث *Haskins* تفسير غزو الفينيكج لأوروبا في ظل مفاهيم العصر ، وكذلك المفاهيم الحديثة ، فذهب إلى القول بأن ثمة تفهيرا هائلا شهدته شبه جزيرة اسكنديناوة والدانمرك وحوض بحر البلطى ، حين ظهرت ملكيات مستقلة وحكومات مركزية اتجهت إلى محاربة جمع الفينيكج على فكرة الولاء لنظم الحكم الجديدة ، وربطهم بقوانين وقواب مستحدثة^(٢) ، حين برغص الملكية في الزوجج في القرن التاسع على أثر جهود هاوولد صاحب الفهر الأشقر واتصاراته على الأمراء المحليين ، وحين ظهرت أيضا للملكيات في كل من السويد والدانمرك في القرن التاسع^(٣) ، غير أن طبيعة هذه العموم وانعطائها وجها للغمارة ، لم يترك فرصة للاستجابة لهذه الأمور ، فاندفع أغلبهم في إغارات متتالية على سواحل أوروبا لاشباع نهمهم للحرب والقرصنة والغمارة^(٤) ، هذا فضلا عما حدث في بداية القرن التاسع من ازدياد سكانى في تلك البلاد ، شدد الحاجة إلى ديار جديدة وأراضى جديدة تستوعب تلك الأعداد الهائلة من الفينيكج وتقدم بالنفساء والكماء وتشبع نهم الجليل الجديد للحصول على طرق جديدة وحياة جديدة ، هذا كله بالإضافة إلى الدوافع الاستعمارية الأزلية^(٥) .

(1) *Canter : op. cit. p. 236*

(2) *Haskins ; op. cit. p. 29*

(3) *Pirenne : op. cit. p. 239*

(4) *Schjeth : op. cit p. 3532*

(5) *Haskins ; op. cit. p. 29*

بالإضافة إلى ما حدث من تحطم قوة الفريزين على يد الفريجة أيام شارلمان ، وكان الفريزيون يثلون قوة بحرية وتجارية عظيمة في شمال أوروبا ، كما كانوا بمثابة حاجز بين الفينكج والقارة الأوروبية ، فلما تحطمت هذه القوة أصبح الطريق هذا أمام الفينكج لفسرو أوروبا (١) ، وكان قضاء الفريجة على قوة الفريزين والسكون الذين مارس الفينكج معهم بعض التجارة أثره في تعريض تجارة الفينكج لأضرار جسيمة ، فأدى هذا بالفينكج إلى محاولة الحصول على أسواق جديدة وعملاء جدد لاستمرار تجارتهم (٢) .

ظهر أنه يبدو أن مجرد الحاجة إلى الغذاء والكساء وشق طرق جديدة في الحياة والتعلق بحب المغامرة والفرصة والتزوع إلى التجارة ، كل ذلك لا يبرر الهجرة الكبرى لفينكج في القرن التاسع ، وإنما الأرجح ما ذهب إليه هاسكينج من أن التفورات السياسية التي طرأت على المجتمع الفايكنجى كان لها دخل كبير في تلك الهجرة التوسعية الكبرى (٣) ، يضاف إلى ذلك أن الهدوء الذى ساد شبه جزيرة اسكنديناوة ، أدى إلى توافر عدد الرجال وتعاظم القوة المقاتلة فيها ، لاسيما في التزويج مع ضيق في الرزق وشتاء طويل مظلم وظروف مواتية للاغارة على المللك المتناحرة والملوك الضعاف بقرب أوروبا (٤) ، هذا فضلا عن أن حملات شارلمان ضد السكون قد فتحت عيون الدانين على خطرات يتهددهم من هذه الجهة لاسيما وأنهم قد بذلوا قليلا من المساعدة للسكون في بعض مراحل الحرب ، وكان عليهم أن يعملوا على حماية أنفسهم من الفريجة بعد أن تأكد خضوع السكون

(1) Oman : op. cit. p. 45

(2) Keen : op. cit. p. 25

(3) Haskins : op. cit. p. 29

(4) Cantor : op. cit. p. 237

لك الدولة ، بل إن القتال بدأ بين الجانبين برأ وبجراً أثناء هجمات الفرنجة على
السكون ، حتى أن الراهب القديس جال أبدى أسفه على أن شارلمان لم يقهر
الدايين كما قهر السكون وترك خطر أولئك الدائين يستفحل فيما بعد^(١) ، وإذا
كانت الرغبة لللمعة في ممارسة التجارة وفتح أسواق جديدة ، قد جعلت الفيكنج
على ارتياد شواطئ أوروبا والجزر المتناثرة ، فإن ثمة أموراً أعطت لهذه الحركة
أبعاداً جديدة ، وأضفت عليها جانباً عدواً ، ولا سيما قد تأكد لهم سلامة ارتياد
البحر وصلاحيه السفن المستخدمة للقرصنة ونقل الفيكنج إلى ليلاند الجديدة^(٢) ،
والاسترشاد بالنجوم في الرحلات الطويلة إل غير ذلك من المفريات ، يضاف
إلى ذلك ما أظهره الفيكنج من تمسب ديني شديد تعمل في هجومهم على الأديرة
واستباحتها ونهب ماحوته الكنائس من تحف ونقائس^(٣) .

وعلى الرغم من أنه ليس هناك ثمة اختلاقات بين النرويجيين والسويديين
والدائيين (الداينركيين) بحكم أنهم جميعاً من الفيكنج ، وبحكم اشتراكهم جميعاً في
النزوح والهجرة ، فإن بعض النرويجيين الذين قطنوا الجسائب الغربي من
اسكنديناوه اتجه إلى غرب أوروبا والجزر الغربية ، ووصلوا إلى انجلترا وأيرلندا
ثم إلى أمريكا الشمالية^(٤) ، في حين اتجه السويديون القاطنون بشرق اسكنديناوه
إلى شرق أوروبا وبلاد الصقالية وسهول أوروبا الشرقية والبحر الأسود^(٥) ،

(1) Haskins : op. cit. p. 31

(2) Schjeth : op. cit. p. 3532

(٣) نشر : نفسه من ١١٦ ، Trevelyan : op. cit. p. 73

(4) Keen : op. cit. p. 25, Trevelyan : op. cit. p. 77

(5) Keen : op. cit. p. 25

واتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب إلى آسيايا وفرنسا وانجلترا وأيرلندا (١).

ولقد تميزت إغارات الفيكنج في دورها الأول ، الذي شمل معظم النصف الأول من القرن التاسع ، بأنها كانت إغارات تهدف إلى السلب والنهب والقرصنة ، وتم في فصل الصيف وتنتهي غالبا بالعودة بالمنهوبات ، قبل حلول فصل الشتاء ، كما كانت تضم جماعات صغيرة تسمى تعمل غالبا لحساب أحد الأمراء (٢) ، إلا أن الأمر انقلب في النصف الثاني من ذلك القرن ، فتطورت إلى حركة توسعية استيطانية كانت تتم بجماعات كبيرة أو جيوش تعمل لحساب أمير أو مجموعة من الأمراء ، حيث كان الفيكنج يحملون معهم أسلحتهم وأطفالهم يتخون الاستقرار بالبلاد التي يفزونها أو يقرب مصبات أنهارها أو في المجرى القريبة من شواطئ تلك البلاد (٣) ، وقد مثل الفلاح الروماني مصب هذه الإغارات حيث طمّح في استغلال الأراضي للثقافة في الزراعة والرعى على نحو ما عسرفه في بلاده ، وهكذا كانت هذه الإغارات تنتهي في أغلب الأحيان إلى الاستقرار الدائم (٤) ، فقد استعمروا أيرلندا لفترة عند منتصف القرن التاسع ، ويقروا لأول مرة في شبي Sheppy عند مصب نهر التيمز في انجلترا بعد انتهاء الشتاء ، ولم يعد ثمة

(1) Canter : op. cit. pp. 235-7

(2) Sehjoth / "Grant days of the Northmen" B. H. VII
p. 3539

Trevelyan : op. cit. pp. 75-76

(3) Grant : op. cit. p. 154

(4) Haskins : op. cit. p. 33

من يجرؤ على مدافعتهم كما لم يعد ثمة ما يفعله الناس إلا أن يضيفوا إلى صلاتهم
- على حد تعبهم مؤرخ قديم - دعاءاً جديداً ، إحمنا أيها الإله امن غضب رجال
الشمال ، كما يذكر المؤرخ هاسكينز^(١) ، وحوالي ذلك الوقت أيضاً بدءوا في
الاستقرار في غرب فرنسا وفي الجزء الذي عرف بعد ذلك باسم نورمانديا ، بعد
أن ظلوا يفتخرون لفترة طويلة على المنطقة الواقعة بين نهري الزان والوار^(٢) ،
ويتميز آخر أدوار الغزو الشمالي بمقاومة أهل البلاد لهم ومحاربتهم في طرد الفايكنج
من أجواء كثيفة ، ويبدو أن قصرة الفايكنج للتوايدة والمذابح البشرية الرهيبة ،
فضلاً عن الإغارة على الكنائس والأديرة واستباحتها ، ونهب ثرواتها قد أوجد
شموراً طافحاً عند هؤلاء الغزاة تبلور في مقاومة حثيفة قادمة بعض أمراء القارة
والجزر البريطانية ، فتجسوا منذ أواخر القرن التاسع في وضع حد لمجانب كبير من
عبث هذه الشعوب المتبربرة^(٣) .

بدأ الفايكنج إغاراتهم على إنجلترا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي في الفترة
الواقعة بين سنتي ٧٨٧ و ٧٩٤ ، فكانت إنجلترا من أولى البلاد التي تعرضت
لإغاراتهم ولاسيما على ساحلها الشمالي الشرقي والشرقي^(٤) ، ثم توقفت غاراتهم
فترة ليستوف من جديد قبيل وفاة الملك أجسبرت سنة ٨٢٩م ملك وسكس
Wessex الشهير ، إذ تعرضت سواحل إنجلترا الجنوبية والغربية لموجة طافية من

(1) Haskins : op. cit. p. 34

(2) Keen : op. cit. p. 25

(٣) نفس المصدر : ١٢١

(4) Oman : op. cit. p. 415

موجانهم^(١) ، أخذت تمتد جهة الشرق ، وتلقى بثقلها حد ملكك وسكن
السكسونية وأجزاء متفرقة من الجزيرة ، وما لبث الفينكج أن مالوا نحو
الاستقرار^(٢) ، فخرت سفنهم عباب نهر التيمز قرب منتصف القرن التاسع ،
واستولوا على لندن وكاتربوري ، ورغم ما تعرضوا له من هزيمة على يد
السكسون ، فقد تحولوا من الإغارات الصيفية إلى الاستقرار ، فقتلوا الهن
لأول مرة في شيبى عند مصب نهر التيمز سنة ٨٥٥ م^(٣) ثم استبدت بهم فكرة
الفتح والاستيلاء فاجتاحهم في الفترة بين سنتي ٨٦٦ - ٨٧١ معظم الممالك
الانجليزية وإسبانيا نورمانيا وفرنسا وإسبانيا ، ولم يكن بوسع أحد التصدي
لهم سوى الملك ألفريد العظيم ملك وسكس (٨٧١ - ٩٠٠) ، الذي
انقذت عليه آمال إنجلترا لحفظ استقلالها بعد ضياع لندن وكاتربوري^(٤) ، فأبلى
ألفريد العظيم بلاء حسنا في حربيهم واستطاع أن يلحق بهم عدة هزائم ويجبرهم
على عقد صلح سنة ٨٧٥ ، تمهدوا بموجبه لإعلان ولائهم له وإلتائهم لعدوته ،
نظروا تنازله لهم عن جزء من نورمانيا وفرنسا وإسبانيا باستثناء لندن ،
ومع أنهم أظهروا الإذعان ولم يقيموا لهم ملكا بل ولوا أسورم بعض النبلاء
المسكرين ، إلا أنهم أظهروا روحا عدائية شديدة تجاه السكان ، فطردوا الفلاحين
من أراضيهم ، وقاموا بفلاحتها هم ، وبالنوا في إظهار القسوة والنف^(٥) ،

(1) Schjoth : op. cit. p. 3534

(2) Trevelyan : op. cit. p. 77

(3) Haskins : op. cit. p. 33

(4) Cantor : op. cit. p. 325

Trevelyan : op. cit. p. 71

(٥) ألفريد العظيم ٩١٧ ، ص ١٢٠ .

Rayner : op. cit. p. 16

قُرب على ذلك اندلاع الصراع بينهم وبين ألفريد من جديد ، وبعد قليل من المصاعب التي صادفت ألفريد واضطر بسببها إلى التوجه بصحبة إلى القابات والأراضي الجرداء للاحتواء بها (١) ، نجح في إزال عزيمة ساحقة بهم في أدنجرتون (Ethington) سنة ٨٧٨م وأرغمهم على طلب صلح جديد في نفس العام ، وفي هذه المرة قبل قائدهم وأتباعه اعتناق المسيحية وتم تعميدهم (٢) ، إلا أن أمد هذا الصلح كان قصيرا ، إذ جدد الدانيون معاديتهم سنة ٨٨٤م ، وحينذاك تصدى لهم ألفريد وأرغمهم على توقيع صلح ثالث سنة ٨٨٥ ، تحدت فيه بصفة نهائية الأراضي التي يزلون بها ، وكلها شمل خط يمتد من مصب نهر التيمز حتى شستر ، وهي المنطقة التي سميت بأرض الدانيين Daneland ، على حين أحصى الشطر الأكبر من مرسيا ولندن في حوزة ألفريد (٣).

وقبل وفاة ألفريد العظيم بسنوات قليلة تصدى لمواجهة جديدة من موجات الفايكنج حين هاجم أساطيلهم ساحل إنجلترا الجنوبي الشرقي سنة ٨٩٢م ، والجزء الشمالي من كنت ، ونجح ألفريد في إجبارهم على الانسحاب في الوقت الذي هات فيه الدانيون القاطنون في إنجلترا فساوا في الجهات القريبة ، ولولا نقطة ألفريد وحكته لندوا خطرا كبيرا على البلاد (٤) ، وإذا كان لألفريد من فضل ، فلائه

(1) Baskins : op. cit. p. 34

(2) Schjoth : op. cit. p. 3554

Grant : op. cit. pp. 172-3

Rayner ; op. cit. p. 16

(3) Trevelyan . op. cit. p. 79-80

Cantor ; Med. Hist. p. 270

(4) Schjoth : op. cit. p. 3554

لنجاح لأول مرة في جمع الممالك الإنجليزية على هدف واحد من خلال مقاومة حنيفة للدايين وإبعاد ما تبقى من انبطرا بعيدا عن متناول قبضتهم ، فنجح فيما فعله فيه الكنيسة من توحيد الإنجليز وجمعهم على هدف واحد ، فتلاهن اصلاحاته التعليمية والكنسية التي أضافت كثيرا إلى الناحية القومية (١) ولذا عد عهده بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الانجليزية قاطبة (٢) ، وعند وفاته سنة ٩٠٠م تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستردون البلاد من الدايين جزءا جزءا ، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءا ، أقاموا فيه مقلتا تحول بمرور الوقت إلى مدينة صغيرة حتى انتهى الأمر بتوحيد انبطرا كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك إدجار (٩٥٩-٩٧٥م) الذي يمكن وصفه بأنه كان بحسب ملكا لإنبطرا (٣) .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر بدأ النظام الاقطاعي يقوى في كيان المجتمع الإنجليزي في الوقت الذي تولى فيه ملوك ضعاف ، لم يكن بوسعهم السيطرة على النبلاء من جهة والتصدى للدايين من جهة أخرى (٤) ، فلما وصلت موجة جديدة سنة ٩٨٠م أبدى ملك وسكر استمداده لدفع الأموال للدايين ليحلوا عن البلاد ، ومن ثم تقرر فرض ضريبة ذهب الدايين Danegeld يدفعها الأهل وإن لم توجد إلى طرد الدايين نهائيا ، إذ ما لبث انبطرا أن تعرضت لموجة عاقية من موجات الفيكج ، قدمت في هذه المرة في شكل غزو اسكندناوي يمثل الأمة الاسكندناوية المراقبة وأسفرت هذه الموجة عن هروب الملك الانبازي

(1) Southern : The making of the Middle ages p. 167, p.185

(٢) غمرة قسم ١٢١ ، Cantor : Med. Hist. p. 207

(3) Trevelyan : op cit. p. 81

(4) Cantor : op- cit. p. 207

Ethelred إلى نورمانديا ، وقيام كانوت ابن ملك الدانين على عرش إنجلترا سنة ١٠١٦ م (١) ، وغدا هذا الملك بحكم الجليار والنرويج والدانمرك ، وأدى ذلك إلى فصل إنجلترا عن القارة الأوروبية وربطها بمعجلة إمبراطورية اسكندنبورية ، وظل كانوت في حكم إنجلترا إلى سنة ١٠٣٥ م ، واتخذ لندن عاصمة تجارية لإمبراطوريته ، كما ظل يحصل ضريبة الدانجيلد Danegeld (٢) ، لينفق منها على أساطيله ، ولم يعد عرش إنجلترا إلى البيت المالكة القديم إلا في سنة ١٠٤٢ م حين نجح إدوارد الثالث ، المعروف ، (١٠٤٢-١٠٦٦ م) ، وهو ينتمي إلى بيت ألفريد العظيم ، في استرداد عرشه بعد فترة قضائها في المنفى لدى قريبه دوق نورمانديا (٣) ، وبعد وفاته سنة ١٠٦٦ م تدرج وليم دوق نورمانديا ببعض الحجج للاستيلاء على إنجلترا منها قرابته لملكها الراحل ، وادعاءه الحصول على وعد من إدوارد المعروف بأن يرثه بعد وفاته ، ومالته وليم أن يزل على العرش الهنوي الشرقي لإنجلترا ، وأنزل الهزيمة بهارولد ملك إنجلترا الجديد في معركة هاستينجس سنة ١٠٦٦ م وفتح إنجلترا وضمها إلى نورمانديا ، وأقرب منذ ذلك الوقت بوليم الفاتح (٤) .

وكانت أيرلندا أيضا هدفا مبكرا لإغارات الفايكنج النرويجيين ، فتمرضع لطبائهم المتتابعة منذ أواخر القرن الثامن ، وبالأذات منذ سنة ٧٩٥ م ، بعد أن ظلوا يهاجمون الجزر الغربية منها فيما بين سنتي ٧٩٥-٨٠٦ م ، وتحولوا إلى مهاجرة

(1) Trevelyan : op. cit. pp. 98-9

(٢) نشر القديس ١٢٢ ، Schjoth : op. cit. p. 3556

(3) Haskins : op. cit. p. 74

(4) Trevelyan : op. cit. pp. 116-7

أيرلندا نفسها وإلى محاولة الاستقرار فيها في السنوات الأولى من القرن التاسع ،
ففي سنة ٨٠٧م نزلوا لأول مرة في أيرلندا فيما يشبه « الفيضان العظيم » من
الاجاب الى إرن Britn ، حتى أنه لم يبق ثمة نقطة واحدة خالية من الأسطول أو
السفن^(١) ، ثم راحوا يشقون طريقهم إلى أواسط الجزيرة وإلى جنوبها الغربي ،
وفي غضون ربع قرن من زولهم أيرلندا كانوا قد هائوا في معظم جهاتها فسادا
ودمروا حضارتها ، واتخذوا لهم قواعد على سواحلها وخليجاتها الكثيرة ، وأغاروا
من هذه القواعد على بقية أنحائها وعلى القارة الأوربية والجزيرة البريطانية^(٢) ،
ولم تنج الأديرة من عبثهم حيث استباحوها ونهبوا ما فيها ، وقضوا على الحياة
الدبيرة فيها ، فترتب على ذلك فرار رهبان أيرلندا إلى الجهات الأخرى ولاسيما
إلى ألمانيا وفرنسا والفلاندرز^(٣) .

وإذا كان النرويجيون هم الذين نهضوا بهذا الدور في أيرلندا في النصف الأول
من القرن التاسع ، فإن أول غزوات الدانين لهذه الجزيرة ، حدثت قرب منتصف
ذلك القرن (سنة ٨٤٩) ، ولعل أغرب ما في الأمر أن صراعا رهيبا لعب بين
هؤلاء الدانين وبين النرويجيين من أجل السيطرة على الجزيرة في الوقت الذي هب
فيه الأيرلنديون يذودون عن بلادهم ، فحدثت فوضى شاملة في البلاد لم تنته
إلا بوصول أولاف Olaf ابن ملك النرويج سنة ٨٥٣م ليضع حدا لهذا الصراع^(٤) ،
ويقيم علاقة جديدة بين الفريقين الشماليين ، وغالت كلمة الشماليين هي العليا في

(1) Oman : op. cit. p. 4,5

(2) Camb. Med. Hist. V. III, p. 317

(3) Cantor : op. cit. pp. 203-4

(4) Camb. Med. Hist. V. III, p. 317

المجبرة حتى بعد رحيل أولاف عنها إلى الترويج سنة ٨٧٣ م، وساد نوع من
الوفاق بين الطرفين ولاسيما وقد بدأ الأيرلنديون يعملون على طرد الغزاة جميعا
من بلادهم ، وبهاجرون المراكز التي اتخذها الفايكون في أيرلندا لاسيما دبلن
وذلك طوال القرن العاشر (١) ، ثم نجح الأيرلنديون بعد محاولات متتابة في
إزالة ضربات كبرى بالفايكون منذ أوائل القرن الحادي عشر ، وفي سنة ١٠١٤ م
توجروا أحمالهم بالحاق هزيمة ساحقة بالفايكون وأجبروهم على اتباع سياسة الدفاع ،
ثم أخذ الفايكون منذ ذلك الوقت يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندي لينتشر بهم
ذلك المحيط رويدا رويدا (٢) .

أما بالنسبة للفيكنج السويديين ، فقد أوغلوا شرقا إلى أحماق روسيا في هجرة
أقرب إلى السلم منها إلى الحرب ، وتزوج إلى التجارة أكثر مما تهدف إلى النهب
والتمهيد والغزو ، واحتك هؤلاء الفيكنج بالعصايلة والسلاف الذين أطلقوا
عليهم اسم روس Rus أي الأحمر (٣) ويبدو أن انبهار قوة الآفار في القرن التاسع
قد فتح الطريق أمام هؤلاء الفيكنج السويديين للوصول إلى حوض نهر الدنيبر
وسواحل البحر الأسود وتأسيس دولة روسية في شرق أوروبا (٤) ، ولهذا أضحت
روسيا هي أرض السويديين ، ومن هذا الحدث يبدأ تاريخ روسيا المدون ، أي
أن السويديين هم الذين وضعوا أسس الدولة الروسية (٥) ، ونظرا لأن السويديين

(1) Sehjoth : op. cit. p. 3540

(2) Sehjoth : op. cit. p. 3540

(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 327

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 162

(5) Haskins : op. cit. p. 30

حافوا الزراعة والري ونزعوا إلى التجارة ، فقد تألفت روسيا في القرن التاسع من مجموعة مدن تجارية كبرى نهضت بعضها على نهر الدنيبر وروافده ونهر الفلجا الأعلى وبعض البحيرات الكبيرة ، وأوغل السويديون شرقا حتى بحر قزوين واتخذوا طرقا متعددة أهمها طريق نهر القستولا إلى الدنيبر إلى البحر الأسود ومنه إلى البسفور (١) ، ونظرا لأن السويديين كانوا أقل الأشياكين حبا للنهب والتخريب فقد برعوا في النواحي الإدارية والتنظيمية والسياسية ، فأصبحوا سادة روسيا ، واتخذوا لهم مستعمرات في جنباتها ولاسيما مدنها التجارية الكبرى مثل نوفجورود ، كما استولوا على كييف واتخذوا منها دوقية فيكتنجية روسية ، فأصبحت مركزا هاما لفكتنج في شرق أوروبا (٢) ، ثم مال به أن انسح نفوذها ففصل جانبها كبيرا من السهل الروسي ، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وقيارات المدنية من القمطنطينية إلى هؤلاء الفكتنج (٣) .

وإلى جانب ما انصف به أولئك السويديون الذين نزلوا روسيا من حب التجارة ، كانوا أيضا عمارين أشداء ، اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جنسدا مرتزة ، وفرقا للحرس الإمبراطوري ، غير أن هؤلاء السويديين أعطوا التجارة كل اهتمامهم ، وكثيرا ما أشعلوا الحروب بسبب لاسيا مع القمطنطينية لتحكمها في المضائق وتجارة البحر الأسود (٤) ، غير أن الجاهلين مالبتا أن أدركا أن التماون

(1) Trevelyan : op. cit. p. 75

Schjoth : op. cit. pp. 3539-40

(2) Koen : op. cit. p. 25

(٣) نهر : قس المرجع ص ١١٥

(٤) الله ص ١١٥ - ١١٦

Schjoth : op. cit. p. 3539-40

بينها أجدى وأفع، ولهذا انساب قوارب السويديين الفينكج من مياه الدنمارك إلى البحر الأسود تحمل منتجات الشمال من الفراء والأخشاب والأسمك والحبوب والقصع والرقيق، وتعود حاملة منتجات الشرق من المنسوجات والتوابل والحلل والزجاج والبخور وغيرها (١).

على أن أهم إشارات الفينكج في أوروبا هي التي قاموا بها ضد الإمبراطورية الكارولنجية فكانوا أحد الأسباب الرئيسية التي زعمت هذه الإمبراطورية وساهمت في قناعها، وذلك على الرغم من أن هؤلاء الفينكج الذين غزوا فرنسا في القرن التاسع، كانوا قليل العدد، وأن غزومهم لم يكن يمثل طوقا مثل غزو العناصر الجرمانية الأولى، لكنه سبب رعبا وفوضى أدت إلى لجوء كثير من الرجال إلى النبلاء المجاورين يلتصقون بالحماية ويقدمون الخدمة العسكرية في مقابلها (٢)، وكان الراهب القديس جال على حق حين أسف على أن شارلمان لم يقض على الدانين بعد فراغه من أمر السكسون وقد جاء في إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأى بنفسه إحدى إشارات الدانين على سواحل دولته، وأنه أسف لذلك كثيرا والنفس إلى أتباعه قائلا: ولقد تأمرت لذلك كثيرا ... وإني لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام، وأرى كم من الضرر سيلحقه أولئك بلديتي وخلفائي وشعبهم (٣). وهكذا كانت إشارات الفينكج على الإمبراطورية في حياة شارلمان نفسه وساول أكثر من مرة وقف خطرهم تارة بإعداد أسطول قوى يحصى السواحل الغربية لدولته وتارة أخرى بالاتفاق معهم

(١) Schjeth : op. cit. p. 3539-40

(٢) Cantor : op. cit. p. 237

(٣) Viking. trans. by keary. p. 131

Haskins : op. cit. p. 32

وإحلال السلام معهم ، ولكنه فيما يبدو لم يوفق ، إذا ظلت غاراتهم تروح شواطئ الامبراطورية في كل عام بحربيا (١) .

وقد حدث في عهد لويس الثنى أن زل الدانيون على طول ساحل فريزيا وفلاندرز ابتداء من سنة ٨٢٥م ، حيث عاثوا فسادا فيها ودمروا ونهبوا بعض مراكمها متتهذين فرصة الحروب الأهلية الدائرة بين أفراد البيت الكارولنجي (٢) ، وزاد من غلواتهم أن لويس الثنى حاول مسالمتهم واتقاء شرم بمنهم قطعة من الأرض قريبة من دورشتاد في فريزيا ، ولكن كل ذلك لم يؤد إلى وقف نظامهم ، وبعد وفاة لويس الثنى وإبان الصراع الذي اندلع بين أبنائه ، انساب أول أسطول للشالين في نهر السين سنة ٨٤١م ، واستولوا على روان ثم تقدموا في نهر السوار ودمروا مدينة نانت Nantes سنة ٨٤٢م ، وقصروا القناء لأول مرة في لستريا في جزيرة قرب مصب نهر السوار في نوارموتيه Noirmontier (٣) ، أثناء قيام الإخوة بعقد اتفاقية فردان ، وفي نانت قتلوا البطريرك أمام مذبح الكنيسة ، وعلى مرأه من جمهور المسلمين ، وفي غضون عامين نهبوا مدينة هامبورج ، وانسابوا سنة ٨٤٥م في أسطول كبير في نهر السين ودمروا باريس (٤) ، وبعد ذلك بسامين استولوا على مدينة بوردو أم مدن جنوب فرنسا بعد أن دمرها وظلوا يحتلونها عدة سنين (٥) ، وهكذا فتحت لهم

(1) Oman : op. cit. p. 416

(2) Ibid : p. 400

(3) Haskins : op. cit. p. 33

(4) Schjeth : op. cit. p. 3550

(5) Oman : op. cit. pp. 420-21

الأنهار الطريق إلى جوف الإمبراطورية (١) ، فأوصلهم نهر الراين إلى كولونيا ، وأفضى بهم نهر السوم إلى إميان وأوصلهم نهر السين إلى باريس وروان ونهر الوار إلى تور وأورليان ، وإن أبدت هذه المدينة الأخيرة مقاومة عنيفة لغزو الدانين سنة ٨٥٤ ، كما سلخوا أيضا أنهار الإلب والويز *Wasser* والميز *Meuse* والشلد *Scheldt* والجارون ووصلوا إلى جنوب أسبانيا إلى الوادي الكبير (٢) .

وهكذا تعرضت الممالك الفرنجية الثلاث لضربات الفيكنج وإن كانت ملكة شارل الأصغر في أقصى الغرب هي التي أصابها كثير من الضرر بسبب طول سواحلها من جهة وكثرة أنهارها من جهة أخرى ، فضلا عن الغفلة ملكها في زراعات داخلية ، ولهذا لما شارل الأصغر أكثر من مرة لمحاولة صرفهم عن ملكته بقصد الصالح معهم تارة وبدفع الإتاوات تارة أخرى دون جدوى (٣) ، أما ملكة لوثر وهي الملكة الوسطى ، فقد كان حظها في الأخرى سيئا لأن الفيكنج دأبوا على الإغارة على سواحل فريزيا في كل عام تقريبا حيث اتخذوا فيها قواعد دائمة نفذوا منها إلى أعماق المملكة ، وهددوا المدن الكبرى بما فيها العاصمة ذاتها (آوخن) أو اكس لاشابل ، في الوقت الذي لم تجد فيه محاولات لوثر لوقف تقدمهم بمنحهم جزيرة والشرن *Walcheren* قرب مصب نهر الراين ضياعا لمسلحتهم وصرفهم عن ملكته (٤) ، وإذا كانت ملكة لويس الجرمان أحسن هذه الممالك حظا فإن السبب في ذلك يرجع إلى أن السكسون كانوا عتبة كود أمام

(1) Keen : op. cit. p. 25

(2) Haskins : op. cit. p. 33

(3) Cantor : op. cit. p. 237

(4) Haskins : op. cit. p. 33

الفينكج ، فضلا عن وصوله الطرق وعدم صلاحية كثير منها لضربات الغزاة ، وإن لم تسلم هذه المملكة مرات من الإغارات والنهب والتدمير (١) .

ولقد زاد خطر الفينكج بالنسبة للإمبراطورية الكارولنجية في النصف الثاني من القرن التاسع لأميا بعد وفاة أبناء لويس الثاني لوتر ٨٥٥ ثم لويس الجرمان سنة ٨٧٦ م ، ثم شارل الأصغر سنة ٨٧٧ ، وإبان النزاع بين أفراد البيت الكارولنجي على الملك (٢) ، وبلغ من استهانة الفينكج بقوى الكارولنجيين ، أنهم عبروا فيما بين سنتي ٨٥٩-٨٦٢ مضيق جبل طارق ، وأغاروا على سواحل إفريقيا وعلى ساحل فرنسا الجنوبي وجزائر البليار (٣) ، وساحل مرسلية ، ثم اندفعوا في نهر الرون شمالا حتى وصلوا فالنس ، بينما قامت جماعة منهم تحت قيادة قائد جسر بنهب المدن الإيطالية لونا ، ربما معتقدين أنها مدينة روما (٤) ، وفي الفترة بين سنتي ٨٧٩ م و ٨٨٥ اشتدت وطأة الفينكج كثيرا بالنسبة للإمبراطورية ، فاجتاحوا أودية أنهار السلد والسوم ، كما اجتاحتها فريزيا وفلاندرز ، وكل المنطقة بين الراين واللوار ، ولم تؤد هزيمتهم على يد ملك فرنسا لويس الثالث سنة ٨٨١ إلى وقف خطرهم (٥) ، فقد اضطر شارل السمين في العام التالي - في محاولة لصرفهم عن مملكته - أن يدفع لهم إتاوة كبيرة وأن يمنحهم فريزيا يقيمونها فيها ، وأن يزوج ابنته من زعيمهم ، وتابع ملك فرنسا وخليفته

(1) Oman : op. cit. p. 419

(2) Camb. Med. Hist. V. III pp: 320-1

(3) Schjorth : op cit. pp: 3548-9

(4) Haskins : op. cit. p. 33

(5) Oman : op. cit. pp. 438-9

Grant : op. cit. p. 155

لويس الثالث (كارلومان) سياسة شارل السمين في دفع إتاوة كبيرة لفينكنج ،
حينما غزوا شمال فرنسا في العام التالي (٨٨٢ م) ، وكلها كانت تصرفات مينة لم
تزد الغزاة إلا طمعا وضراوة (١) ، جعلت أحد المؤرخين الإخباريين المعاصرين
ينحى في كتابته قائلا : كل الرجال قد فروا .. ولم يصح أحد منهم تقب وحارب
من أجل بلدك وكنيستك ، وأبناء وطنك ، وبالقمار ما كان يجب أن يدافعوا
عنه بالسلاح افتدوه بالمال (٢) ؛ وهاجم الفينكنج المدن مثلما هاجموا الكنائس
والأديرة (٣) ، وفي الوقت الذي استطاعت فيه بعض المدن أن تقاوم بأسوارها
المحصنة وقلاعها المنيعة ، فإن دور العبادة المسيحية لم يكن لها من حماية سوى
قدسيته وحرمتها ، ولهذا تعرضت السلب والنهب والتدمير ، وكان الرهبان
يملكون في أديرتهم ولأدرا ما كانوا يمكنون من النجاة بأنفسهم وبغلبيل من
الحجج والرواقي الهامة ليعودوا بعد ذلك فلا يجدون سوى كومة من الخراب
المنفضحة والريف المفقور (٤) ، وانداخت كثير من المنشآت الدينية تماما خلال تلك
الغزوات ، وفي نورمانديا لأدرا ما بقيت كنيسة تنتمي لفترة السابقة على القرن
العاشر ، ونظرا لأن الأديرة كانت في ذلك الوقت المراكز الرئيسية للتعليم والثقافة في
كل غرب أوروبا فقد كان فقدانها في الحقيقة فقدان الحضارة والمدنية (٥) ، وفي سنة ٨٨٥ م
هاجموا باريس في نحو ٧٠٠ سفينة وأربعمائة مقاتل ، فسمدت المدينة عدة

(1) Camb. Med. Hist. V. III p. 322

(2) Haskins : op. cit. p. 34

(3) Keen : op. cit. p. 25

(4) Haskins : op. cit. p. 35

(5) Ibid. p. 35

أشهر بقيادة الكونت أودو Odo^(١) ريثا حضر شاول السمين ، الذي كان قد استطاع توحيد الإمبراطورية قبل ذلك بعام ، وعند وصوله تابع سياسته في مسألة الفيكنج وشراء صلحهم بدفع مبلغ كبير من المال قدره سبعمائة وطل من الفضة ، وسمح لهم بقضاء الغناء في ريجنديا ، حيث استباحوها وأزولوا بها كثيرا من الخراب والدمار^(٢) ، غير أن نجاح باريس في الصمود أمام هذا الهجوم قد رفع من مكانتها مثلاً ورفع قدر حاكمها أودو ، وهكذا أصبح باريس منذ ذلك الوقت مركز الثقل في فرنسا وتنافس حاضرة الكارولنجيين بل سيغتنار ملوك فرنسا من بين حكامها^(٣) .

لم يستطع شارل السمين أن يحتفظ بوحدة الإمبراطورية سوى ثلاث سنوات من سنة ٨٨٤ إلى ٨٨٧م ، ثم مالبت أن تنزع عن المرش سنة ٨٨٧ ، واختير أودو ملكاً على فرنسا ، فأثبت هذا كفاية وشجاعة حين انتصر على الفيكنج بعد عدة أشهر من تنويعه عندما عادوا لتهديد باريس^(٤) ، ثم لجأ أودو بعد ذلك إلى سياسة المقاومة والمهادنة معهم محاولاً أن يصرفهم عن علكته ، غير أنه ما زال بالفيكنج في سنة ٨٩١م من مريعة ساحقة على يد أرنولف ملك المملكة الفرنجية الشرقية^(٥) ، قد جعل أودو يتراجع عن سياسة للمهادنة ويتابع سياسته العنيفة

(1) Schjeth : op. cit. p. 3350

(2) Oman : op. cit. pp. 442-3

(3) Ibid . pp. 444-5

(4) Grant : op. cit. p. 196

(5) Schjeth ; op. cit. p. 3550

تجاههم ، ولذا نجح في إلحاق هزيمة كبيرة بهم في العام التالي سنة ١٨٩٢ م بل استطاع أن يأمر زعيمهم وينكل به ويقتل أعدادا مائة منهم ، ولكن كل هذه المرات لم تنجح في القضاء على خطر الفينكج ، الذين ظلوا من القوة بحية استطاعوا بمهديد أجزاء كثيرة من فرنسا وسواحل نهر السين (١) .

ولقد هيأت الظروف الداخلية في فرنسا لفينكج جوا مناسباً لاستئناف غاراتهم وهجماتهم ، وذلك بعد الدلاع صراع رهيب بين أودو وبين شارل البسيط وريت البيت الكارولنجي ، الذي استدعاه بلاء فرنسا من منقاه في إنجلترا ليسترجع ملكه ويقضي أودو ، فاستمرت الحروب بين شارل وأودو عدة سنوات لم تنته إلا سنة ١٨٩٨ م حين توفي أودو ليستعيد شارل البسيط حكم الجاساب الغربي من المملكة الفرنجية الذي ظل يحكمه حتى سنة ١٩٣٩ م (٢) ، وفي هذه الفترة أبدى شارل البسيط حمة كبيرة في محاربة الفينكج وساعده على ذلك ما أظهره الأمسال من مقاومة عنيفة وما ظهر من إصرار اللدن والأديرة والسكناس على التحصن وما ظهر من شدة المراس في حرب الفزاة (٣) ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الفينكج مستقرين في الحوض الأدنى لنهر السين وبرز من بينهم زعيم يدعى رولو Rollo ، حاز شهرة كبيرة بعد ذلك لأنه نجح في الحصول على المنطقة التي عرفت بعد ذلك بنورمانديا ، ليقيم فيها أتباعه وليصبح تاريخها قطعة من تاريخ النورماني (النورمان) في فرنسا (٤) ، وكان الفينكج قد اتخذوا من روان قرب

(1) Oman : op. cit. p. 498-9

(2) Ibid. p. 409

(3) Schjoth : op. cit. p. 3550

(4) Keen : op. cit. p. 25

مصب نهر السين مركزاً لهم يغيرون منه على المنطقة القريبة بين نهر ايت وحدود بريثاني، كما أخذ رولو بهاجم بايو وما حولها، منذ أواخر القرن التاسع، فلم يسع شارل البسيط، إلا أن يهادن رولو ويقاوضه سنة ٩١١م شريطة منحه قطعة أرض للاستقرار فيها هو وأتباعه (١)، وهي الممتدة من نهر ايت حتى بريثاني، أو ما عرف باسم أرض النورمن (نورمانديا) (٢)، ولم تكن هي نورمانديا التي عرفت بذلك بعد ذلك بمجودها المعروفة، وإنما كانت تمثل المنطقة الواقعة على جانبي نهر السين أو ما عرف بعد ذلك باسم نورمانديا العليا، إذ أن النورمان لم يحصلوا على وسط نورمانديا إلا في سنة ٩٢٤م، على حين لم تسقط أيديهم كوتنتين، Contentin وأفراندين Afranohin إلا في سنة ٩٣٣م (٣)، ومهما يكن من أمر فقد قبل شارل البسيط التنازل من الإقليم نظير اعتراف رولو بالتبعية له وبمعهذه باعتناق المسيحية، بل ذهبت رواية معاصرة إلى القول بأن رولو قد أظهر ولاءه لذلك على الطريقة الإقطاعية ولكنه اكتفى بوضع يده بين يدي الملك دون أنه يركع أمامه وهو أمر يتنافى مع اعتزال رجال الشمال بأنفسهم، ولهذا أناب أحد أتباعه للقيام بهذا الإجراء (٤)، ويبدو أن شارل كان يهدف من وراء هذه اللقطة انقاء شر القبيكنج من جهة والاستفادة من دوق نورمانديا القوي في مناوأة كروت بارس من جهة أخرى (٥)، فضلاً عن

(1) Grant ; op. cit. p. 166

(2) Cantor : op. cit. p. 254

Oman : op. cit. p. 501

(3) Haskins : op. cit. p. 28

(4) Ibid : p. 27

(5) Schjoth : op. cit. p. 3550

قطع اتصال باريس بالبحر من جهة ثالثة مما لاى تمرد تقوم به ، وما لبث
الفيكيكج للذين كانوا قد انتشروا في أنحاء فرنسا أن هرعوا إلى نورمانديا للانضواء
تحت راية رولو ، لتبدأ صفحة صاخبة في تاريخ هذا الإقليم (١) .

وكان النورمان - وهى لفظة معرفة عن النورثمن - أكثر الشعوب الجرمانية
استعدادا للإفادة من مظاهر الحضارة اللاتينية وثقافة الشعوب الأدوية ، ولم
يمض أكثر من قرن من الزمان حتى كانوا قد استجابوا لمؤثرات الحضارة التي
خدوا بقربها (٢) ، فاعتنوا للمسيحية بدلا من الوثنية ، واستبدلوا بلقمتهم الفحالة
اللغة الفرنسية ، وخذوا فرعسين في ثقافتهم ونظمهم ، واستأخروا عن ذكرياتهم
الشبالية الصاخبة بتقاليد الشعوب اللاتينية وإن احتفظوا إلى حد ما ببعض سماتهم
القديمة ، لاسيما العنف والحاسة والحوية والميل للقتال (٣) ، لكن الشيء الذي
يسرهم الالتفات أنهم أظهروا رازحا دينيا حقيقا حين جعلوا من أنفسهم حماة
المسيحية ، واهتموا ببناء الكنائس وشغفوا ببناء المدن وتجميع العمران ،
وأظهروا حاسة بالغة في استصلاح الأراضي وزراعتها ، ولعل استغناهم بميوتهم
وميلهم لأدأب الحرب هو الذي جعلهم يظهرون في غضون قرن ونصف على أنجلترا
ويسترون بها (٤) ، وقيمون لهم حكما ثابتا في جنوب إيطاليا وصقلية ؛ ثم
يدلون بدورهم في الحروب الصليبية ، ولهذا حاولت البابوية الإفادة منهم في إقرار
أمورها في إيطاليا ، وطرد البريطانيين منها واستعادة صقلية إلى حظيرة المسيحية

(1) Oman ; op. cit. pp. 502-3 .

Kom ; op. cit. p. 25

(2) Cantor : op. cit. p. 254

(3) Haskins : op. cit. p. 39

(4) Trevelyan : op. cit. p. 113

وتأمين سلامة البابوية، وطبقا لهذا أنطلم البابوية دوقية أبوليسا لروبرت جريستارد الثورماني، وكافأت أخاه روبر على استعادة صقلية من أيدي المسلمين بتعيينه نائبا بابويا بالجزيرة (١).

ولقد بدا لكتاب ذلك العصر أن أولئك الشماليين، لم يكونوا سوى برابرة، ليس لهم حضارة مادية أو أدبية لأنهم كانوا قراصنة زعماء من قلوبهم الرحمة والحفظة، وابعدوا عن القوى والروح، وأولئك الذين لم يكونوا على ذلهم أو خطاياهم، الذين لم تكن رحلاتهم سوى غارات سلب ونهب هوجاء وغارات خراب ودمار (٢)، غير أن أولئك الكتاب كانوا غالبا من التساوسة والزمباب، الذين تعرضوا أكثر من غيرهم لأهوال الفيكنج، الذين أظهروا أكثر من غيرهم بهجات رجال الشمال وأحزنهم ضياع المراكز الثقافية والعلمية والدينية بفرب أوروبا، ولهذا خرجت كتاباتهم موزجة بالمرارة طافحة بكثير من الآلام والأحزان، لكن هناك جانب آخر من الصورة لم يتباطأ المارسون الاسكندراويون من تأكيده، هو أن رجال الشمال كانت لهم حتى ذلك الوقت ثقافتهم الخاصة (٣)، التي تقدمت تقدما حسنا في جانبها المادي واشتهرت بمهارة فنها وتصيبها في ميادين الشعر والقصة (٤). فلي الرغم من أن حضارة الفيكنج تبدو غملا من وجهة نظرنا حضارة صغيرة وحديثة العمر، لكنها غالبا تخفى وراءها تاريخا يقد نفحو نمحة

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 203

Hearder & Walsey : op. cit. p. 37-8

(2) Haakins : op. cit. p. 35

(3) Pirenne : op. cit. p. 239

(4) Haakins ; op. cit. p. 36

Trevelyan : op. cit. p. 72

عشر قرناً^(١)، وامتازت في جانبها المادى بالوفرة والخصب، كما عكست حياة الرأى والرفاهية، وتشهد بذلك الدروع والسيوف المطعمة والعقود والمهاجِب والفلاذ التى عثر عليها بين علفاتهم، وتعهد بوفرة اتاجها وبحسن صنعتها، كما تعهد بالتقدم والمهاوة البدوية فى الفنون والصناعة^(٢).

ويُنظَّم المجتمع الفيكنجى من حيث بنائه الاجتماعى فى طبقات ثلاث: العبد Thrall، وفلاح الأرض Charl أو Carl، والنيل Earl، وتقلب النبالة والشرف على الكارل والإيرل، ومنهما تكونت جموع الذين ذهبوا إلى البحر، ومن صنعوا كثيراً من نشاط هذا الشعب الجرمانى. أما من الناحية السياسية فكان المجتمع الفيكنجى مجتمعاً أرستقراطياً، لكنها كانت أرستقراطية يقساوى فيها جميع النبلاء، ليس لنا لورد ولكنا جميعاً مساوون^(٣)، وتعمل مجتمع الفيكنج السياسى فى أيسلندا وهو المجتمع الذى وصفه لورد برايس Bryce بأنه كان مثلاً منقطع النظر للمجتمع تألفت قوة إبداعه وثقافته ذائناً ببدأ عن اللوات المادية^(٤)، وكانت له حكومته الديمقراطية الحرة ذات السلطات التشريعية والقضائية فى مجتمع لامركزى تمتاز تسود فيه المساواة والاستقلال الذاتى، وله حظه من قانون والإدارة وعدد كبير من المحاكم التى لا يلقى أحكامها أية سلطات^(٥)، وفى مستعمرة أخرى الفيكنج قرب مصب الأودر ظهر مجتمع

(1) Schjoth ; " The Lands of the Northmen ", B. II, VII, p. 3530

(2) Haskins : op. cit. b. 37

(3) Haskins : op. cit. p. 42

(4) Bryce ; Primitive Iceland. p. 263 (Oxford 1901)

(5) Haskins : op. cit. p. 43

يسوده نظام عسكري شديد الصرامة لا يسمح بصفوته إلا للرجال ذوي الشجاعة الفارقة من تراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والثلاثين (١).

وهكذا لم يكن الفيكينج برابرة بالمعنى المقصود ، لأن حضارتهم تقدمت في جانبها المادى مثلما تقدمت في جانبها الأدبى ، فلدينا ثراث عظيم لثروة الفيكينج الأدبية وصلت إلينا في الترجمات المختلفة للماجات Sagas ، والقصص الاخبارية وكذلك القصائد الأدبية Eddic Poems التى تتم عن ثروة أدبية وفيرة وإحساس أدبى مرهف (٢) ، وخاصة ساجات آيسلندا فى القرن الحادى عشر التى يمكن وصفها بأنها قصص مزج بين التاريخ والخيال فى حديثها عن الأعمال العظيمة لكبار المحاربين الاسكندنافيين ، وتمثل كل من ساجا Gunnlaug and Harfntu نموذجا لهذا النوع من القصص الأدبية العظيمة (٣).

أما بالنسبة لاعتناق الفيكينج المسيحية ، فعلى الرغم من أن المؤرخ المحدث كاتور Cantor يذهب إلى القول بأن هؤلاء الفيكينج لم يدركوا المسيحية الغربية حتى القرن العاشر ، مستشهدا على ذلك بميلم الدائب لنهب الأديرة والإغارة على الكنائس (٤) ، فإنه من الثابت أنهم عرفوا المسيحية منذ اتصالهم بالفريزيين وعارستهم التجارة معهم ، غير أن الكنيسة الغربية لم تكن لتصبر على استمرار وثنية

(1) Ibid. p. 43

(2) Corpus Poeticum Boreale. I, p. 281

وأظهر مصنفات منها فى كتاب Hoskins للذكور ، ابتداء من ص ٣٩ وانظر أيضا Trevelyan فى كتابه المذكور p. 75

(3) The Med. World. 300-1300, by Cantor. p. 163

وقد درجت ثلاث من هذه الساجات على يد H. Seargill ، M. Schlauch (Princeton 1050; pp. 40-41)

(4) Cantor : Med. Hist. pp. 236-7

الغالبية العظمى من هذا الشعب الجرمانى^(١)، ولهذا أخذت البعثات التبشيرية
ترماد شبه جزيرة اسكنديناوة منذ مطلع القرن الثامن لئلا يلقى، فأخذت المسيحية
تتقدم تقدما محسوساً في ربوع تلك البلاد، ولهذا لم يكن الفيكنج الذين غزوا
أوروبا حينذاك يجهلون المسيحية تماماً، وإن بدأ أغلبهم يتمسك بالوثنية حتى بعد
فترة من استقرارهم في مستعمراتهم الجديدة^(٢)، ويبدو أن استمرار انتشار المسيحية
بين هؤلاء الفيكنج بطريقة تدريجية كان له أثره فيما أظهره من تقدم في ميادين
الحضارة من جهة وفيما حدث في سلوكهم العام من تهذيب من جهة أخرى، وإن
كان تهذيباً تدريجياً.

(1) Schjoth : "Denmark and its sister States" B. H, VII.
pp. 3550-60

(2) Ibid, p, 3559

الفصل الثاني عشر

مملكة نورمانديا في غالة

غزو النورمان لنورمانديا وتأسيس مملكتهم فيها - دور رولو في إرساء قواعد المملكة الجديدة - استمرار الصلات بين نورمانديا وبلاد الغال - احتياق النورمان المسيحية الكاثوليكية - وضع نورمانديا بالنسبة لغالة وبداية تحول النورمان إلى مواطنين فرليسين - أشهر أذواق نورمانديا - وليم دوق نورمانديا السادس - السنوات الأولى من عهد هذا الدوق - علاقات وليم الخارجية - علاقاته بأهم - علاقاته بملك فرنسا - التنظيمات الداخلية - في نورمانديا في القرن الحادي عشر - ازدهار نورمانديا - نورمانديا مجتمعا إقطاعيا - القضاء النظام الإداري - الفنون المالية - سياحة وليم تجاه الكنيسة - نورمانديا وإنجلترا - غزو وليم لإنجلترا سنة ١٠٦٦ م - أمر وليم الفاتح في التاريخ الإنجليزي - إمبراطورية وليم العظيم - الظروف التي تم فيها فتح إنجلترا على يد النورمان - وليم وملك إنجلترا الجديد - هارولد - معركة هاستنجز الشهيرة سنة ١٠٦٦ م وانتصار وليم فيها - نتائج الفتح النورمانى .

كان الشالون أو النورمن قد غزوا نورمانديا بضاعة منذ سنة ٨٤١ م ، ولم تتوقف غاراتهم حتى سنة ٩٦٦ م ، وكان منح رولو Rolló وأتباعه إنليم نورمانديا

سنة ٩١١م أبرز أحداث تاريخ النورمان هذه البلاد ، ونقطة البداية في تأسيس
لمملكة النورمانية بنفالة ، كما جاءت سنة ٩١١م في منتصف قرن وربع من الغزو
والاستقرار لرجال الشمال في ذلك الإقليم^(١) . فبعد سلسلة من المغامرات
النورمان بنفالة ، رأى الملك الفرنجي شارل البسيط ، أن يمنح رولو الجزء الشرق
الذي عرف فيما بعد باسم نورمانديا ، كإقطاع له ولوجاله نظير ارتباط هذا
بالثبعية له وحلفه بين الولاء^(٢) ، فتح رولو الإقليم الواقع على جالبي نهر السين ،
الذي عرف فيما بعد بنورمانديا العليا ، وإن حصل النورمان بعد ذلك ، في سنة
٩٢٤ على وسط نورمانديا ثم الجهات القريبة في كوتتين Cotentin والأفرايين
سنة ٩٢٣م^(٣) .

أما عن رولو نفسه فلكه كان قرصانا كبيرا بموطنه بشبه جزيرة اسكنديناوة ،
ويبدو أنه تعرض لنصب الملك هارولد هناك ، فهرب ، وأخذ يمارس التجارة في
بعض الجور القريبة وفي غالة ، ثم أصبح يارلا أعظم بين أتباعه ، ثم تآلق نعمة
بعد غزوه لنورمانديا وحصوله عليها كإقطاع^(٤) ، وهناك رواية لإحدى الساجات
« Saga » المحلية تحمل منه « واطنا نرويجيا » ، بينما حاول بعض الباحثين الدانمركيين
إثبات أنه دانمركي ، هل حين سمع بعض الأبحاث لإثبات أنه من أصل سويدي ،
لكن يبدو أن النظرية النرويجية - في مجموعها - أكثرها قبولا واحتمالا ، لاعتقادها
على رواية إحدى الساجات الموثوق بها ، مع بعض الشواهد والقرائن الأخرى



(1) Haskins: The Normans in European History. pp. 26-7

(2) Schjeth: "Great days of the Northmen". in B.H. VII. p.3550

(3) Haskins : op. cit. pp. 27-8

(4) Cantor : Med. Hist. p. 254

للدعة^(١)، وعلى كل حال كان استقرار رولو وأتباعه في نورمانديا بداية جديدة للعب الاسكندناوى فى ذلك الإقليم^(٢).

ويجب أن ننوه بأمر ذي بدء أن الصلات بين نورمانديا والشمال لم تنته بالمنة الى قدمت لرولو سنة ٩١١ م ، إذ ينبغى ألا نعتقد أن المملكة النورمانية الجديدة كانت مجرد نجم سيار أطلق فى فراغ ليحرك منفعلا وبعبدا فى فلك جديد ، ولكنها اجترت فى الواقع مستعمرة جديدة ونقطة متقدمة للعب الاسكندناوى فى الجنوب ، تنفيذها أعداد وجاهات جديدة من المهاجرين والمستعمرين من الوطن الشمالى ، فى الوقت الذى جرى اعتبارها أيضا بقعة تتباعد شيئا فشيئا عن الشمال ، لتدخل ضمن نظام سياسى جديد بفنالة الفرنجية وجاراتها^(٣). والواقع أن شارل البسيط ربما اعتقد أنه بهذه المنحة إنما ينشئ إقطاعا جديدا ، لقائد النورمان ليجمعه أحد أفضاله ويربطه به برباط التبعية الإقطاعية ، بينما كانت هذه المنحة بالنسبة لرولو - وهو خال الذهن من الأفكار الإقطاعية - مجرد منحة كاملة يمتلكها هو ورفاقه كأرض يحتويها فى وطنه ، وطبقا لذلك لم يجر اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة وما يحيط بها ، لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الدوبان فيما حولها ، ويعطونها الفرصة لتأكيد وجودها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها . وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيانتها كبلد إفرنجى وكستعمرة دأتمركية تبدو كدوقية شبه مستقلة

(1) Haskins : op. cit. p. 28

(2) Hallam : View of the State of Europe during the Mid, ages. p. 16

(3) Haskins : op. cit p. 44-5

تلقب دورها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر^(١).

وعلى الرغم من أن رولو قد تمسحنة ٩١٢ م ، وجرى تمييده وفقا للمسيحية الكاثوليكية وتسمى باسم روبرت Robert^(٢) ، وقرن توبته وهداية بالمنح السخية من الأراضي للكنائس والأديرة في وطنه الجديد ، وأن ابنه وليم (Long-Sword) كان من طراز أكثر رسوخا في المسيحية والفرنجية ، فإن هناك ثمة إشارات تهيء عن بعض ردود الفعل الاسكندناوى والوثني لدى الشعب النورمانى ، بالإضافة إلى بعض القرائن التي تؤكد استمرار بعضهم - لاسيا حديثي العهد - في عبادة الآلهة الوثنية مثل الإله ثور Thor والإله أودين Odin ، في وادي نهر السين^(٣) ، فضلا عن أن دستور رولو الذي أمكن الإلصاق بصورة عامة عنه ، كان بصفة أساسية اسكندناوى الطابع^(٤) ، غم أن رولو هذا نجح في إقرار الأمور بنورمانديا ، وقام بتقسيم الأراضي بين أتباعه وأندس القوايين وحفظ النظام في دوقيته^(٥).

وبداية القرن الحادي عشر ، وبعد أن تولفت الهجرة الإسكندناوية ، استطاعت نورمانديا أن تمتد على نفسها ، ووقفت على أقدامها منفردة ، كما أن تاريخها أخذ ينسج عن الفترة التي غصت بالأساطير والنصص الفاضحة ويصل إلى أصول ثابتة وشواهد تاريخية معروفة^(٦) ، ولم يمض قرن واحد على بداية

(1) Haskins : op. cit. p. 45

(2) Schjeth : op. cit. p. 3550

(3) Haskins: op. cit; pp. 45-6

(4) Ibid. p. 46

(5) Schjeth : op. cit. p. 3550

(6) Haskins ; op. cit. p. 40

الاستقرار بنورمانديا ، حتى كان النورمان قد تكيفوا مع البيئة المجاورة ،
واندمجوا إلى حد بعيد فيها ، بل حاز دوق نورمانديا منزلة سامية بالنسبة لنعمه
من اتصال ملك فرنسا (١) ، حتى ليذهب ميتلاند Maitland ، أنه بداية القرن
الحادى عشر أصبح النورمان فرسيين فى لغتهم وفى قوانينهم لكنهم كانوا
معززين كثيرا باستقلالهم الداخلى وحل استعداد ليحاووا الفرنسيين إذا تعرض
ذلك الاستقلال للخطر ، وطبقا لهذا المفهوم اعتبر النورمان دولتهم
عضوا فى مجموعة الدول الدانسلية فى طاعة ملك باريس ، مع تمتعها
بالاستقلال الداخلى والحكم الذاتى (٢) ، وكانت لغة حديثهم هى الفرنسية ولغة
كتابتهم هى اللاتينية ، وأسلوب وثائقهم القانونية هو أسلوب المحكمة الفرنسية
العلية باستثناء بعض المصطلحات الفنية فى قانونهم التى كانت لها أصول
اسكندلاوية (٣).

استقر النورمان إذن بنورمانديا ، واتخذوا من روان عاصمة ، وبدءوا فى
الاندماج فى البيئة المجاورة ، وتحولوا إلى الحديث بالفرنسية ، كل ذلك دون أن
يفقدوا حاسم القتال وجبهم للمقاومة (٤) وطبقوا القانون الفرنسى ، ولعل تحول
النورمان إلى الفرنسية هو الذى جعل النوق الثانى من أدواق نورمانديا وهو
وليم الاول يضطر إلى إرسال ابنه إلى بايو Bayeux ، ليتعلم اللغة الاسكندلاوية ،

(1) Cantor : op. cit. p. 254

(2) Pollock & Maitland : Hist. of English law, p. 66

(3) Haskins : op. cit. p. 66

(4) Schjoth : op. cit. p. 3550

لأنها لم تكن لغة حديث في روان (١) ، فضلا عن أن أثر هذه اللغة الشمالية كان ضئيلا في فرنسية نورمانديا ، والبهجة المحلية النورمانية ، وإن اقتصر هذا الأثر الشمال الاسكتلندي على التأثير في لغة البحر والاصطلاحات البحرية وحديث البحارة والصيادين الفرنسيين ، كما أثبت ذلك مؤرخ البحرية الفرنسية بوييل دي لا رولسير Bourcel de la Roussiere (٢) . وتسجل هذه الفترة المبكرة من تاريخ عائلة نورمانديا أودوقية نورمانديا ، بظهور الدوق الرابع من أديانها وهو ريتشارد الطيب (Richard the good) وابنه روبرت الذي عرف بـ روبرت العظيم ، وهو الدوق الخامس من أديان نورمانديا والذي قدر له أن يموت وهو عائد من الأراضي المقدسة بعد قيامه بالحج ، إذ توفي في آسيا الصغرى سنة ١٠٣٥ م ، وكاف روبرت هذا والد الدوق نورمانديا الصغير ولهم العظيم الذي عرف فيما بعد بـ ولیم الفاتح (١٠٣٥ - ١٠٨٧ م) (٣) .

والواقع أن ولیم - دوق نورمانديا السادس - كان أشهر أديان تلك الإمارة على الإطلاق ، لما تحقق على يديه من أعمال كان أبرزها إنهاء إمبراطورية نورمانية مدت سيطرتها إلى إنجلترا (٤) ، وشغل ولیم في سني حياته الأولى بنفسه مع أمضائه الإنشاعيين ، وجيرانه في غالة ، وما حدث من أموريته وبين ملك فرنسا ، إذ انتهز الانفصال للنورمان فرجة وفاة الدوق روبرت ، وأشعلوا الثورة من جديد ضد ابنه ولیم حتى عمت الفوضى ، وانتشر الاضطراب في

(1) Haskins : op. cit. p. 49

(2) Ibid . p. 49

(3) Ibid . pp. 52-3

(4) Schjoth : op. cit. pp. 3550-3

أسماء المملكة النورمانية^(١)، وبلغت هذه الفوضى ذروتها بثورة البارونات سنة ١٠٤٧ م، حين أشعل هذه الثورة وقادها اثنين من الأفاضل في نورمانديا السفلى، واحضر ولیم إلى الحرب في حالة سيئة ولاذ بالملك الفرنسي، ونجح بموته في تكوين جيش قاتل به الثوار وألحق بهم المزيمة، واستعاد مكانته في الدوقية، ثم أسمر في النهاية بنقى قادة الثورة والوج بينهم في السجون^(٢)، وباتهاء هذه الثورة بدأت نورمانديا تنعم بفترة سلام داخلي وازدهار حقيقي وظل دوقها الشاب ولیم العظيم غير أن المصاحب ما لبث أن ترايدت بالنسبة لسياستها الخارجية، مع نمو قوة هذا الدوق، فقد كان دوق نورمانديا هذا وحسب كون أنجو Anjou فصلين ملك فرنسا، ولكن علاقات كل منها بالآخر كانت تلم بالاستقلال التام، وباستثناء بعض اتفاقات الصداقة الخاصة، كانت العلاقات بينها يعومها عادة العداء والعنفية^(٣).

على أن العلاقات الخارجية مع جيران نورمانديا تألت اعتمادا كبيرا من ولیم، لاسيما وقد تميزت تلك العلاقات بالكفاح والنضال في سبيل تأكيد الذات، والمساخ على استقلال الإمارة، ففي الشمال وجدت فلاندرز، وفي الشرق كانت المملكة الفرنسية دائما، وفي الجنوب كانت هناك مقاطعتي ماين وأنجو، وفي الغرب كانت هناك إيرلاني، ومن حسن حظ نورمانديا على عهد ولیم أن «البريتون» Briton كانوا يسهون فترة تفكك وانحلال جهة الغرب^(٤)، على حين كان الفلنكيون في فلاندرز قد اندمجوا في إحدى الانطاقيات الفرنسية القوية،

(1) Cantor : Med. Hist. p. 256

(2) Haskins : op. cit. p. 60

(3) Ibid : p. 61

(4) Ibid, p. 61

وكانت علاقاتهم بنورمانديا في مجموعها علاقات صداقة ، وتوطدت أواصر الصداقة في تلك الفترة بزواج وليم من ماتيلدا ، ابنة كونت فلاندرز ، وهي إحدى الزوجات الملكية القليلة في ذلك العصر ، التي قامت على أساس المحبة واقتربت بالصدق والولاء والإخلاص . غير أن الحال اختلفت مع أنجو التي كانت قد بدأت كولاية حدود أقيمت في مواجهة بريتون اللوار الأدنى ، متخذة من قلعة أنجرز Angers مركزا لها وحسنا ، ومع أن أنجو ظلت صغيرة نسبيا في مساحتها إلا أنها امتدت كواحدة من أقوى الدول في غرب فرنسا ، وزادت خطورتها في ظل ساركيا جيوفري المطرقة Geoffrey the Hammer ، واتسعت رقعتها بد حدودها إلى ناحيتي الشمال والشرق ، حيث استطعت بدوقية نورمانديا على عهد دوقها العظيم وليم ، وكانت أنجو حينذاك تحت حكم جيوفري هذا ، فدخل في صراع مرير مع وليم ، وتميزت العلاقات بينها بالعروب (١) . وكان مصدر النزاع الكبير بين وليم وجيوفري ، هو إقليم ماين Maine ، الذي يقع متوسطا بينها ، فنال عن قيام الأنجويين بالاستيلاء على بعض القلاع النورمانية ، واستمرت محاولات النورمان ضد إقليم ماين فترة إلا أن أهم مدنه لم تسقط في أيدي النورمان إلا بعد وفاة جيوفري سنة ١٠٦٣ ، لتكتمل بذلك وحدة نورمانديا مع ماين ، الوحدة التي استمرت خلال الجزء الأكبر من التاريخ النورماني (٢) .

اما بالنسبة لعلاقة وليم مع ملك فرنسا ، فقد كانت أكثر تعقيدا ، فليس هناك جدال من الناحية القانونية ، أن دوق نورمانديا كان فصلا إقطاعيا للملك الفرنسي ، تحكمه وتربطه به التزامات الصداقة والخدمة التابعة من أداء دوق

(1) Full Bachin : "Chroniques des Comtes d'Anjou" : d. 378
Haskins ; op. cit. p. 62

(2) Ibid p. 63

نورمانديا بين الطاعة والولاء الملك الفرنسي . حقيقة أنه كثيرا ما انتهكت مثل هذه الصلات الإنشائية في مجتمع القرن الحادي عشر والثاني عشر ، إن لم تكن قد زعمت تماما ، لكننا نقابل في هذه الحالة بتناقضات خطيرة بين ما هو نظري وما هو واقع فعل (١) ، فوقع نورمانديا في وادي نهر السين وقريبا من الدولة الملكية ، قد أوجد فرصا لا تنتهي للاحتكاك ، ولتصد تجنب الطرف في أول الأمر ولعدة نحو قرن من الزمان توترت العلاقات وتدهورت ، فمقدت معاهدة صداقة وعالفة تستند إلى المصالح المشتركة بينها (٢) ، وجاء هيركاويه إلى عرش فرنسا بمعونة دوق نورمانديا ووجد خلفائه في الجيوش النورماندية الدعامة والسند لهم (٣) ، وعند رحيل روبرت إلى الفرق بغية الحج وضع ابنه الصغير (وليم) تحت وصاية الملك هنري ، كما أخذ الملك هنري الدوق وليم من باروفا سنة ١٠٤٧ ، كما قام وليم بتجديد نصف جيش الملك في حجة ضد أنجسوف في السنة التالية (٤) . غير أن هذه العلاقات الطيبة ما لبثت أن تبدلت قرب منتصف القرن الحادي عشر ، ولابد وأن نمو قوة وتأثير نورمانديا في المنطقة يسطي تفسيراً كافياً لهذا التغير ، ولذلك عند الملك هنري الثورة الداخلية ضد النورمان سنة ١٠٥٣ م كما حاول القيام بغزو شامل لنورمانديا في نفس السنة ، بينما حرق وغرب ودمر ونهب ما صادفه في طريقه في قلب الممتلكات النورمانية سنة ١٠٥٨ م ، غير أن لجوء النورمان إلى التريث وحسن توقيت المجملات المضادة قد بدد جهود الملك ،

(1) Ibid. p. 63-4

(2) Mahrenholtz : " France throughout the middle ages " B. H. VII. p. 3764

(3) Cantor : Med. Hist. p. 254

(4) Haskins : op. cit. p. 65

لكن وليم رفض أن يقوم بهجوم مباشر ضد مليكه ، الذى ظل يسامل من قبله باحترام شخصى بوصفه لورده الاقطاعى (١) ، وحتى بعد أن أصبح وليم نفسه ملكا ظل فى أغلب الظن يقدم الخدمة الحربية التى كان يؤديها للملك وهو دوق ، وعلى كل حال غدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية إلى حد بعيد حينذاك ، لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه (٢) ، وقد ظل العداء بين ملوك فرنسا وبين النورمان إلى أن وجد هؤلاء متنفسا فى إنجلترا يرضى طموحهم ويتبعهم جهم المغامرة والتوسع فنفضت حدة العداء بين الطرفين إلى حد كبير (٣) .

ولاشك أن نورمانديا قد ازدهرت تحت حكم رولفو وخلفائه ، وأصبحت أعظم أقاليم فرنسا فى الناحية الزراعية والتنظيمية (٤) . وكانت نورمانديا مجتمعا إقطاعيا إذ كان اللورد يملك الجباب الأكبر من الأرض يحتضى الإراث الاقطاعى ، وتؤدي له الخدمة الحربية ، وتزايدت سلطة اللورد بالنسبة لاتباعه ، كما تزايدت سلطات البايونات على من هم أدنى ، وليس فى كل هذا شيء يميز نورمانديا عن البلاد المجاورة فى شمال فرنسا ، فكما أن المجتمع الاقطاعى كان مجتمعا لامركزيا ، فمن المتوقع أن نجد سلطات الحكومة أساسيا ، فى أيدي اللوردات المحليين (٥) ، وفرضت الخدمة الحربية المستتقة لدوق نورمانديا على شكل وحدات غير مرتبة

(1) Ibid . p. 65

(2) Haskins : op. cit. p. 65

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3771

(4) Schjoth : op. cit. p. 3560

(5) Haskins : op. cit. p. 68

تكون من خمسة أو عشرة فرسان ، وكان تحديد أعداد من يقوم بالخدمة الحربية يجرى طبقا لتقاليد والعرف ويجعلها التزاما منتظما (١) ، وظلت هذه التقيود لها خطورة زائدة بالنسبة لقوة البارونات الحربية ، وكانت القلعة هي زمن وأساس السلطة الانتقالية ، ومن ثم فقد حرم الدوق بناء القلاع والحصون بدون إذن منه ، وكان يطلب أن تسلم إليه كلما احتاج إليها ، ولم تكن الحرب الخاصة والثأر أمرا ممنوعا تماما ، وإنما كانت مقيدة بأحكام (٢) .

أما بالنسبة للقضاء ، فعلى الرغم من الامتيازات الكبيرة التي كان يتمتع بها البارونات ، فقد بقيت لدوق سلطات شرعية واسعة ، وكانت هناك أماكن معينة تحت حمايته الخاصة ، وفي جرائم عادة كان للذنب يوضع تحت رحمة. أما بالنسبة للنظام الإداري ، فعلى الرغم من أنه ظل فيه كثير من الوجوه بدائيا ، فإنه كان يمارس الدوق ويشتى مع سلطته (٣) ، إذ كان لدوق النورمان أو اب حوميون يشرفون على شئون الحكومة المحلية . فكان الفيكونت *Vicomte* ، هو الذي يرأس فرق الدوق العسكرية ويحصى قلاعه ويحفظ النظام ويقيم العدل ويجمع الموائد الدوقية (٤) .

أما فيما يختص بالعشرون المالية ، فقد تفوق الأذواق النورمان على ملوك فرنسا في هذه الناحية ، ووصف المؤرخون المعاصرون ملك فرنسا بأنه كان أقل

(1) Cantor : *Med. Hist.* pp. 255-6

(2) Haskins : *op. cit.* p. 68

(3) Trevelyan : *op. cit.* p. 104

(4) Haskins : *op. cit.* p. 69

قوة من كبار أفضاله ، (١) ، وبأنه كان يعيش مثلهم من دخل مزارعه ومبوكسه ومدفوعات فلاحية وعمل أقاته ، ومن الضرائب المفنعة التي كانت تقدم له على شكل هدايا ومنح يحميها من الأساقفة ومقدمي الأديرة في الجهات المجاورة ، وبجي الدوق الثور ، أن كثيرا من دخله من المزارع والغابات والطرماحين وحقوق صيد الأسماك والاحتكارات وللمكوس المحلية ، فضلا عما التزم به كل فيكون من ضرائب معددة . وهكذا تفوقت الدوقية النورمانية في التنظيمات المالية والضرائبية (٢) .

أما عن سياسة ولیم تجاه الكنيسة ، فعلى الرغم من المنزلة التي احتلها رجال الدين في النصف الأول من القرن الحادى عشر عقب انتعاش الكنيسة بحركة الإصلاح الديرية الكلوية واحتلالها لمركز وصى وفكرى بارز في تلك الفترة ، فإنها لم تكن مع ذلك القوة أو السلطة العليا في نورمانديا (٣) ، فكان الدوق هو الذى يمين أساقفتها ومعلم مقدمى أديرتها ، ويجلس في مجامعها الإقليمية ، ويعيد النظر في أحكام محاكمها ، ولم يدع ولیم أدنى شك في أنه كان السيد الأعلى ، إذ انتهج نهجا استقلاليا عن البابوية كما فعل من قبل أدواق نورمانديا (٤) ، الأمر الذى أنذر بصدام ونزاع مع الكنيسة ، غير أن ولیم خرج من ذلك النزاع منتصرا وأجبر البابا هديراند العظيم نفسه على الاستسلام (٥) .

(1) Luchaire : "La quatre premiers Capetians" in Lavisse : Hist. de France, II, p. 176

(2) Haskins : op. cit. pp. 70-1

(3) Trevelyan : op. cit. pp. 105

(4) Cantor : op. cit. p. 255

(5) Haskins : op. cit. p. 71

وعلى الرغم من محصول النورمان إلى اللغة الفرنسية والعادات الفرنسية ، واتجاههم إلى العناية بالفنون والآداب ، إلا أنهم لم يفقدوا حماسهم للحرب وجبهم للغامرة ، ولقد حاول النورمان الاحتفاظ بكثير من سماتهم على مر العصور ، حتى أن سكان نورمانديا الحاليين يختلفون إلى حد ما عن بقية سكان فرنسا في المظهر العام وفي الصفات والخلق ، وفي الطباع والمزاج ، فهم دائماً يظهران اهتماماً كبيراً بالتجارة والبحرية وكانت نورمانديا باستمرار موطن البحارة والمكتشفين (١) .

وهكذا كان امتداد الحدود النورمانية وتكوين الامبراطورية النورمانية نتيجة حتمية لنمو هذه الدولة نحواً متاعلاً في النظم الداخلية ، إذ غدا الدوق النورمانى يحكم مملكة قوية متماسكة جرى تنظيمها داخلياً تنظيمياً رائعاً (٢) ، وحازت حكومتها سلطة قوية حازمة فوق كل السلطات ، فإذا كانت إنجلترا التي ضمتها نورمانديا ، قد تمسرت في تلك الفترة بالضعف ، فإن ذلك ليس كافياً لفهم هذا الحدث ، وإنما يجب أن يؤخذ في الاعتبار قوة نورمانديا وحسن تنظيمها (٣) .

ويعتبر الحدث الرئيسى في التاريخ النورمانى ، بعد قدوم الشماليين هو غزو النورمان لإنجلترا ، وكما أن العلاقات مع الشمال كانت أهم ملامح القرن العاشر بالنسبة لنورمانديا ، فإن العلاقات مع إنجلترا المفتوحة هي أبرز ملامح القرن الحادى عشر ، ونقطة التحول في هذا هو الفتح الذى حدثت سنة ١٠٦٦ م على يد

(1) Schjoth : op. cit. p. 3552

(2) Ibid : pp. 3550-3

(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

وليم ، الذي عرف بعد ذلك بوليم الفاتح (١) . وكان وليم حفيدا للدوق الرابع من أدواك نورمانديا «رينشارد العليب» وابنا لدوقها الخامس «روبرت العظيم» الذي توفي بآسيا الصغرى سنة ١٠٣٥م أثناء عودته من الحج إلى بيت المقدس ، كما سبق الإشارة ، وكان روبرت والد وليم معاصرا لملك إنجلترا الكبير كانوت Canute (٢) ، وحتى روبرت بشهرة دائمة في أوروبا قاطبة في أوائل القرن الحادي عشر ، حتى أنه أعطى نورمانديا فترة ازدهار ورخاء وعصر عظمت وقوة في ذلك الوقت (٣) ، ومن بعده نال ابنه وليم شهرة بزت شهرة أدواك نورمانديا جميعا .

والواقع أن وليم لم يكن فاتحا وقائما في ميادين الحرب فحسب ، بل كان أيضا حاكما عظيما ، سواء اتخذنا مقدوره على الحكم معيارا لذلك أم اتخذنا نتائج منجزاته حصرا مبيانا لذلك ، فليس هناك حاكم كان له مثل هذا الأمر المميز في التاريخ الإنجليزي (٤) ، ويصفه ادوارد فريمان بأنه كان مجدد نورمانديا وفاتح إنجلترا ، الذي يحق له أن يوضع في المرتبة الأولى بين عظماء الرجال في العالم (٥) . والحقيقة أن وليم كان قائدا قديرا ، كما كان داهية في الحرب ، مثلما كان دبلوماسيا بارعا وحاكما محبوسا من رجاياه وأتباعه ، ورجل دولة ممتاز على الرغم

(1) Haskins : op. cit. p. 52

(2) Trevelyan : op. cit. p. 98

(3) Haskins : op. cit. pp. 52-3

(4) Schjeth : op. cit. pp. 3550-3

(5) Edward A. Freeman : Hist. of the Norman Conquest: II pp. 164-7

ما شابه كل ذلك من بعض التسمية والحزم والارادة العنيدة التي لا تلبث (١) .
ومن صفاته التي اوردتها ملحمة من القرن الحادي عشر ، يتضح أن وليم الفاتح
أظهر كثيرا من آيات التقوى والورع ، إذ أسس ديرا عظيما في الموضع الذي تم
له فيه فتح انجلترا ، وأقام به رحبا وجملة في غاية القراء ، كما جرى من بعده
بناء دير كانتبرى الشهير ، وكثيرا من الأديرة غيره في أنحاء مختلفة من انجلترا ،
وفوق ذلك ملث انجلترا بالرحبان ، (٢) . وبلغ من شدة هيبة وليم في انجلترا
أن ضرب على أيدي العاشقين والصوفيين وأقر الأمور بانجلترا حتى غدا يوسع
أي شخص أن يسافر على طول المملكة وعرجها محلا بالذهب ، دون أن يتعرض
للأذى أو يرضه أحد في رحلته ، ولم يكن أحد يجرؤ على قتل آخرها كان
جسم الضرر الذي تعرض له من قبله ، وبسط وليم سيطرته على جهات كثيرة في
انجلترا : فعوى بريطانيا (٣) ، أرض البريتون Britain وشيد بها الفلاج وضم
إليه جزيرة مان Man ، وضممت له اسكتلندا ، بالإضافة إلى دوقية نورمانديا ،
وإقليم ماين Maine في غالة (٤) ، لكنه قرن كل تلك الأعمال العظيمة بشيء من
السف وحب المصادرة ، وأظهر ميلا للاستيلاء على الأموال ونهبها وجمعها عظيما
في هذه الناحية ، حتى اشتكى الأثنياء وظهر التقصير ، ولكنه لم يضل بأحد
منهم (٥) ، وفي النهاية توفي وليم الفاتح ولم يكن قد تعدى الستين سنة من عمره ،

(1) Freeman : op. cit. II, p. 166

(2) " translated by giles [London 1847] pp. 461-3

Haskins : op. cit. pp. 56-8

(3) Mahrenhelts : op. cit. p. 3709

(4) Haskins : op. cit. pp. 56-7

(5) Cantor : op. cit. p. 257

بند أن حكم إنجلترا بعد فتحها قرابة عشرين عاما .

هذا ويجب أن نذكر أن نجاح النورمان في فتح إنجلترا لم يكن بسبب ضعف إنجلترا بقدر ما كان بسبب قوة نورمانديا ، التي غدت قرب منتصف القرن الحادى عشر ، أقوى من أي من جاراتها في القارة الأوروبية ، بل أقوى من ملكيتها الفرنسية ذاتها (١) ، وكان لابد لنورمانديا أن تتوسع جهة الغرب وتجه نحو إنجلترا بالذات ، وتعد الدلائل إلى أن وليم العظيم بدأ يهتم بمشئون إنجلترا ابتداء من سنة ١٠٥٠م وتطلع إلى حيازة التاج الإنجليزي منذ ذلك الوقت (٢) ، بسبب التنهاب الدائم بين كل من نورمانديا وإنجلترا واستيلاء النصر الشمالى على مقاليد السلطة في كل ، فضلا عن التقارب بين البلدين في كثير من المجالات لاسيما في النواحي التجارية ، بالإضافة إلى حدوث مصاهرات سياسية بين الأسرتين الحاكمين في كل منها إبان القرن العاشر (٣) ، إذ تزوج الملك الإنجليزي إيثيلرد Ethelred من إما Emma أخت دوق نورمانديا وتربى ابنها ادوارد للمعترف The Confessor في البلاط النورمانى ، حتى أصبحت عاداته وعراطفه نورمانية أكثر منها إنجليزية (٤) ، وسجن أعلى العرش الانجليزى ادوارد سنة ١٠٤٢م فتح الطريق لنمو سريع للمؤثرات النورمانية في الكنيسة والدولة ما ، الأمر الذى اعتبره المؤرخ فريمان البدايات الحقيقية للغزو النورمانى لإنجلترا (٥) ، وجب أن ادوارد المعترف توفى سنة ١٠٦٦م دون

(1) Schjeth : op. cit. pp. 3550-3

(2) Cantor : op. cit. p. 257

(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

(4) Trevelyan : op. cit. p. 107

(5) Freeman : Norman Conquest, II. p. 166

Haskins : op. cit. p. 73

عقب ، فقد اقترنت هذه الحفبة فصلا من نهايتها ، اذ تنازع على العرش بعده
اثنان : أحدهما هارولد بن جودوين Godwin أكثر إيرلات إنجلترا قوة (١) ،
والآخر وليم ، وكان هارولد قد أحجم عن تقديم أي مطلب بوراثة العرش قبيل
وفاة إدوارد حتى يبدو أنه حصل على تأييد الملك قبل وفاته ، فضلا عن أنه جمع
إلى جانب ذلك بين قوة البأس والظهور بظهور الرجل الأول أو القائد الأول في
المملكة ، أما وليم فيوصفه ابن خال الملك المتوفى فقد دعم مطلبه في العرش بالاستفهاد
بنص بيكر أو تصريح نسيه إلى إدوارد بأنه الوريث الشرعي الوحيد لعرش
إنجلترا (٢) ، فضلا عن استفهاده بقسم أو يمين قال إنه استخلصه من هارولد ،
ولقد مكنت هذه المناورة الأخيرة وليم من أن يظهر كعارب ضد من نقض
العهود وتكر للوعود ، ومنحته هذه المناورة ميزات كثيرة وتطلع إلى معونة
الابا ألكسندر الثاني الذي رفضه إليه القضية لدراسها (٣) .

وكان هارولد قد اختير ملكا بواسطة مجلس الحكماء Witan ، عقب وفاة
إدوارد مباشرة ، وبدأ به أن ذلك كان إجراء قانونيا ينطوي على تأييد كبير (٤) ،
على الرغم من أن ذلك لا يرتبط بفكرة قومية أو ولاء ذاتي ، لأن القومية لم تكن
تقريبا شيئا في ذلك العهد ، لاسيما بالنسبة لإنجلترا المجاورة المقسمة إلى نالحاشي .
كبير من التخريب إبان الغزو الداني ومن جراء الغزوة الانفصالية الداخلية ، فضلا

(1) Trevelyan : op. cit, p. 111

(2) Davis & Arthur : "England before the Norman Conquest"
B. H. VII. p. 3846

(3) Haskins : op. cit. p. 74

Gantor : op. cit. pp. 337-8

(4) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

عن أن مفهوم «الأجنبي» كان لا يزال غير واضح في أذهان المعاصرين ، ولا زال عهد الملك كاثوليك ماثلاً في الأذهان ، يؤكد أن إنجلترا لم تكن تتخفى أن يلح عرضها ملك مملوك في الخارج (١). حقيقة كانت المناقشة بين هارولد - نصف الدانير - ووليم النورمانى تجرى كما لو كانت بسبب التنصب للقومية إلا أنها لم ترق مطلقاً إلى مرتبة الكفاح القومى (٢). وكان وليم قد قضى الفترة بين وفاة ادوارد المعترف وتويج هارولد أبى من يناير سنة ١٠٦٦ إلى عبور القناة الإنجليزية في سبتمبر سنة ١٠٦٦ م في الاستعدادات لنزو إنجلترا (٣) ، وإذا كانت هذه الحملة خضعة لاي يمكن أنه تنهض بها التزامات الخدمة الحربية من أفعال وليم ، فقد لجأ هذا إلى استشارة حماس النورمان وجيهم للغامرة ، وبراعتهم في استخدام الأسلحة ، ووعدهم بالأراضي الواسعة والغنائم الكثيرة ، ولم يجد خضاضة في تسجيل أسماء فرسان من أجزاء أخرى من فرنسا من بريثاني وفلاندرز وبوتو Poitou ومغارين أيضاً من أسبانيا البعيدة وصقلية (٤) .

نزل النورمان في أواخر سبتمبر سنة ١٠٦٦ ، على الساحل الإنجليزي عند بكنسى Pevensy ، وساوروا إلى هاستينجس (٥) ، حيث التقوا في ١٥ أكتوبر بفرق هارولد التي أسهبها النصر الكبير الذي حققته على الزويجيين عند قطرة ستامفورد Stamford (٦) ، والتي كانت تحتل حينذاك كلا حصانجيدا يمد

(1) Haskins : op. cit. p. 74

(2) Cantor : op. cit. p. 337

(3) Trevelyan : op. cit. pp. 114-7

(4) Haskins : op. cit. p. 75

(5) Schjoth : op. cit. p. 3552

(6) Davis & Arthur : op. cit. p. 3840

Haskins : op. cit. p. 75

عن هاستنجر وإلى الداخل نحو ثمانية أميال على طريق لندن ، ووقف في مقدمتهم الحراس المهرة House - Carles بحصين حاصل متين من دروعهم تدهمهم فرق الثينات thegnas ، والفرق الأخرى للأسلحة تسليحا جيدا ، ومن ورائهم وبجانبيهم وقف المجندون من أبناء الريف مسلحين بالرماح والمراوات الحجرية وأسلحة الفلاحين ، وكان لديهم قليل من رماة السهام ، ولم يكن لديهم فرسان على الإطلاق ، إذ لم يكن الإنجليز حتى ذلك الوقت قد تعلموا أن يحاربوا وهم ركوب على الخيل أي أنهم لم يدخلوا في جيوشهم نظام الفرسان (١) ، غير أن سفح التل كان عميا جيدا من هجمات خيالة النورمان ، أما الخطوط التورمانية فكانت تكون أولا من رماة السهام ، ثم معانة الجنود للمسلحين بأسلحة ثقيلة ، ثم أخيرا الفرسان المدرعين ، وقد قدر بعض المؤرخين عدد جنود هذه الحملة التورمانية بما لا يقل عن اثني عشر ألف جندي ، نصفهم على الأقل من الفرسان (٢) ، ويقوم بعضهم الرئيسي حول ولیم والعلم الذي تلقاه من البابا وبعد أن كان ولیم قد حصل على بركات البابا وتمنياته الطيبة لإتمام هذا المشروع (٣) .

وبعد هجوم تيمیدی قام به رماة السهام وللشاة النورمان تقدم الفرسان نحو الصفوف الإنجليزية ، إلا أنهم سرعان ما ارتدوا عن التل بسبب هف المقاومة بينهم جرح من الإنجليز وغير أن ولیم برز حارى الرأس ليراه جنوده ، فأحدثت

(1) Cantor : op. cit. p. 336

(2) Oman : England before the Conquest, p. 641

Roud : Feudal England p 265, pp. 289-92

Trevelyan : op. cit. p. 115

(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

رويته أثرا في نفوس المهند قائلأم صدمهم وانحسرت جوعهم (١) ، وحيث أن الكتل الانجليزية كانت تقف صامدة خلف حائطها المدرج ، فلم يكن هناك سبيل إلى كسر هذا الخط سوى خدعة المروء المصطنع أو التظاهر بالانهزام ، حيث يعود الجنود النورمان بسرعة ليعيطوا بجموع الإنجليز في أثرهم ويعزءونهم إلى جماعات صغيرة ، في الوقت الذي أحسدت سهام النورمان الثغرات في الحراس الإنجليز House carles ، ونفذ من هذه الثغرات فرسان النورمان صوب حرس الملك المسلمين بنفوس الحرب ، ولم يلبث أن اشتد وطيس القتال وأظلمت الدنيا فوق سماء المعركة وتكاثر القتل (٢) ، وجرح هارولد جرحا قاتلا بسهم من السهام ، وانفل حرسه وتفرقت جموعه . وهكذا قررت هذه المعركة مصير إنجلترا وقدرها ، واتخذ النورمان طريقهم مباشرة إلى لندن مقر حكم هارولد (٣) ، وتم إسكات جيوب المقاومة بعد ذلك ، وتوج وليم ملكا على إنجلترا يوم عيد الميلاد ، فتم بذلك إلحاق إنجلترا بنورمانديا (٤) .

وكان أبرز نتائج الفتح النورمان بالنسبة لإنجلترا ، أنه حول إنجلترا جهة الجنوب ودرج بها دفعة واحدة في التيار الرئيسي للشئون الأوروبية والمهاكل السياسية لأوروبا ، والعلاقات الكنسية والتأثيرات الثقافية ، بعد أن كاد الفزو الداني يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيدا إلى الشمال (٥) ، فضلا عن أن هذا

(1) Haskins ; op. cit p. 79

(2) Trevelyan : op. cit. p. 117

(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

(4) Haskins ; op. cit. p. 82

(5) Trevelyan : op. cit. p. 102

Haskins : op. cit. p. 82

الفتح ، جعل إنجلترا جزءاً من فرنسا ومنحها لغة فرنسا وأديبها وفنها أيضاً ، وأصبح قانونها إل حد كبير قانوناً فرنجياً ، وغدت مؤسساتها الاقتصادية أكثر تنسوجاً وكالاً ، مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورمانديا ، وحل إليها التأثير الفرنسي في شكل نورمانى (١) ، ولاشك أن هذا التأثير برز في الميادين التي تفوق فيها النورمان بصفة خاصة لاسيما في مجال الحكومة ، والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، إذ تطابق الإقطاع الإنجليزي والإقطاع النورمانى (٢) ، كما أن الملكية النورمانية هي التي كان لها وزنها وأثرها ، وهي التي حولت الدولة الأنجلو - سكسونية المتفككة إلى الأمة الإنجليزية . وهكذا لم تتحول إنجلترا إلى دولة أوربية إلا بعد أن دفعت الثمن بدمها بلداً نورمانياً (٣) .

ولقد اعتبر فتح إنجلترا العمل التتويجى لتاريخ النورمانى ، حقيقة كان ذلك النجاح راجع في أغلبه إلى حسن الحظ ، ولعدم وجود الأسطول الإنجليزي ولتوفيق السياسة الفرنسية والأخطاء التي وقع فيها الإنجليز (٤) ، لكن لا بد أن يؤخذ في الاعتبار قوة وحسن تنظيم نورمانديا وشخصية قائدها وليم الذي كان دبلوماسياً ومحارباً وقائداً قديراً ورجل دولة عظيم . وبفضل بطله وذكاؤه استطاع أن يحول هزيمة الإنجليز إلى بداية صنع الأمة الإنجليزية ، (٥) ولقد شاركه في مواهبه وقدرته السياسية بارونات النورمان إذ تعاون الجميع في بناء

(1) Haskins : op. cit. p. 82

(2) Trevelyan : op. cit. p. 103

(3) Haskins : op. cit. p. 82

(4) Davis & Arthur : "The Norman period in England" in E. H. VII, p. 2857

(5) Haskins : op. cit. p. 83

الدولة في إنجلترا ، وأمدتهم هذه التجربة الجديدة بمقل خصب لمزاولة قدراتهم السياسية ومهارتهم العظيمة في الحكم ، وهي القدرات التي كانت قد ظهرت قبل ذلك بجلاء في نورمانديا (١) .

ويفتح إنجلترا على بدوليم العظيم يبدأ عهد جديد في حياة النورمان ، وتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ نورمانديا ، إذا بدأ النورمان يؤسسون امبراطورية عظيمة توسعت فيما حولها ومنعت إنجلترا وانجوا وبدأت حقبة جديدة في تاريخ النورمان في المصور الوسطى .

الفصل الثالث عشر

ملكة النورمان بجنوب إيطاليا وصقلية

تأسس المملكة بجنوب إيطاليا - دور أبناء هونفيل في تأسيس المملكة - قدوم روبرت جويسكارد إلى إيطاليا - جويسكارد يرسي دعائم حكم النورمان هناك - موقف البابوية من نشاط النورمان - توقيع اتفاقية بين البابوية والنورمان - النورمان وجزيرة صقلية - أحوال الجزيرة حتى الغزو النورمانى لها - الغزو النورمانى لصقلية - سقوط بالرم في أيدي النورمان - دور ابن عباد في التصدي للنورمان - مقتل ابن عباد واستلام الجزيرة للنورمان - وفاة روبر الأول سنة ١١٠١ م - عهد سيمون - روبر الثانى (١١٠٧ - ١١٥٤ م) السنوات الأولى من حكمه - سياسته الداخلية - سياسته تجاه مسلمى مملكته - علاقاته الخارجية - وفاة روبر الثانى - السنوات الأخيرة من عهد ملكة الصقليتين.

كان للنورمان دور هام وخطير في التاريخ الأوروبى الوسيط ، وكان أثرهم واضحا في جهات مختلفة من أوروبا ، ففي الوقت الذى لعبت فيه نورمانديا دورا بارزا في حرب أوروبا ، وأخلت تتطلع إلى تكوين إمبراطورية نورمانية تضم إنجلترا وأجزاء أخرى من غالة كألمجر وماين وبريتانى (١) ، اتجهت بعض

النورمان إلى نقل نفطهم إلى جنوب إيطاليا وصقلية لتكوين مملكة نورمانية جديدة في تلك الجهات .

وكانت إيطاليا تتنازعها عدة قوى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، من البيزنطيين والليباردين والامبراطورية الرومانية المقدسة ، فضلا عن البابوية التي حاولت تأكيد سيطرتها على أجزاء كثيرة من إيطاليا ، وتبسط المسلمون بسلطانهم على بعض الماقل في الجنوب الغربى لإيطاليا (١) ، وجزيرة صقلية برغم محاولات بيزنطة طردهم منها ، لاسيما وقد سقطت في أيدي المسلمين مدينة سرقوسة عاصمة الجزيرة سنة ٨٧٨ م (٢٦٣ هـ) (٢) ، وظلت بعض الدوقيات الليباردية باقية في جنوب إيطاليا في بنفتو وسالير وكابرا (٣) . ولقد سهلت تلك الفوضى بجنوب إيطاليا النورمان عملية تأسيس مملكة لهم هناك ، وذلك حين استعان ميلين وهو مواطن من مدينة بارى Bari بأربعين حاجا نورمانيا نزلا في مونت جارجانو ، وهم في طريق هودتهم من الأراضى المقدسة من الساحل الشرقى لإيطاليا حيث مزار القديس ميخائيل ، لقيام بثورة ضد السلطات البيزنطية مستغلا فرصة توغل المسلمين في تلك الجهات (٤) ، ورحب هؤلاء الحجاج بمساعدته وعملوا معه جندا مرتزقة . وإذا تمكن ميلين من الانتصار على قوات بيزنطة بمعاونتهم (٥) ، ذاعت شهرة النورمان كثيرا في إيطاليا كحاربين أشداء ، وجنود لهم قوة بأس وحرصا فحفظوا برحاء البابوية وحازوا إعجابها .

(1) Cantor : Med. Hist. p. 164

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 211

(3) Oman : The Dark ages. pp. 446-7, p. 450

(4) Hearder & Walsey : Italy from the Classical times to the present days. p. 37

(5) Le Moine : The world of the middle ages. p. 276

ولقد نقل هؤلاء المحتاج إلى ذوبهم بعد عودتهم إلى نورمانديا ، صورة
 ماشهده بجنوب إيطاليا من قوضى واضطراب ، فهوى إلى جنوب إيطاليا
 كثير من النورمان للعمل كجنود مرتزقة في جيوش الأديان والأمراء المتنازعين
 هناك ، وكان أبرز دور لعبوه حينذاك ، انخيازهم إلى جانب دوق نابلى «مريجوس»
 سنة ١٠٣٠م ضد الأمير الليباردى في كابوا (١) ، الأمر الذى جعل دوق نابلى
 يكافئ زعيم النورمان «روالوف» بمنحه قطعة أرض غنية كانت تسمى أرض
 اللآ Terra di Lava ليقيم بها مع قومه إقامة دائمة ، وفي تلك المنطقة أسس
 النورمان مدينة أفرا Averza سنة ١٠٣٠م ، وهى التى غدت أول مركز دائم لهم في
 جنوب إيطاليا ونقطة انطلاق نحو تأسيس مملكة جديدة (٢) . وطوال النصف
 الأول من القرن الحادى عشر أخذ النورمان يتكاثرون بجنوب إيطاليا ، ويتركزون
 فى البقعة التى منحها لهم (٣) ، وفي مدينة أفرا ، واشتهر من زعمائهم فى ذلك
 الوقت ثلاثة من الإخوة من أسرة «موتفيل» Hauteville هم «ولسم» و«فرى»
 و«دوجو» ، وهم من بين اثنى عشر ولداً لتانكرد موتفيل ، وكان «دوجو»
 جويسكارد الابن السادس من بينهم (٤) ، وقال أبناء موتفيل شهرة دائمة ، بفضل
 شجاعتهم ومهارتهم فى القتال وحجيم البغامة وشدة بأسهم ، ولهذا استعان بهم
 البيزنطيون فى محاولتهم سنة ١٠٣٨م لطرد المسلمين من جزيرة صقلية (٥) ، لاسيا
 وقد اضطرت أحرارها واختلف المسلمون فيها وترددوا بين الولاء لفاطمين أو آلولا
 للزيريين بشمال إفريقيا ، ولقد ترتب على ازدياد نفوذ النورمان حينذاك ، وضعف

(1) Camb. Med. Hist. V. 8. p. 169

(2) Hearder & Waley : op. cit. p. 37

(3) Camb. Med. Hist. V. 111, p. 268

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 37

(5) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 118

سلطة بيزنطة ، أن غدا ولیم موتفیل - أحد الإخوة الثلاثة - أميرا على النورمان في أبوليا سنة ١٠٤٢م ، فانتخب ماني Malzi مركزا له ، وبعد وفاته سنة ١٠٤٦م نصب أخوه دروجو أميرا على أبوليا (١) .

ومالبيك أن قدم إلى جنوب إيطاليا قائد نورمان آخر من أسرة موتفيل أيضا هو روبرت جويسكارد ، وكان أحد أبناء موتفيل من زوجة ثانية ، أي أنه لم يكن أبا شقيقا لولیم وجرمى ودروجو ، وكان وصوله إلى جنوب إيطاليا في أوائل سنة ١٠٤٦م ، غير أن إخوته غير الأشقاء لم يرحبوا به ، ولم يعطوه سوى قطعة صغيرة من الأرض لم تكن ترضى طموحه (٢) ، ولهذا تحتم عليه أن يستند على نفسه لتحقيق أهدافه ، فلجأ إلى استئصال القسوة وممارسة النهب والسلب هو وعصابته ، ففرض نفسه على جموع النورمان بجنوب إيطاليا ، ثم عقدت له الزمانة على جيسسج أفراته سنة ١٠٥٧م ، ثم أصبح دوقا لمقاطعة أبوليا (٣) ، وجرى الاعتراف به من قبل البابا ، إذ أقر له بحكم دوقيات أبوليا وقلوريا وصقلية ، إذا تمكن من فتحها مقابل تأدية مبلغ من المال، وذاعت شهرة روبرت جويسكارد كقائد حربى ماهر وسياسى بارع ، على الرغم مما اتصف به من قسوة وتصف ، وعدم احترام العهد ، وقيامه بأى عمل فى سبيل الوصول إلى أهدافه (٤) . ولقد وضع روبرت نصب عينيه تصفية بقايا النفوذ البيزنطى بجنوب إيطاليا والحصول للنورمان على إمرة البلاد ، بل إنه تهرأ وهاجم القسطنطينية نفسها سنة ١٠٧١م والصقالية القاطنين على سواحل البحر الأسود ، ربما بتفجيع من البابوية ، التى

(1) Haskins : op. cit. p. 201

(2) Ibid. p. 201

(3) Keen : A Hist. of Med. Europe. p. 69

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 37

باركته من قبل حروب النورمان ضد للسليهن بأسيانيا (١) .

ولقد دأب النورمان حتى قبل عقد المائة لروبرت جويسكارده على العبث بجنوب إيطاليا والقيام بأعمال تنسم بالصف والندى والقسوة ، فأحدثوا كثيرا من الخراب والدمار في تلك البقاع ، وتسببوا في ازدياد استياء البابوية وحققا عليهم ، فضلا عن أنهم أخذوا يحاربون مرة في صف القوات البيزنطية ومرة مع الأمراء اللبباردين ، وذلك في سبيل تحقيق مطالبهم والقضاء على القوى المتنازعة ليصفوا لهم الجو ، فيتم لهم إتمام جنوب إيطاليا دون عيهم (٢) . وكان من مظاهر استياء البابوية وحققها على النورمان أن أقدم البابا ليو التاسع على إرسال جيش لمحاربهم سنة ١٠٥٣م لوضع حد لعبثهم بالجنوب ، غير أن النورمان تمسكوا في إطاق هزيمة ساحقة بهذا الجيش في Civitate ، بل وقع البابا نفسه في يد النورمان أسيرا (٣) ، ولكنهم أظهروا كثيرا من الاحترام لذلك البابا وسارعوا بإطلاق سراحه ، فأكدوا بذلك عميق قديهم وبلغ ووعهم ، في الوقت الذي واصلوا فيه مشروعاتهم العدوانية في الجنوب ، دون أن يتبعوا أسلوب جيش البابوية أو يحاولون إزالة ضربات أخرى بالبابوية (٤) ، وتضعج روبرت جويسكارده وغوا كاتبريا كلها تقريبا سنة ١٠٥٧م . وهكذا أجمت النورمان في Civitate أنهم قوة لا يستهان بها في جنوب إيطاليا ومن العبث التفكير في طردهم منها (٥) .

(١) باركر : الحروب الصليبية ترجمة د. العريفي ص ١٦ ،

Ostrogorsky : op. cit. p. 334

عبد الحمم ماجد : الملائكة والعرق والتراب ص ١٢١

(2) Cantor : Med. Hist. pp. 280-1

(3) Denis Mack Smith : A Hist. of Sicily, Med. Sicily p. 13

(4) Hearder & Waley : op. cit. pp. 37

(5) Grant : op. cit. p. 106

على أن البابا نيتولا الثاني (١٠٥٨ - ١٠٦١ م)؛ كان أكثر واقعية في تعامله مع النورمان، إذ تأكد أنه من الأفضل مهادنتهم، والاستفادة من وجودهم بجنوب إيطاليا، لإحراز الأمور هناك واتخاذهم حلفاء، خاصة وقد تكاثرت أطماع القوى المختلفة في أملاك البابوية، وتكالب الأباطرة على محاولة الحد من نفوذها بإيطاليا^(١)، كما يبدو أن الكودينال هلدبراند الذي صار بابا فيما بعد تحت اسم جريجوري السابع (١٠٧٢-١٠٨٥ م) لعب دورا بارزا في عقد تلك الصفقة الراجعة مع النورمان، إذ انتقل إلى كابوا بنفسه سنة ١٠٥٩ م، وقسام مع النورمان في عقد تلك الاتفاقية، ثم مالبت أن وقّع الاتفاق معهم نهائيا في ملني، وفيه جرى الاعتراف بشرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا نظرا لاعترافيهم بالبيعة البابوية ودفع مبلغ من المال لها والتعهد بمساعدتها حريا إذا تعرضت للخطر^(٢). والواقع أن هذه الاتفاقية كانت نقطة انطلاق للنورمان بجنوب إيطاليا إذ برزت دوقية أبوليا النورمانية، التي غدت الخطوة الأولى في تأسيس مملكة نابولي، وترتب على هذه الخطوة التمهيد لفصل جنوب إيطاليا عن شمالها والاستقلال بحكم هذه الجهات، وطرد البيزنطيين منها^(٣)، والتملح إلى فتح صقلية، وتكوين إمبراطورية صغرى تضم جنوب إيطاليا وصقلية، وقد أمكن فلا طرد البيزنطيين من مدينة باري بعد حصار امتد نحو ثلاث سنوات، ليتخلص النورمان من إحدى القوى التي نازعتهم السيادة في تلك الجهات سنة ١٠٧١ م^(٤). وإذا كانت البابوية قد وجدت في النورمان حليفا قويا لجهات إليه حينما سامت الأمور بينها

(1) Haskins : op. cit. p. 202

(2) Hearder & Waley : op. cit. pp. 37-8

(3) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 179-80

(4) Ostrogorsky : op. cit p. 305

وبين الإمبراطورية ، فإنها سرعان ما تنبسط إلى خط مسودة نهاط النورمان في الجنوب لاسيما بعد أن استولوا على كل جهات جنوب إيطاليا وصغوا الجيوب الداخلة في نطاق مملكتهم وطردوا البيزنطيين منها وحووا دوقية بنفسو ، التي كانت تتبع البابوية (١) .

ولقد حاول البابا جريجوري السابع أن يتدارك ذلك الخطر ويحد من نفوذ النورمان في الجنوب عن طريق الاستعانة بحليف آخر هو وليم كونت برجنديا ، إلا أن هذه المحاولة لم تثمر ، ولم يحفل روبرت جويسكارد بذلك ، بل مضى في خطته في الجنوب فنزاعا سالرنو وأمالفي ضاربا عرض الحائط بما أظهره البابا من تهرم واستياء (٢) ، وما لبث أن اشتد صراع البابا مع الإمبراطور حول حركة الإصلاح ونظرية التفوق والسمو ، فألح البابا تسوية مشاكله مع النورمان وتطلع إلى مساعدتهم ضد الإمبراطورية (٣) ، فأقر روبرت جويسكارد على ما يده من أملاك سنة ١٠٨٥ وتطلع إلى قيام النورمان بمساعدته ضد خطر الإمبراطورية ولهذا مضى خطط النورمان في طريقها المرسوم لابتلاع المنطقة كلها وتثبيت أقدامهم فيها (٤) . وبصفية الوجود البيزنطي وابتلاع الجيوب الداخلة في أملاك النورمان في جنوب إيطاليا ، وفتح جزيرة صقلية يوشك النورمان أن يحققوا مفروضهم لإقامة مملكة ثابتة لهم بتلك الجهات . فعند وفاة روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥م ووفاة البابا جريجوري السابع في نفس العام ، انقضت مرحلة هامة من تاريخ النورمان بجنوب إيطاليا جرى فيها تأسيس المملكة ، إذ اتسمت تلك

(1) Oman : op. cit. p. 447

(2) Hearder & Waley : op. cit. p. 38

(3) Grant : op. cit. p. 180

(4) Camb : Med. Hist. V. 5 p. 182

المرحلة بالغزو والحرب في سبيل تثبيت أقدام الغزاة توطئة لإقامة دولة ثابتة
الأركان في تلك البلاد (١).

التوحدان وجزيرة صقلية :

كان الأغابة بشمال إفريقية قد وجهوا جيشا في سنة ٨٢٧م (٢١٣) لفتح
جزيرة صقلية ، وعارلة ربطها بشمال إفريقية ، وفصل ارتباطها بجنوب إيطاليا
والقارة الأوربية ، ونجح الجيش الإسلامي بقيادة أسد بن الفرات في الاستيلاء على
بعض معاقل الجزيرة ومدنها ودخل المسلمون بالرم سنة ٨٣١م (٢١٦) (٢) ، ولم
يحل المسلمون بمقاومة بطريق صقلية وما كان يتلقاه من نجدات من بزنطة ، إذ
سقطت في أيدي المسلمين مسينه (مسيني) سنة ٨٤٣م ، ففتحت أمامهم الطريق إلى
جنوب إيطاليا (٣) ، ثم استول المسلمون على صيربانية سنة ٨٥٠م (٢٤١) وكانت
تمثل الركن الثاني من أركان المقاومة ، وسلبت لهم نوطس واستأنست وغوس ،
ثم بعد عشرين سنة من سقوط صيربانية جاء دور الركن الثالث من أركان
المقاومة وهو مدينة سرقوسة ، عاصمة الجزيرة وأهم مدنها والتي حظيت باهتمام
البيزنطيين للدفاع عنها (٤) ، والتي ظلت تقاوم المسلمين أكثر من خمسين عاما
حتى نجح الوالي الإسلامي جعفر بن محمد في حصارها لمدة تسعة أشهر حتى عدمت
الاقوات فيها ووعنت عنيتها ، وفشلت محاولات الروم لتجديتها ودخلها المسلمون
سنة ٨٧٨م (٢٦٣) (٥) ، غير أنه لازال جزء من القسم الشرقي بالجزيرة وهو

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 302, p. 305

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 185

(3) Pirenne : op. cit. p. 158

(4) Oman : op. cit. p. 440

(5) Pirenne : op. cit. p. 158

أقرب أجزائها إلى الروم يقاوم المحاولات الإسلامية ، ولم تستلم قطاعية وطبرمين وغيرهما من المدن الشرقية ، الأمر الذي دفع إبراهيم بن الأغلب إلى الخروج بنفسه سنة ٢٩٠ هـ (٨٢٨٩) إلى الجزيرة ففتح طبرمين (١) ، ولكن حاجته ضيقته لحالت بينه وبين تكملة فتح بقية جيوب المقاومة ، ولم تلبث أن تبدلت الظروف في شمال إفريقيا وبرزت الدولة الفاطمية في أواخر القرن الثالث الهجري ، وحاول ولادة الفاطميين في الجزيرة إكمال فتح الجزء الشرقي دون جدوى ، وظلت بعض جيوب المقاومة باقية ، إلى أواخر عهد المملكين بالجزيرة ، إذ قنع المسلمون بما كانت تؤديه تلك الجيوب من الجزية ، ووجهوا همهم إلى فتح سواحل إيطاليا الجنوبية (٢) ، وعلى كل حال كان استيلاء المسلمين على جزيرة صقلية تأميناً للبحرية الإسلامية وحماهاً لحرية الملاحة الإسلامية ووضعا لبداية السيادة الإسلامية على ذلك البحر (٣) .

انتقلت السيادة على جزيرة صقلية إذن إلى الفاطميين ، بعد قيام دولتهم بشمال إفريقيا ثم دخلت صقلية تحت حكم بنى الحسين الكلبيين ، الذين كان أولهم - الحسن ابن علي الكلبي - موفداً من قبل الخليفة المنصور الفاطمي سنة ٢٩٧ هـ (٨٢٣٩) ، وتماقبت على حكمها بعده عشرة ولادة على مدى خمس وتسعين سنة ، شهدت في أثنائها تقدماً وازدهاراً في كافة الجوانب (٤) ، كما شهدت جهادا مستمرا في جنوب إيطاليا ، وأدخلت صقلية إلى الهدوء واستتب الأمر لبنى الحسين الكلبيين ، الذين

(1) Ostrogorsky ; op. cit. p. 228

(2) Oman : op. cit. p. 450

(3) Marcais : La Berbérie Musulmane et L'Orient au moyen ages, p. 215 (Paris 1946).

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 34

اعتبروا أنفسهم مستقلين استقلالاً داخلياً في شئون الجزيرة ، وساعدوا على ذلك ما حدث من انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر وانتقالها بمشروعات أم وأظم ، إذ تنبع الفاطميون من ولاية صقلية بالطاعة والتبعية الإسلامية ، غير أن ابن الحسين الكليين مالوا في النهاية وبعد حذف الفاطميين إلى الدخول في طاعة الزيريين بشمال إفريقيا ، وترددوا في سياستهم بين هؤلاء وأولئك ، ثم برزت بعد ذلك حقبة جديدة في تاريخ صقلية ، وهي فترة أشبه بفترة ملوك الطوائف بالأندلس ، إذ استقل كل أمير بناحية من نواحي الجزيرة ، وتعدد حكام الجزيرة وتضارب مصالحهم واستقرت الفتن بينهم ^(١) ، حتى لجأ أحدهم وهو ابن الثمنة الذي كان يحكم سرغوسة وبعض المدن الأخرى ، والذي تلقب بالقادر بالله ، وأصبح يعرف بصاحب صقلية ، إلى النورمان يستعين بهم ضد ملك آخر وذلك سنة ١٠٥٢ م (٤٤٤هـ) ، ويقال إنه فعل ذلك بسبب امتناع الخليفة الفاطمي المستنصر عن مده بالمال نظراً لما كانه تعايه مصر حينذاك من حريق مالى شديد ، أو بسبب تنازعه مع وال آخر وتنافسها على حب امرأة ، فعلم ابن الثمنة العون من روجر ^(٢) . ويبدو أن أهل صقلية المسيحيين انتموا فرصة الاضطراب والانقسام بين أمراء النواحي ، وقادوا المقاومة من مسينى واستعانوا بهم النورمان وروجر الأول ، الذي كان يتحنن للاقتضاض على الجزيرة رغبة في تصفية نفوذ المسلمين فيها ، نظراً لقربها من أملاكه بجنوب إيطاليا ^(٣) .

وكان روجر الأول هذا أصغر الإخوة من أسرة هوثيل ، وكان قد وصل إلى جنوب إيطاليا قبل أخيه ووبرت جويسكلود ، ولقى جويسكلود بالترحاب

(1) Brenard Lewis : The Arabs in History. p. 118

(٢) عبد الله ماجد : الملوك في العرب والترك من ١٢٣

(3) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 176

سين وصل هذا إلى جنوب إيطاليا ، وأمدّه بقوات كافية لتحقيق أغراضه ،
ومصحه بالفرجة إلى كالابريا ، فتجمع جويسكارد في الاستعراذ على أراض واسعة
هناك (١) ، وترتب على هذا الدلاع نزاع بين الاثنين بسبب رفض جويسكارد
التنازل عن بعض الأراضي التي كان يطمع فيها روجر ، واندلع صراع مسلح بينهما ،
اتصل فيه روجر ، وتم عقد صلح بينهما . ويدّوا أنه روجر لم يكن قاعاً بما تم له
الاستيلاء عليه من أراض في جنوب إيطاليا ، لهذا اتجه بفكره إلى عقبة
لفتحتها (٢) ، واتخاذها مركزاً للملكة نورمانية لاسيا وأنها تتميز بوفرة خيراتها
وثرواتها الطبيعية ، على حين طمع روبرت جويسكارد أيضاً في ضمها إلى أملاكه
في أبوليا وقلوريا (٣) . وكان لابد للثنين أن يتعدا لانحياز ذلك المشروع
الكبير ، على الرغم من اختلاف هدف كل منها وطمع كل منها في الاستعراذ على
الجزيرة لنفسه دون الآخر ، وإن تسبب ذلك في حدوث سوء الفهم بينهما إبان
مرحلة الفتح نفسه (٤) .

بأمر النورمان بغزو الجزيرة عن طريق ميسين ، التي استولوا عليها سنة
١٠٦١ م ، واتخذوها قاعدة حربية لهم (٥) ، وفي تلك الأثناء لم يحرك القباطيون
ساكني لانقاز الجزيرة على حين تحرك المعز بن باريس وأرسل أسطولاً كبيراً
تألف على قول الروايات من نحو أربع مائة سفينة ، غير أن حاصفة فاجأت ذلك
الأسطول فأغرقته ، قبل أن يفعل شيئاً لإنقاذ الجزيرة ، وتصادف أنه اختلف

(1) Keen : op. cit. p. 69, Smith : op. cit. p. 13

(2) Curtis : Roger of Sicily. p. 62

(3) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 174

(4) Smith : op. cit. p. 13

(5) Keen : op. cit. p. 69

وحماة النورمان في صقلية ، ووبرت مع أخيه روبر للروف روبر الأول (١) بسبب تقسيم الفنائم ، لكنها طأدا إلى الاتفاق وشرعا في الغنى في خطتها ؛ وبعد ولاية تيم بن المعز بن باديس ، قام بإرسال أسطول آخر إلى الجزيرة على رأسه ابنه على وأيوب ، إلا أن الفتن بين المسلمين أنفسهم حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد النورمان ، وانتهت هذه الجولة بهزيمة ابن تيم عند مكان يسمى مسلر *Misilmer* بالقرب من بالرم ، على يد النورمان فأجبروا على العودة إلى إفريقية سنة ١٠٩٨م (١٠٩١هـ) ، دون أن يحققوا شيئا (٢) ، وقد ترمب على هذه الهزيمة أن اضطرر أمر المسلمين بالجزيرة ، وافقدوا القيادة الحكيمة التي يمكنها بوحيد المهرود والصدى للنورمان ، في الوقت الذي تلقى فيه هؤلاء معرفة بحرية من بزا ، ونهضوا لاحتلال بالرم لأهمية موقعها ولثرائها وعظمتها (٣) ، وكان روبرت جريكارو قد جمع نحو خمسين سفينة بعضها من بارى وأبوليا ، وألقى الحصار عليها من جهة البحر ، على حين تقدم روبر برا بجيش بالغ ثمانية عشر ألف جندي ، وقد أحاطت السفن الحربية بميناء المدينة من ناحية على حين أحاط بها الجيش البري من ناحية أخرى ، ومع هذا ظلت المدينة صامدة مدة خمسة أشهر ، وأظهر سكانها قوة مراس وروباطة جاش ، حتى أنهم أبوا أن يفلتوا أبوابهم مدينتهم ، إفراطا في الثقة بالنفس ، إلا أن قلة الأتراك وانتشار الجحاة والأوبئة فت في عند السكان في الوقت ، الذي شدد الأسطول الحصار على المدينة ، فانهارت المقاومة (٤) ، ودخل النورمان الحاضرة وأحدثوا فيها مذابح بشرية وهبية ،

(1) Hozder & Waley : op. cit. p. 38

(٢) إحسان عباس : العرب في صقلية ص ١٣٠

(3) Haskins : op. cit. p. 208

(4) Smith : op. cit. pp. 14-15

وضربوا الأطفال ليجمعهم كرقيق ، ووقع النهب والقتل وأصبحت الخالصة بأضرار فادحة ، ثم ما لبث الجزيرة القديم من المدينة أن سقط في أيدي النورمان بعد الخالصة ، وحول روجر المسجد فيه إلى كنيسة ، وسمح لفرسانه بالبيت فيه ، وإحداث كثير من الخراب والدمار والقتل والأسر السكان ، وذلك سنة ١٠٧٢ (٥٤٦٤) ، وما لبثت بالرم أن تحولت إلى قاعدة حربية نورمانية ، وأعمد وبرزت جويسكارد على أخيه روجر بلقب كونت صقلية (١) .

وتوغل النورمان في صقلية دون مقاومة تذكر ، فلبث لهم مازر بعد أن حورو بالرم حاصنة الكلبين ، وملكوا صيني وخطابية ، وظلوا بعد ذلك نحو عشرين سنة يكملون فتح الجزيرة ، فستقطعت في أيديهم طبرمين سنة ١٠٧٩ (٥٤٧٢) ، وبذلك يكونون قد أحاطوا بما تبقى للأسراء المسلمين من أملاك في سرقوسة وطرابنشي وجرجنت وقصر يافة (٢) ، أي أن الدور الأول من الفتح النورمانى كان قد انتهى باحتوائهم على بالرم لبدأ الدور الثانى ، وهو الذى امتد نحو عشرين عاما (٣) . وكان ابن عباد فى سرقوسة أشهر من تصدى للنورمان ، ونظم المقاومة لهم فى ولاية نوطس فى البر والبحر ، حتى حاز الرجل إعجاب النورمان أنفسهم ، وأثنى عليه مؤرخ هذه الحقبة النورمانى ووصفه بالشجاعة والمهارة والجرأة والدهاء فى القيادة (٤) ، الأمر الذى اضطر معه روجر إلى الانصراف عن ابن عباد وسرقوسة ووجه همه إلى احتلال مدينة طرابنشي ، فنجح فى ذلك

(1) Curtis : op. cit. p. 69

(2) Heakins : op. cit. p. 209

(٣) احسان عباس : العرب فى صقلية من ١٣٢-١٣٣ ،

Grant : op. cit. pp. 166-7

(٤) احسان عباس : نفس من ١٣٢

بمحاولة أسطول بحري كان قد شيدته وسقطت تلك المدينة بيده سنة ١٠٧٧م وجرى هدم أسوارها وتوزيع أراضيها على أتباعه النورمان^(١)، ثم استولى روجر أيضاً على طبرمين بعد ذلك بعامين، ولم يبق بيد المسلمين سوى قليل من المدن، غير أن ابن عباد نجح في حفظ ما بيده، فضلاً عن أنه استغلب بعض الأمراء المسلمين الذين تعاونوا مع النورمان، ويقال أنه نجح في استمالة خاكم قطاية الذي يظن أنه من أسرة ابن الثمنة، فلم هبوا المدينة إليه فتولى أمر ابن عباد بحيث أنه نجحاً فغن المحجوم على قلاع النورمان وأملأهم وخرج عن سياسة الدقاع إلى المحجوم^(٢)، وذلك سنة ١٠٨٤م، ويبدو أن هذه المرأة هي التي جعلت روجر يتجه من جديد إلى ابن عباد ويرسل عنده أسطولاً كبيراً سنة ١٠٨٥م (٤٧٨هـ)، وتفيد الروايات إلى أن ابن عباد أظهر صبراً عظيماً وجهداً في القتال، وأخذ يحارب النورمان في البحر حرباً ضارية، وعلى الرغم من أن سفنه أخذت تترق واحدة بعد الأخرى وكما غرقت به واحدة وعب منها إلى ثانية، فإنه سقط في النهاية في البحر بعد أن زلزل قدمه^(٣)، ومن شدة إعجاب روجر به أرسل جيشه إلى الأمير تميم بإفريقية، وما لبث أن استسلمت سرقوسة للنورمان وأواخر سنة ١٠٨٦م، ثم سقطت جرجنت ولفقت بها قسريانة، ثم لو طس وبشيرة سنة ١٠٩١م (٤٨٤هـ)، وبذلك انتهت عمليات الفتح النورمانى بحيث جاءت سنة ١٠٩١ حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ الجزيرة، العهد الإسلامى بها والعقبة النورمانية الجديدة. وفي عام ١١٠١م (٤٩٠هـ) توفي روجر الأول وهو

(١) انظر المرجع السابق ص ١٣٢،

Bernard Lewis : The Arabs in History, p. 118

(2) Curtis : op. cit. p. 100

(٣) احسان عباس : نفسه ص ١٣٢

في السنين من عمره وخلفه ابنه سيمون (١) .

كاف روبر الأول قد تزوج ثلاث مرات خلال حياته ، وكانت زوجته الثالثة هي أديليد Adelaide التي تزوجها سنة ١٠٨٩م والتي أنجب منها ولدين هما : سيمون سنة ١٠٩٣م وروجر سنة ١٠٩٥م ، ولهذا احتل عرش صقلية بمده سيمون سنة ١١٠١م ، وكان في الثامنة من عمره فتولت الرصاية عليه أمه أديليد (٢) ، وكانت هذه السيدة تتمتع بشخصية قوية ولها آمال واسعة ورغبة ملحة في الحفاظ على المملكة لولديها ، وساعدها على القيام بمهامها أن روبر الأول كان قد ترك لها حكومة قوية في الجزيرة ومملكة ثابثة للقدم ، ومكتنبا طموحا الكبير من أن تقيض على مقاليد السلطة في البلاد ، وأن تصدر دقة الحكم بنجاح في تلك الظروف الحسيرة (٣) ، فتجسدت في الحفاظ على التآلف القائم بين عناصر السلطة واليمينين على الإدارة في البلاد ، ولجأت إلى محاولة إضغاف البارونات ، وقضت على جانب كبير من معارضة وكسبت ود العاملين معها في الحكومة ، ومنحتهم تقنيا ليرثاين منهم والمصلين على حد سواء ، فسامحت في استمرار التآلف والحفاظ على التسوية الهامة في الحكومة ، ثم أنها لجأت إلى استغلال المصلين وجلب رضائهم ، فنقلت عاصمتها من ميني إلى بالرم (٤) ، حيث أقامت بلاطها وسط السكان المسلمين ، على الرغم من بقاء الإدارة الحكومية أحيانا في ميني وأحيانا أخرى في بالرم وظلت هذه السيدة تحكم من خلال وصايتها على

(1) Cartis : op. cit. p. 100

(2) Haskins : op. cit. p. 210

(3) Smith : op. cit. p. 24

(4) Haskins : op. cit. p. 210

ابننا سيمون طوال السنوات الأربع التي عاشها هذا الصبي حتى وفاته سنة ١١٠٥م حين خلفه أخوه الأصغر روجر المعروف بروجر الثاني (١).

يعتبر روجر الثاني أشهر ملوك النورمان بصقلية وجنوب إيطاليا على الإطلاق، كما كان عهده أزهى عصور المملكة النورمانية وأجسامها دون جسدال (٢)، وقد تولى روجر الثاني الحكم ولم يتعد الثانية عشرة من عمره، لهذا تولت أمه الوصاية عليه لفترة، وما لبث روجر أن أثبت أنه لا يقل كفاءة عن أسلافه مؤسس المملكة، إن لم يفهم في ذلك كثير، وكان متأثراً بشخصية والده مؤثراً اتباع سياسة لاسيا فيما يتعلق بالتصامح مع الرعية (٣)؛ خاصة وقد وجد نفسه محاطاً بمحاشية وموظفين من البيزنطيين والمسلمين في صينى وبالرم، حيث كان أغلب سكان هذه الأخيرة من المسلمين (٤)، فلما روجر الثاني وسط ألفة طيبة من الأصدقاء البيزنطيين والمسلمين، وشب كارها لروح الاستقرارية النورمانية ولتنبلاء النورمان، خاصة وأنه كان نصف إيطالي من جهة أمه، وكان قد فقد كثيراً من سمات النورمان الأولى وحصل فيه ميل إلى دمج عناصر شعبه، ونهياً لقبول التصامح المتصرى، وبرزت في صفاته وسجاياه مع ذلك كثير من سمات وميزات أسرة هوقيل النورمانية (٥).

انفرد روجر الثاني بالحكم عندما بلغ سن الرشد في عام ١١١٢م ولاسيا

(1) Smalh : op. cit. p. 24

(2) Grant : op. cit. p. 185

(3) Hearder & Waley : op. cit, p. 38

(4) Encey. Br. p. 382

(5) Camb, Méd, Hist, V, 5. p. 184

وقد تزوج أمه من بلدوين الأول ملك بيت المقدس بعد ذلك بقليل في عام ١١١٢ م ، ويبدو أن روجر رحب بذلك الزواج ليتمكن من الأفراد بالحكم من ناحية ، أملا أن يؤد إليه عرش المملكة الصليبية بعد وفاة بلدوين الأول ، من ناحية أخرى (١) ، لكن آماله سرعان ما تلاشت حين عاد بلدوين فطلق هذه الوجة سنة ١١١٧ م ، وأعاد زوجته الأولى قبل وفاته بعام واحد ، ولعل ذلك ألقى بظلال من الكآبة على العلاقات بين روجر الثاني والمملكة الصليبية في بيت المقدس . غير أن تلك السنوات التي قضتها والدته بعيدا مكنت روجر فيما يبدو من إرساء رسوم حكمه في بالزم ، التي اتخذ منها عاصمة دائمة له ، إذ كانت تتميز بأنها تضم مجتمعا برنانيا إسلاميا (٢) ، وما لبث نفوذ روجر الثاني أن اتسع وامتدت وقته أراضيه كثيرا ، حتى أصبح في سنة ١١١٣ م سيد جنوب إيطاليا دون منازع ، وقضى على ثورات النبلاء الثورمان فيها بين سنتي ١١٣٤-١١٣٩ م وصفي جميع أراضيه وطرد الكثرين منهم من إيطاليا ، فدانت له البلاد في جنوب إيطاليا ولأبنائه من بعده ، كما آلت إليه مقاطعة أبوليا بعد وفاة حاكمها حفيد روبرت جويسكود سنة ١١٢٧ م ، كما نجح روجر الثاني في إضافة أراضى شاسعة إلى ملكته امتدت إلى حدود ألكونا وروما شمالا وانتهى الأمر بتتويجه على يد البابا سنة ١١٣٠ م (٣) ، وعرفته ملكة مملكة الصقليتين ، وغدا له من الشهرة والنفوذ ما جعله من أقوى الشخصيات في غرب أوروبا في ذلك الوقت (٤) .

(1) Smith : op. cit. p. 24

(2) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 304

(3) Haskins ; op. cit. p. 210

Ostrogorsky : op. cit. pp. 336-7

(4) La Monte ; op. cit. p. 280

والواقع أن روجر الثاني كان شخصية عظيمة فعلا ، نجح في تكييف سياسته لتتنسج مع أوضاع مملكته ، وأظهر مرونة فائقة في تسخير أمور البلاد ، واستجاب للأوضاع الخاصة في بلاده ، وربما لأنه تأثر كثيرا بالثقافة الإسلامية ، وأعجب إلى حد ما بالنظم البيزنطية (١) في الوقت الذي ظل يحفظ بعض سمات النورمان ومظاهر الحياة في غرب أوروبا ، فقد أظهر ما أظهره من اهتمام بالغ بآثار أراج العناصر في دولته ، ودمج رعاياه في شعب واحد ، ولهذا حاول أن يقيم مملكته على أسس قوية في جانبها العسكري ومواردها المالية ، وأقام سلطته الملكية على أسس اتوقراطية مطلقة ، ولجأ إلى حد ما إلى استعمال القسوة لتأكيد سلطته وحماية مملكته ، وضرب بيد من حديد جميع الثوار الذين شقوا عليه عصا الطاعة ، وأخذ كل محاولات الفتنة وكل بأصحابها (٢) . ولقد دعم روجر الثاني سلطته بإعداد مجموعة لقوانين في سنة ١١٤٠م ، ارتكز فيها على قوانين جستنيان في أغلب الظن ، وشملت مجموعته معظم القوانين العامة المعروفة حينذاك ، كما ضمت بعض القوانين الإقطاعية التي عرفت في أوروبا في العصور الوسطى ، فرسمت تلك المجموعة بحق معالم سياسة روجر الملكية وجاءت تعبيراً عن مشيئته وعظيم إرادته (٣) ، كما عكست بصدق عادات رعاياه من المباردين والبيزنطيين والعرب والرومان وحاولت أن تكفل التوازن والمساواة بين عناصر الرعية (٤) . وقد اعتبر روجر الثاني جميع أراضي مملكته ملكاً له ، ومال إلى تطبيق النظم الإقطاعية (٥) ، وحرّم

(1) Smith : op. cit. p. 32

(2) Curtis ; op. cit. p. 300

(3) Haskins : op. cit. p. 230

(4) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 204

(5) Smith : op. cit. p. 27

على النبلاء ملك العملة ومنع قيام المنازعات فيما بينهم وأجرى القضاة على الالتزام بقوانين الملك ، ولكنه اضطر إلى الاعتراف إلى حد ما بحقوق بعض المدن أو ما عرف بالقومونات وهي المدن التي نالت نوعا من الاستقلال السياسي (١) ، وإن لم يؤد ذلك إلى الانتقاص من سيادة روجر الثاني أو سلطته في المملكة.

أما من سياسة روجر الثاني تجاه مسلمي مملكته، فيبدو أنه أدرك منذ البداية أن مصالحه ترتبط بالتعاون مع مسلمي بلاده واتباع سياسة التسامح مع كل فئات الشعب ، فالزم بسياسة التسامح مع المسلمين بصفة خاصة ، طالما لم يكن ذلك التعاون متناقضا مع قوانين الدولة ورسومها ، وقررت على ذلك ازدياد سلطة المملكة وقوتها وصمودها في وجه الأخطار الخارجية (٢) . ولقد خضع المسلمون في الجزيرة لما خضع له بقية العناصر من نظم اقتصادية وطبق عليهم نظام الإقطاع، الذي كان ساريا في المملكة ، ومنح روجر بعض أحواله من المسلمين أجزاء من الأراضي كإقطاع مثلا فعل مع أحواله من الفئات الأخرى، على حين تمتع سكان المدن من المسلمين بحريتهم في أملاكهم ، غير أن فلاحي القسرة من المسلمين كانوا قد فقدوا حريتهم مثل غيرهم من الفئات في ظل النظم الإقطاعية (٣) . ولقد مثل المسلمون القسرة الرئيسية في الجيش والأسطول ، وأتاحت خبرة المسلمين الحربية لآسيا في البحر لروجر الثاني فرصة الاعتماد عليهم في حروبه في جنوب إيطاليا ، كما أبى روجر الثاني على كثير من النظم الإسلامية في الجزيرة والتقسيمات الإدارية والألقاب والوظائف الإسلامية ، واصطنع بلاطه بصيغة إسلامية (٤)

(1) Camb. Med. Hist., V. 5, p. 220

(2) Keen : op. cit. p. 86

(3) Curtis : op. cit. p. 419

(4) Camb. Med. Hist., V. 5, p. 204

Smith ; op. cit. p. 32

حتى ليبدو أقرب إلى بلاط أمسود شرقى منه إلى بلاط ملك أودين ، وتأثرت صقلية كلها بالموثرات الإسلامية فى حياتها الاجتماعية ونظمها وحتى فى عمارتها ومبانيها ، وأقامت جامعة سالزبور الناشئة من التقدم العلمى العربى ، لتصبح إحدى الجامعات الهامة فى أوروبا فى العصور الوسطى ، متخذة من المكتب المترجمة من العربية ، لاسيما فى مجال الطب والعلوم والى انتقلت إليها عن طريق العرب ، أساسا لنهضة علمية كبرى (١) .

أما بالنسبة للعلاقات ووجر الثانى بالقوى الأوربية المسيحية ، فقد تعرض لعداء كل من الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الألمانية ، بسبب تنويجه ملكا واعتبرته كل منها خطرا على نفوذها وأملاكها (٢) ، بل حاولتا عقد محالفة فيما بينهما ضده ، غشده أن البابوية تأرجحته فى حلاتها مع ووجر الثانى بين العداء والصفاء ، طبقا للعلاقات بالإمبراطورية الألمانية ، فإذا تحسنت علاقاتها بالإمبراطور الألماني ، مالت إلى تحلیم مملكة صقلية وتدميرها ، وإذا سادت تلك العلاقات ، سعت إلى كسب وذر ووجر الثانى والنفوذ بمرضاته ، غير أن العداء بين البابوية وبين ووجر كان هو القاعدة فى ذلك الوقت (٣) ، وحينما قام ووجر الثانى بتزويج ابنه وليم سنة ١١٥١م ، احتجته البابوية على هذه الخطوة واعتبرت ذلك استفزازا جديدا من قبل ملك صقلية (٤) . أما عن موقف ووجر الثانى من الحروب الصليبية ، فيبدو أنه كان يهتم بمصالح بلاده الاقتصادية أكثر من

(1) Hoskins : Med. Science. p. 166, p. 171.

(2) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 186

(3) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 187

(4) Idid : p. 188

اهتمامه بالنواحي الدينية المزعومة ، ولكنه مع ذلك مرض على الإمبراطور
كوثراد الثالث والملك لويس السابع ملك فرنسا الاشتراك في الحملة الصليبية
الثانية وتقديم معونة بحرية ونقل القوات الصليبية إلى الشرق بحرا ، إلا أن الاثنين
رفضنا بسبب تخوفهما من أطماع النورمان واشتراكهما في كراهية روجر الثاني (١) .
وبعد فعل هذه الحلة برزت فكرة الدعوة إلى حملة صليبية ثالثة يقودها روجر الثاني ،
ولكن لم يقدم الفكرة النجاح .

أما عن هلاكة روجر الثاني بالدول الإسلامية القريبة ، فتشير الدلائل إلى
أن ثمة علاقة طيبة وبطلة بينه وبين الخلافة الفاطمية في مصر ، لكن طموح
روجر الثاني وسياسة التوسعية أدخلته في صراع مع الدول الأخرى في شمال
إفريقية ، مثل دولة بنى زيري وبنى حماد ، فقد أدى طموحه إلى الاستيلاء على
جزيرة جربة سنة ١١٢٥ م (٢) وعلى طرابلس الفسرب سنة ١١٤٦ حيث بقي
النورمان بها نحو ستة أشهر ، ثم فتح مدينة المهديّة سنة ١١٤٨ م واستباحها ، ولم
يصرّجها منه المسلمون سوى سنة ١١٦٠ م وعانت جيوشه في كثير من مدن
شمال إفريقية مثل سفاقس ، أنه أن علاقات روجر بالدول الإسلامية في حوض
البحر المتوسط لونها النداء وميزتها الحسروب ، وساعده على ذلك ما حدث
من التحلل القسوى الإسلامية وضعفها والغطالها بالتنافس والحروب الداخلية
فما بينها (٣) .

(1) Runciman ; Hist. of the Crusades. II. p. 285

Grousset : Histoire des Croisades. II, p. 269

(2) Encyc. of Islam. Art. "Gerbah"

(3) Smith : op. cit. p. 29

وقد شهدت الفترة الأخيرة من عصر ملكة السقليتين أحداثاً ملاحظة ، إذ كان روجر الثانى قد تزوج خلال حياته ثلاث مرات ، وأوجب خمسة أولادات منهم أربعة ولم يبق سوى واحد فقط هو دويليم ، الذى خلف والده على العرش ، واحتفل والده بتتويجه ملكاً سنة ١١٥١ م ، وأشركه معه فى الحكم ، ثم توفى روجر الثانى سنة ١١٥٤ فى بالرم وهو فى التاسعة والخمسة من عمره . ولقد شابه وليم والده روجر الثانى فى كثير من الأوجه (١) ونجح فى سياسته وفى تسير دفة الحكم بنجاح فى الفترة بين (١١٥٤-١١٨٩) وأظهر وليم مقدرة وكفاية فى سياسته الخارجية بالذات ومشروعاته الحربية فأقول هزيمة ساحقة بالجيسوش البيزنطية فى برنديزي سنة ١١٥٦ م ، وأجبر الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين على عقد صلح معه سنة ١١٥٨ م وتوسط البابا لعقد ذلك الصلح ، ولكن علاقة وليم بالإمبراطورية الفرنجية صادما المدا على عهد فردريك الأول (٢) ، ولهذا اشترط البابا فى توقيع صلحه مع الإمبراطور سنة ١١٧٧ أن يتعهد الإمبراطور بتوقيع هدنة مع ملك النورمان فى صقلية لمدة خمسة عشر عاماً . غير أن ملكة صقلية أخذت تقترب من نهاية عهدها الزاهر فى ظل النورمان ، حين أحرز الإمبراطور فردريك الأول نصره السياسى الكبير سنة ١١٨٤ بعقد مصاهرة سياسية بين ألمانيا وصقلية وزواج ابنه وخليفته هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة ملكة صقلية (٣) ، برغم معارضة البابوية التى خشيته أن يؤدى ذلك إلى حصر أملاكها فى إيطاليا بين شقى الرسمى عندما يتولى صقلية

(1) Bernard Lewis : The Arabs in Hist. p. 119

(2) Smith : op. cit. pp. 36-38

(3) Hearder & Waley : op. cit. pp. 45-6

إلى الإمبراطورية (١) ، وكان متوقفا أن تزول صقلية فعلا إلى الامبراطورية الألمانية عقب وفاة وليم سنة ١١٨٩ م ، إلا أن حزبا وطنيا في صقلية رفع إلى العرش د تكرد ، بدلا من كوستانس الوريثة الحقيقية وزوجة هنري السادس ، وترتب على ذلك قيام هنري السادس بالزحف إلى جنوب إيطاليا للاستيلاء على ملكة زوجته ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب أمام هف مقاومة نابلي من ناحية وانتشار الأوبئة في جميعه من ناحية أخرى (٢) ، ولم يأس هنري السادس وعاود الكرة بعد ذلك سنة ١١٩٤ ، بعد أن جهز معونة بحرية من جنوا وبيزا وزحف إلى إيطاليا ، وكان تكرد قد توفي في نفس العام ، وخلفه ابنه وليم الثالث ، الذي لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنري السادس من الاستيلاء على ملكة الصقليين (٣) ، وأذن لزوجته بالبقاء فيها تنوب عنه في حكمها ، وعاد هو إلى ألمانيا سنة ١١٩٥ ، كإمبراطور عظيم فازداد نفوذه كثيرا في أوروبا (٤) .

وبعد وفاة هنري السادس سنة ١١٩٧ عاد تاج صقلية فافعل من الإمبراطورية ، إذ آمنت كوستانس أن تحتفظ لابنها فردريك الصغير (الثاني) بعرش صقلية ممتدة عن ألمانيا (٥) ، وحينذاك أعلنت تبنيها البابوية في الوقت الذي لم تبذل الامبراطورية الألمانية أي جهد لاستعادة عرش صقلية (٦) ، فحكمت

(1) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 453

(2) Heyck : " The triumphs of Barbarossa ". B. H. VII : p. 3610

(3) Cantor : Med. Hist. p. 473

(4) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 409

(5) Keen : op. cit. p. 95

(6) Camb. Med. Hist. V. 6. pp. 44-5

كوستانس قايلى وصقلية باسم ابنها الطفل فردريك ثم عاد الاتحاد من جديد بين ألمانيا وصقلية بعد وفاتها ، حين تزوج فردريك امبراطورا على ألمانيا ، باسم فردريك الثانى ، ليجمع بين العرشين (١). وهكذا دخلت صقلية فى فترة جديدة وهدد جديد بعد أن ازدهرت كثيرا فى ظل أسرة هوتفيل لاسيا على عهد روجر الثانى .

(1) Koehn : op. cit. p. 95

قائمة المراجع

أولاً : المراجع العربية والعربية

إبراهيم أحمد العدوي (دكتور) :

(القاهرة ١٩٦٥)

- المسلون والجرمان

(القاهرة ١٩٦١)

- المجتمع الأدبي في العصور الوسطى

إبراهيم علي طرخان (دكتور) :

(القاهرة ١٩٥٨)

- دولة القوط الغربيين

(القاهرة ١٩٦٦)

- المسلون في أوروبا

إحسان عباس :

(القاهرة ١٩٥٩)

- العرب في صقلية

أرشياد لويس :

- القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط

(ترجمة أحمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال - القاهرة ١٩٦٥)

باركر (أرنست) :

- الحروب الصليبية (ترجمة الدكتور السيد إلياز العري - القاهرة ١٩٦٥)

نشارلو وورث :

- الامبراطورية الرومانية (ترجمة ومزي عبده جرجس - مراجعة محمد

صقر خفاجه ١٩٦١)

جوزيف لعيم يوسف (دكتور) :

- لغاة الجامعات في العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧٣)

- الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧٠)

جيون :

- اختلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها :

ج. ترجمة محمد علي أبو درة مراجعة نجيب هاشم

ج. ترجمة لويس اسكندر مراجعة نجيب هاشم

ج. ترجمة محمد سليم سالم مراجعة محمد علي أبو درة

حسن حبشي (دكتور) :

- الحرب الصليبية الاولى (القاهرة ١٩٥٨)

ديسر :

- أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة د. عبد الحميد حمدى الاسكندرية ١٩٥٨)

ذيرلوت (ول) :

- قصة الحضارة ج ٢ مجلد ٢ (ترجمة محمد بدوان ط. جامعة الدول العربية)

راوس :

- التاريخ الإنجليزي (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٤٦)

رستوتوف :

(ترجمة د. زكي علي)

تاريخ الإمبراطورية الرومانية

سميد عبد الفتاح هاشور (دكتور) :

(القاهرة ١٩٦٦)

- أوروبا العصور الوسطى ج. ١

- قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧)
الحركة الصليبية - جزءان (القاهرة ١٩٦٣)
- التمددات الأوروبية في المصور الوسطى وبداية الحديثة (بالاشتراك -
(القاهرة ١٩٥٦)
السيد الباز العريفي (دكتور):
- الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٥)
- تاريخ أوروبا في المصور الوسطى (بيروت ١٩٦٨)
عبد النعم ماجد (دكتور):
- العلاقات بين الشرق والغرب في المصور الوسطى (بيروت ١٩٦٦)
عمر كمال توفيق (دكتور):
- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٥٩)
فشر:
- تاريخ أوروبا في المصور القديمة (ترجمة ابراهيم نصحي و د. محمد هادي
حسين - القاهرة ١٩٥٠)
- تاريخ أوروبا في المصور الوسطى (ترجمة د. زيادة ود. العريفي و د.
العدوي ١٩٥٠)
كرومبيز ميجاكوب:
- تراث المصور الوسطى (مراجعة محمد بدران و د. محمد مصطفى زيادة
(القاهرة ١٩٦٥)

كوبلاند وفينوجرادوف:

- الإنطاق والمصور الوسطى (ترجمة د. زيادة مط ٢ القاهرة ١٩٥٨)

مكولتون:

- عالم المصور الوسطى في النظم والحضارة (ترجمة د. جوزيف نسيم -

اسكندرية ١٩٦٧)

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):

- الجهاد القدس عند السليبيين حتى سقوط الرما (الاسكندرية ١٩٧٠)

- دقلديانوس المهد الحقيقي لظهور العصر البيزنطى (مقالة -

الاسكندرية ١٩٧٥)

- نظرة جديدة إلى إنجازات الإمبراطور قسطنطين الأكبر ٣٠٥-٣٣٧م

(مقالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

- شارلمان باعق النهضة الأوربية ومجدد عهد الامبراطورية في الغرب

(مقالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

- الإسلام وتاريخ الأورب الوسطى (مقالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

نظير حسام سعادى (دكتور):

- تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى (القاهرة ١٩٦٨)

تأليف : المراجع الأوروبية :

Aimond, Ch. :

— Le Moyen Ages (Paris 1947)

Altamira, R. :

— A History of Spain from the beginning to the present Date. (trans: by Muna lee). London 1952

The Book of History : A History of all nations from the Earliest times to the Present. Volume V, VII; VIII; Many specialists:

— Davis, H. W. C. :

"The British Isles from the earliest times to the middle ages "

— Davis & Arthur :

"The British Isles throughout the middle ages"

"England before the Norman Conquest"

"The Norman period in England"

— Helmolt, Hans, F. :

"Italy and the Lombards "

"Mediterranean in the middle ages "

— Heyck, Eduard :

"The rise of the Germanic races and the coming of the Barbarians "

"The rising of the teuton power"

"The great teutonic deluge"

"Rise of the frankish dominion"

"The triumphs of Barbarossa"

— Hedgkin, Thomas :

"The moulding of the nations"

— Jung, Julius :

"The coming of the goths"

— Marhreholtz, R :

"The Empire of Charlemagne"

"France throughout the middle ages"

— Schjoth, Hans :

"The Lands of the Northmen"

"Denmark and its sister states"

"Great days of the Northmen"

— Seburtz, Heinrich :

"Spain and its Conquerors"

Bryce :

— Primitive Iceland (Oxford 1901)

Bury, J. B :

— History of the Later Roman Empire 2. Volume (London 1923)

Cambridge Medieval History 8 Vols: (Cambridge 1924)

Canter, N. F. :

— Medieval History (New York 1964 Sec. Printing)

— The Medieval World 300 - 1300 (Edited by Canter New York 1968)

Chadwick, H. :

- The Early Church (London 1967)

Courtois, C. :

- Les Vandales et L'Afrique (Paris 1955)

Curtis :

- Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy. (New York 1912)

Denis Mack Smith :

- A History of Sicily. Med. Sicily 800-1713 (London 1968)

Diehl :

- L'Afrique byzantine (Paris 1896)

Ellis and Fisher :

- A History of English life sec. Ed.

Encyc. Britannica

Encyc. of Islam (English Vols)

Freeman E. A. :

- History of Norman Conquest (London 1847)

Gasquet :

- L'Empire byzantin et la monarchie franque

Grant, A. J. :

- Outlines of European History (New impression London 1951)

Grousset, R. :

- Histoire des Croisades (Paris 1936).

Hallam :

- View of the state of Europe during the middle ages.

Haskins Ch. H. :

- The Normans in European History. (New York 1959)

Hearder and Waley :

- A Short History of Italy. (Cambridge 1963)

Hodgkin, T. :

- Theodoric the Goth. (London 1891)

Huizinga, J. :

- Le Declin du Moyen Age (Paris 1961)

Hussey, J. M. :

- The Byzantine World. (London 1967)

Katz, S. :

- The Decline of Rome and the rise of Medieval Europe.
(New York 1955)

Keen, S. :

- A Hist. of Medieval Europe (London 1967)

La Monte :

- The world of the middle ages (1949)

Lewis, B. :

- The Arabs in History (London 1966)

Livermore, Harold :

- A History of Spain (London 1966)

Lodge, Sir R. :

- The close of the middle ages 1273-1494 (London 1963)

Lot, F. :

- The End of the Ancient world and the Beginning of the middle ages (London 1966).

Luchaire :

- Les quatre premiers Capetiens in Lavoisier : Hist. de France: (Paris 1901).

Marcus :

- La Berberie Musulmane L'orient du moyen ages (Paris 1946),

Oman, Sir Charles :

- The Dark ages 476-918 (London 1962)

Orton, J. B. :

- The shorter Camb; Med. Hist, Vol. I.

Ostrogorsky, G. :

- History of the Byzantine State: (Oxford 1956).

Painter :

- A History of the middle ages from 284 to 1500 (1952).

Pirenne, H. :

- Mohammed and Charlemagne: (London 1968)

Pollock and Maitland :

- History of English law.

Prou, M. :

- La Gaule merovingienne. (Paris 1964)

Gautier, E. :

— Genesie

Rayner, R. M. :

— A Concise History of Britain (London 1939)

Renouf, V. A. :

— Outlines of General History. (London 1910)

Rice :

— Byzantium (1960)

Ripley, W. :

— The races of Europe (1899)

Rond :

— Feudal England.

Runciman, S. :

— A History of the Crusades. (London 1971)

Seidlmayer, M. :

— Currents of Medieval thought. (trans. by D. Barker
Oxford 1968)

Southern, R. W. :

— The Making of the middle ages (London 1967)

Stevenson, W. B. :

— The Crusaders in the East. (Cambridge 1968)

Tessier, G. :

— Le Baptême de Clovis (Paris 1964).

Trevelyan, I. M. :

— History of England, Part I. (London 1926)

Vasiliev, A. :

— The Byzantine Empire (Madison 1952)

Warner, M. A. :

— The ground Work of British History (London 1942)

Ziegler :

— Church and State in Visigothic Spain (1930)

گشاف

(i)

ابراہیم بن الاظہ: ۳۱۵	ایلولف: ۲۲۸
ابروس: ۱۸۳	اجبرت: ۲۶۴، ۲۲۸، ۲۲۷
ابروین: ۱۹۸، ۱۹۷	اجرفہذا: ۱۷۰
ابن الشنہ: ۳۲۰، ۳۱۶	اجیلا: ۳۲۰، ۷۲
ابن حبادہ: ۳۲۰، ۳۱۹	اجلیولف: ۲۴۹، ۲۴۷
الابنہن (جبال): ۲۴۳، ۱۸۵	أخیلا: ۱۱۰، ۱۰۹
أبولیا: ۳۱۲، ۳۱۰، ۲۸۱، ۱۶۹	آخن: ۲۷۴، ۱۹۹
۳۷۳، ۳۱۸، ۳۱۷	ادالوالد: ۲۴۹
أقولف: ۶۱، ۵۶، ۳۶	ادجار: ۲۶۷، ۲۳۱
أمون: ۱۴۶	أدرہ: ۲۱
أتیلا: ۳۰-۳۳، ۳۷، ۱۱۷، ۲۳۸	ادمتوفہ: ۲۶۶، ۲۲۹
أفالریک: ۱۷۹، ۱۷۵	ادوارد (الاکبر): ۲۳۱
أفالوک: ۸۶	ادوارد (المعترف): ۳۰۲، ۳۰۰، ۲۶۸
ألمبرٹ: ۲۳۴، ۲۳۰، ۲۲۶	أدوین: ۲۴۰، ۱۸۵
ألمرد (الأول): ۳۰۰، ۲۶۸، ۲۳۱	أدیلیک: ۳۲۱
ألمرد (الثانی): ۲۳۲	آرثر: ۲۳۲
ألمستان: ۲۳۱	الأردن: ۲۰۴
ألمناجیلک: ۷۹، ۷۵، ۷۲	أول: ۲۰۳، ۱۷۲، ۱۴۲، ۶۲، ۵۹

أكرتشن: ٩١٠٦٢٠٦٥٠٧٥٠٢٦	ألمانيا: ٢٠٤٠٢٠٠٠١٠٥٠١٢٠٤
٢٠٧	٢٢٩٠٢٢٨٠٢٦٩٠٢٦٣
أكريليا: ٢٤١	البريا: ١٥٥٠١٥١
الارليك الاول (المسور): ٢٤٠٢٣	إما: ٣٠٠
١٧٠٠١٣٨٠١١٧٠٦١٠٥٦	أماقن: ١٣٥٠١٣١
الارليك الثاني: ١٤٥٠٦٤٠٦٣٠٥٩	أما لا فريد: ١٧٣٠١٢٩٠١٢٧٠١٢٦
١٤٧	١٧٤
الالابيين: ٥٦٠٢٥	أما لا سوتشا: ١٧٩٠١٧٥٠١٧١٠١٢٩
الالاب (جبال): ٤١٠٣٦٠٣٣٠٢٩	أما لقي: ٢١٣٠٢٤٣
١٤٢٠١٤٠٠١٣٨٠٦٢٠٥٩	الإمبراطورية الرومانية: ١٢٠٩٠٠٦٠٣
١٥٩٠١٥٧٠١٥٥٠١٥٢٠١٤٦	٢٣٥٠٥٢٠٤٩٠٤٢٠٤٠٠٣٠
٢٤٦٠٢٤١٠١٩٨٠١٧١٠١٦٩	الإمبراطورية الرومانية المقدسة: ٣٠٨٠
الالاب (نهر): ٣٧٤٠٤	٢٢٩٠٢٢٨٠٢٢٦
أليرين: ٢٤٣٠٢٤١	الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية): ٣١٠
ألفريد العظيم: ٢٦٥٠٢٣١٠٢٢٨	٩١٠٨٧٠٨١٠٧١٠٦٦٠٣٩٠٣٨٠٣٥
٢٦٨٠٢٦٦	١١١٣٠١١٢٠١٠٨٠١٠٢٠٩٤٠٩٢
ألكسندر الثاني (بابا): ٣٠١	٩٤٣٠١٣٨٠١٣٤٠١٣٠٠١٢٩
الالمان: ١٦٩٠١٤٠٠١٣٠١٢	١٥٦٠١٥٥٠١٥٣٠١٤٧٠١٤٤
١٩٠٠١٨٩٠١٨٥٠١٧٠	١٨٢٠١٧٦٠١٦٩٠١٦٨٠١٦١
٢٠٤٠٢٠١٠٢٠٠	٢٥٣٠٢٤١٠٢٣٩٠١٩٤٠١٨٥
	٣٣٤٠٣٣٢٠٣١٤٠٣٠٨٠٢٨٠

ايسيدور: ٩٣	اوسيت: ٨١
ايطاليا: ٢٩-٣٢٠٧٨٠٢٦-٢٤٠٤	اوسططين: ٢٣٠٠٢٢٣٠٢٢٠
٠٨٨٠٧١ ٠٦١ ٠٥٦٠ ٥١	اوسططين الصغير: ٢٣٦-٢٢٣٠٢٢٦
٠١٢٧-١٢٤١٢١٠ ١١٨٠١١٧	اوقا: ٢٣٠٠٢٢٨٠٢٢٧
٠١٥٩-١٤٩ ١٤٦٠١٤٠٠١٣٨	اولاف: ٢٧٠٠٢٦٩
٠٢١٤٠٢٠٦٠١٩١٠١٨٥-١٦٣	اوليريوس: ١٣٩
-٢٤٨٠٢٤٥-٢٣٨٠٢٢٣٠٢١٩	اولنلاس: ٢٠
٠٢١٧-٣٠٨ ٢٨٠٠٢٥٣٠٢٥١	اوليف: ٩٤
٢٢٩-٢٢٢	ايتيوس: ١٣٧٠٤٠٠٢٤-٢١٠٢٧
ايفورا: ٨٠	١٨٨٠١٣٨
ايلاندون: ٢٢٨	ايميك: ١١٠-١٠٦
ايوب بن المزين باديس: ٣١٨	اينوكيا: ١٧٤٠١٣٥٠١٢٧٠١٢٢
ايرنارك: ١٧٥	ايرلندا: ٢٦٣٠٢٦٢٠٢١٩٠٢١٨٠٤
ايروك: ١٥١٠١٢٤٠٥٩٠٥٨	٢٧٠-٢٦٨
	الايزو (نهر): ١٥٨٠١٥٧
	ايسلندا: ٢٨٣٠٢٨٢

برطانيا (المجوز البريطانية): ٣٦،٤	١٥٩،١٤٧،١٤٦،١٤٥،١٤١
٢٢٤،٣١٩،٢١٨،٢١٧،٤٥،٤٤	١٩٤،١٩٣،١٩٠،١٧٣،١٧١
٣٦٩،٢٢٤،٢٢٣،٢٢٠	٢٤٦،٢٠٣،١٩٩،١٩٨،١٩٥
البسفور: ٢٧١	٣١٣،٢٧٧
بسنكا: ١١٢،٩٤،٧٧،٦٧	البرجنديون: ٤١،٣٦،٣٠،٢٩،١٢
البسقوية: ٩٤،٩٣،٨٧،٨١،٨٠،٦٧	١،٤٨-١٢٧،٨٢،٦٤-٦١،٥٢
١١٢،١٠٣،١٠٢	٩١-١٨٩،١٧٦،١٧١،١٧٠،١٥٤
بطرس القديس: ١٠٤	٢١٤،١٩٤
البكتين: ٢٧٠،٢١٩	برسكيا: ١٨٥
بنفسى: ٣٠٢	برندري: ٢٢٨،٢٤٣
بلاد اليونان: ٣٨،٤	البرسيون: ١٢٦
بلاسيديا: ٥٦	برشلونه: ٧٢،٦٥،٦٢
بلجيكا: ٢٩	برتهديس: ٧٤
بلدوين: ٣٢٣	بروفانس: ١٢٨،٦٢،٦١،٥٨،٣٠
بلواريرس: ١٨٠،١٣٤-١٣٠،٢٩	١٧١،١٧٠،١٦٧،١٥١،١٤٢
١٨٣	٢٤٥،٢٤٤،٢٠٣،١٩٤،١٩١
البلفار: ٢٥١،٢٥٠	برونابري: ٢٣١
البلفان: ٣٨،٣٠،٢٠،١٦	بري: ٥٨
٢٤٨،١٥٦،١٥٥	بريتاني: ٣٠٧،٣٠٢،٢٩٩،٢٩١،٢٧٩
البيار (جزر): ٢٧٥،١١٨،٢٨	بريتوم: ٢٣٥،٢٤٣
بلنسية: ٨١	البريتون: ٣٩٩،٢٩٢،٢٩١،٢٩٤

بوليكاسترو: ۲۴۲	البندقية: ۲۴۸، ۲۴۷، ۲۴۲
بوليفاس: ۲۰۴-۲۱۲، ۲۰۶	بنفتو: ۲۴۴، ۲۵۰، ۳۰۸
بيت القدس: ۱۳۴، ۱۳۳، ۲۲۳، ۲۹۸	۳۱۳
بيلى: ۲۳۰، ۹۰	بواتية: ۳۹، ۲۰۲
بزا: ۳۱۸، ۲۲۹	بوتو: ۲۰۲
بيسانسولا: ۱۳۹، ۱۴۰، ۱۷۰	بورديو: ۲۶، ۶۱، ۲۰۲، ۲۷۳
بوروجيا: ۲۴۷	بوريل دى لاروسيج: ۲۹۰
بيوتيسوس: ۱۷۷، ۱۷۹، ۲۳۰	بولس: ۱۰۲، ۱۰۳، ۱۰۴
	پولونيا: ۲۵۰

(۵)

تستري: ۱۹۸	تاجيى: ۲۴۰
تسكاليا: ۱۶۴، ۱۸۳، ۲۰۲، ۲۴۵	تادينو: ۱۸۴
۲۴۷	تاغوس (نهر): ۶۸
ترازو (رازو): ۱۳۳، ۱۳۵	تاكيتوس: ۷، ۲۴۰، ۷، ۲۴۰
تسيم بن المزم بن باديس: ۳۱۸، ۳۲۰	تالكرد هوتقيل: ۳۰۹
تكرد (ملك صقلية): ۳۲۹	تراقيا: ۲۲، ۲۱
توقلا: ۱۸۲-۱۸۴	ترمت: ۲۴۶
تودو: ۲۴۷	تساليا: ۲۴

٢٧٤٠٢٠٨٠٢٠٢٠٦٩	تور: ٢٧٤٠٢٠٨٠٢٠٢٠٦٩
٢٤٨٠٢٤٧	تورين: ٢٤٨٠٢٤٧
١٥٩٠١٥٨	توفا: ١٥٩٠١٥٨
٩٧٠٩٦	تولجا: ٩٧٠٩٦
٦٨	تورمز: ٦٨
	التييمز (نهر): ٢٦٦٠٢٦٥٠٢٦٢٠٢٢٧

(ث)

١٥٧	تراستيل (ملك الجيداه): ١٥٧
٦٣	تراساموند (ملك الوئال): ٦٣
١٧٤٠١٧٣٠١٢٥٠١٢٩٠١٢٥	١٤٩
٢٨٨	تور (الإله): ٢٨٨
٥٨	تور سمند (ملك القوط الغربيين): ٥٨
٢١٤٠١٩٤	التور نجين: ٢١٤٠١٩٤
١٨١-١٧٩٠١٧٥	تور داهات: ١٨١-١٧٩٠١٧٥
٥٧	تور دريك الأول (ملك القوط الغربيين): ٥٧
٩١٠٧١	تور دريك العظيم (ملك القوط الشرقيين): ٩١٠٧١
٨٨٠٧٠٠٦٤-٦٥٠٥٩٠٣٩٠٢٨	تور ديلندا: ٢٤٦
١٧٩-١٥٣٠١٤٤-١٤٥٠١٢٧-١٢٥	تور ديس: ٧١٠٦٥٠٦٤٠٦٣
٢٣٩٠١٩١٠١٨٣	١٧٢
٥٨	تور دريك الثاني (ملك القوط الغربيين): ٥٨

(ج)

جبال أطلس (جبل أطلس): ١١٦	جبال الأطلس: ٧٥، ٧٤
جبل طارق: ٢٧٥، ١١١، ٧٣، ٥٩	جبل طارق: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٣
الجبلية: ٢٣٨، ١٨١، ١٥٧، ١٤	الجبلية: ٧٨
جستيان: ١٣٠-١٢٨، ٧٤-٧١، ٢٩، ٢٩	جستن الأول: ١٧٨، ١٧٧
جستيان: ٢٤١	جستن الثاني: ٧٨
جتلاند: ٢٢١، ٤٥	جستيان: ١٣٠-١٢٨، ٧٤-٧١، ٢٩، ٢٩
حربة: ٢٢٧	١٢٤، ١٨٠، ١٨٥، ١٩٤، ١٣٧، ٢٣٨
حرجنة: ٢٢٠، ٢١٩	٢٢٤، ٢٤١
الجرمان: ٢٣٣، ٢١٠، ١٩٠، ٢٦٠، ١٩٠، ٢-٣	جعفر بن محمد (والى بصقلية): ٣١٤
١١٨، ١١٦، ١٠٠، ٦٨، ٥٢	جليكروس: ١٣٩
٢١٠٠، ٢٠٨، ١٩٥، ١٩٢، ١٦٥	جليار (ملك ولدال): ١٣٥-١٢٨
٢٥٩، ٢٥٨، ٢٣٣، ٢٢٥، ٢٢٠	جترام: ١٩٣، ٨٦، ٨٣
جرمايا: ١٠٧	جندمار (ملك قوطى غربى): ٩٢، ٩١
جريجورى التوروى: ١٩٥، ١٩٣	جندوباد (ملك برجنديا): ٦٣، ٦١
٢١٠٠، ٢٠٨	١٣٨-١٤٤، ١٥١، ١٥٩، ١٧٠، ١٧٣
جريجورى الثالث (البابا): ٢٠٤	١٩١، ١٩٠
جريجورى العظيم (بابا): ٢٣٠	جندودار (ملك برجندى): ١٤٦، ١٤٥
٢١٢، ٢٠١، ٢٤٧، ٢٢٥، ٢٢٣	جنزو: ١٣٥، ١٣٣
٣١٣	جنوا: ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٤٣
جريموالد: ٢٠٥، ١٩٧	جنيفا: ١٤٠
	الجوت: ٢٣٣، ٢٢٥-٢٢١، ٤٦-٤٤، ٣٦

جود جزل: ١٤١٠١٣٩٠١٣٨	جورجوك (ملك برجندی): ١٣٨٠١٣٧٠
جوديسوئتا: ٨٦٠٧٩	جوروم (القدیس): ٢٥٠
جوردان: ١٤٤	جوزالك: ٦٢
جوليان (الاسقف): ١٠٧٠١٠٢	جيزريك: ١١٥٠٢٨٠٢٧-١١٤٠١٣٢
جوليان (حاكم سبتة): ١١٠	١٥٢٠١٢٥
جوليس نبوس: ١٥٢٠١٣٩	جیلارین (أمه ولد ال): ١٢٥
جوتاموند: ١٣٥٠١٢٥٠١٢٤	جيوفري الطرقة: ٢٩٢

(ج)

الحسن بن علي الكلي: ٣١٥	حاد (نو): ٣٢٧
-------------------------	---------------

(خ)

الحالصة: ٣١٩	ختلا (ختلا): ٩٦
--------------	-----------------

(هـ)

داجورجوت: ١٩٩٠١٩٦-١٩٤٠٩٥	الدانوب: ١٤٠١٣٠٥٠٤-٣١٠٢١٠١٦
٢٤٥٠٢١٠	١٥٧-١٥٥٠١٥٢٠٦٦٠٢٧٠٣٣
داتيا: ٢١٠٢٠٠١٦	٢٤٠-٢٣٨٠١٧٢٠١٦٩
دالاشيا: ١٨٤٠١٨٣٠١٥٤٠١٥٢	الدانين (الدانركين): ٢٢٢-٢٢٧٠١٢
الديانرك: ٢٦٨٠٢٦٠٠٢٥٧٠٢٢١٠٤٥	٢٨٦٠٢٧٤-٢٦٦٠٢٦٣-٢٦١٠٢٥٧

ريشارد العلي: ٢٩٨٠٢٩٠	١٨٠٠١٦٨-١٨٥٠٢٠٤٠٢٠٥٠
ريشمير: ١٥١٠١٤٩٠١٣٨	٢١٨-٢٢٣٠٢٢٨٠٢٣٠٠٢٣٥٠
ريكارڊ الاول: ٩٨٠٩٢-٨٢٠٧٩٠٧٠	٢٢٣٠٢٧٥٠٢٥٣٠٢٤٨٠٢٤٣
ريكارڊ الثاني: ٩٣	٨٠٧٠٥٠٤٠٢٤٨٠
ريكونو: ١٠٧٠١٠٢-٩٨٠٧٠	٤٩٠٣٤-رومولس ارغسلوس:
ريلاند: ٢٠٠	١٥٠٠١٢٩
ريميني: ٢٥٠٠٢٤٣	١٠٣٠٨٦٠٥٩٠٤١٠٣٦٠(نهر):
ريوس: ١٤٠	٢٧٥٠١٩١٠١٧٠٠١٣٩٠١٣٨

(ر)

زينون: ١٥٥٠١٢١٠٥٩٠٣٨٠٣٥٠	٢٤٤: زوتو:
١٦٨٠١٥٦	٣٢٧٠٢١٦٠٣٠٩٠(بن زيري):

(س)

سبانيا: ٩٤٠٩١٠٨٧٠٨٦٠٨٣٠٧٥٠٦٤٠	١٤١٠١٣٩٠٢٩٠(س):
٢٠٧٠٢٠٢٠١٩٩٠١٠٣٠١٠٢	١٣٧: سابديا:
٢٤٥٠٢٤٤: سبوليتو:	١٦٩٠١٥٧٠(س):
٣٠٧: سامفورد (قطرة):	٢٩: سافو:
٢٤٧٢: ستريرم:	٣٧٦٠٣١٣٠٢٠٨: ساليرمو:
٢٠٦: ستيفن الثاني (بابا):	٢٤٤: السامنايت:
٢٥٠٢٤٠٢٣٠(ستيلكو):	١١٠٠١٩٣٠٧٩٠: سب:

الوکر (نهر): ۹۲	سجریک: ۱۷۳، ۱۴۴
السلاف: ۲۷۰، ۲۴۸، ۲۳۸، ۱۴	سیجدموند (ملک برجندی): ۱۴۲، ۱۴۰
سنابریا: ۷۶	۱۷۳، ۱۷۱، ۱۴۵، ۱۴۴
سناتو: ۱۶۵، ۱۵۰، ۱۳۴، ۳۹، ۳۵، ۲۶	سجیرت: ۷۹، ۷۴، ۶۱
۱۷۹، ۱۷۷، ۱۶۸	سجیرت الثالث: ۱۹۷، ۱۹۶
سواسوف: ۱۹۲، ۱۸۸، ۱۴۶، ۷۴، ۵۹	سر جیوس: ۳۰۹
۲۰۶، ۱۹۹	سردینیا: ۱۳۳، ۱۳۰ - ۱۲۶، ۱۱۸، ۲۸
سوس: ۱۳۰	۱۸۳
سوکات: ۲۱۹	سرفک: ۱۱۲، ۹۵، ۷۱، ۶۵
السوم (نهر): ۲۷۴	سرفوسه: ۲۲۰، ۳۱۹، ۳۱۶، ۳۱۴، ۳۰۸
سوتیلا: ۹۷-۹۴	سیبوت: ۹۶، ۹۴، ۹۲، ۹۲
السویفین: ۵۹-۵۶، ۲۶، ۲۵، ۱۳، ۱۲	سینکس: ۲۲۵
۱۲۸، ۸۳، ۸۱، ۸۰، ۷۶، ۶۸	سیناد: ۱۰۷، ۹۶، ۹۵، ۹۴
السویڈیون (السویڈ): ۱۲	سفانس: ۳۲۷، ۱۳۰
۲۷۰، ۲۶۲، ۲۶۰، ۲۵۷	سفرن: ۲۲۷، ۲۲۲، ۴۵
۲۷۲، ۲۷۱	سفریائوس: ۷۸، ۷۰
سوین: ۲۲۲	سفدروس: ۲۱۸
سیاجر یوس: ۱۵۱، ۶۰، ۵۹، ۴۰	سفیق: ۱۴۲، ۱۴۰
۱۸۸	الکسون: ۴۶-۴۴، ۳۶، ۱۳، ۱۲
سیدونیا: ۱۱۲	۲۰۷، ۲۰۴، ۲۰۱، ۱۹۴، ۵۱، ۵۰
سیرامونیا: ۷۳، ۷۲	۲۶۱، ۵۸، ۲۲۵-۲۲۰، ۲۱۴
	۲۷۴، ۲۷۲، ۲۶۵، ۲۶۲

سیر افاد: ۷۶	سیر میوم: ۱۷۴، ۱۶۹
سیماخوس: ۱۷۴، ۱۷۹	السن: ۱۷۰، ۱۷۰، ۲۷۲، ۲۷۴، ۲۷۸
سیمون: ۳۲۲، ۳۲۱	۲۹۳، ۲۸۸، ۲۸۶، ۲۷۹

(ش)

شارل الاصلح: ۲۷۵، ۲۷۴	شلیريك (برجندی): ۱۳۸، ۱۳۹، ۱۴۱
شارل البیط: ۲۸۷، ۲۸۶، ۴۷۹، ۲۷۸	شلیريك (فرنجی): ۷۴
شارل السمون: ۲۷۷، ۲۷۶، ۲۷۵	الشه (وادی نهر): ۱۹۹
شارلمان: ۲۰۷، ۲۰۶، ۲۰۳، ۱۱۳، ۳۵	شلیريك (ملك فرنجی): ۱۴۶، ۱۴۵، ۸۳
۲۶۲، ۲۶۱، ۲۵۹، ۲۵۲، ۲۳۰، ۲۰۸	۲۴۶، ۲۴۵
۲۷۴	شلیريك (ملك فرنجی): ۱۸۸
شارل مارقل: ۲۱۴، ۲۰۵-۲۰۰، ۱۹۶	شلیريك الثالث: ۲۰۵
شارلون: ۵۷، ۴۲	شمبایا: ۱۴۹، ۱۴۰
شستر: ۳۶۶	شنداسرناش: ۹۷-۱۰۰، ۱۰۲، ۱۰۵
شلیريك (برجندی): ۱۴۱، ۱۴۹، ۱۳۸	۱۱۰
	شیی: ۲۶۵، ۲۶۲

(ص)

الصقالبی: ۳۱۰، ۲۷۰، ۲۶۲، ۳۱۰، ۱۴	۳۲۲-۳۱۲، ۳۱۰-۳۰۸، ۳۰۲، ۲۸۱
صقلیه: ۱۵۲، ۱۳۰، ۱۲۱، ۱۱۸، ۲۸	۳۴۰-۳۲۸، ۲۲۶
۲۸۰، ۲۵۲، ۱۸۳، ۱۸۰، ۱۷۳	

(ط)

طارق بن زياد: ١١٢	طليطلة : ٩٢٠٨٣٠٧٧٠٧٢٠٦٥
طبرمين: ٢٢٠٠٣١٩٠٣١٥٠	١٠٢٠١٠٢٠١٠١٠٩٨
طبريون: ٢٤٥٠	١٩١٠١٠٧
طرابلس: ٣٧٧٠١٢٠٠٢٨٠٢٧	طنجة: ١٢٥٠٩٣٠٢٨٠٢٧
طرابلس: ٣١٩	

(ع)

عبد الرحمن النافق: ٢٠٢٠٢٠١	علي بن المعز بن باديس: ٣١٨
العرب: ٣٢٦٠٣٢٤	

(غ)

غابة السوداء: ٢٠٠	٢٩٩٠٢٨٧-٢٨٥٠٢٤٦٠٢٣٣
غابة: ٦-٤-٢٦٠٣٢-٢٩٠٢٦٠٢٥٠	غالبية: ١٢٦٠٨٣٠٦٨٠٥٨
١٠٨٠١٠٥٠٩٥٠٦٦-٥٦	غراطه: ٧٤
١٧٣-١٧١٠١٥١٠١٤٨-١٢٧	غيطلة (وترا): ١٠٩٠١٠٦
٢٠٨٠٢٠٢٠١٠١٩٥-١٨٨	
٢٢٠٠٢١٧٠٢١٣٠٢١٢٠٢٠٩	

(ق)

قارص (القرص): ٢٥١٠٢٤٨٠١٨٥٠٩٢	قناطمين (الدولة القناطمية): ٣٠٩
قارول: ٢٤٤	٣٢٧٠٢١٧-٣١٥

(ق)

قلوريا: ٢٧٠١٢١٠	ققدس: ١٧٢٠٧٦٠٧٢٠٧٢
قسطنارة: ٢٥٠	قبادقيا: ٢٠
قسطنطين الاكبر: ٢٠٢	القديس جال: ٢٧٢٠٢٦٢
قسطنطين الخامس: ٢٥١	القديس مينخايل: ٢٠٨
القوط: ٢٠٠١٩٠١٦-١٢	قرطبة: ١١٢٠٨٠٠٧٦٠٧٤٠٧٢
القوط الشرقيون: ٢٩٠٣٨٠٣١٠٢٠	قرطاجنة: ١٢٠٠٩١٥٠١٠٨٠٢٧
١٤٠٠١٢٩٠٧١٠٦٤٠٦٣٠٥٢	١٢٤-١٣٠٠١٢٨٠ ٢٣٠١٢٢
١٨٥-١٧٩٠١٧٥-١٥٥٠١٤٦-١٤٤	قرطاجنة: ٧٨٠٨٦٠٧٢
٢٤٠٠٢٢٩٠٢٣٨٠١٩٤	قرطاجنة: ٨٣٠٦٤
القوط الغربيون: ٢٧٠٢٧-٢٠	القسطنطينية: ٨٢٠٧٨٠٢٨٠٢٥٠٢٣٠٢٠
٧٨-٥٦٠٥٢٠٤٩٠٤٣٠٤١٠٢٧-٢٦	١٦١٠١٥٥٠١٥٢٠١٢٤٠١٣٠
١٤٢٠١٤٠٠١٢٦٠١١٢-٩٦٠٩٠-٨٠	٢١٠٠٢٧١٠١٨١٠١٧٨
١٧٢-١٧٠٠١٥٤٠١٥١٠١٤٧-١٤٦	قصريانة: ٣٢٠٠٢١٩٠٣١٤
٢١٤٠٢٠٢٠١٩١-١٨٩٠١٧٦	قضاية: ٢٢٠٠٣١٩٠٣١٥
قيصرية: ١٢٥	

(ك)

٩٨٠٩١-٨٢٠٨٠٠٧٩٠٧٦٠٧٢٠٦٧	كابوا: ٢١٢٠٢٤٣٠٢٠٩٠٢٠٨٠١٨٥
١٤٢٠١٤٠٠١٢٢-١٢٢٠١١٩٠١٠٨	الكاثوليك (الكنيسة الكاثوليكية) ٢٨
١٧٤٠١٦٣٠١٥١٠١٤٨٠١٤٧	٦٦٠٦٠٠٥٨٠٥٢٠٤٣٠٤٢

١٧٥-١٧٩، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٧٦، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٤	١٧٥-١٧٩، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٧٦، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٤
١٩٠، ١٩١، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٤٠، ٢٤٠، ٢٤٠	١٩٠، ١٩١، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٤٠، ٢٤٠، ٢٤٠
٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٨٨	٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٨٨
كارلومان: ٢٠٦	كارلومان: ٢٠٦
الكارولنجي (البيت): ٢٠٣، ٢٠٣، ٢٠٣	الكارولنجي (البيت): ٢٠٣، ٢٠٣، ٢٠٣
٢٧٣، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨	٢٧٣، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨
كاسيدورس: ١٦٧	كاسيدورس: ١٦٧
كالبريا: ٢٤٣، ٢٤٥، ٣١١، ٣١٧	كالبريا: ٢٤٣، ٢٤٥، ٣١١، ٣١٧
كامبانيا: ١٨٥	كامبانيا: ١٨٥
كامبردج: ٢٣٦	كامبردج: ٢٣٦
كاتبريا: ٧٧	كاتبريا: ٧٧
كاتور: ٢٨٣	كاتور: ٢٨٣
كاتربوري: ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٦٥، ٢٩٩	كاتربوري: ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٦٥، ٢٩٩
كلادويوس: ٨٦	كلادويوس: ٨٦
كانوت: ٢٣٢، ٣٦٨، ٣٩٨، ٢٠٢	كانوت: ٢٣٢، ٣٦٨، ٣٩٨، ٢٠٢
الكليين: (انظر بن الحسن الكليين)	الكليين: (انظر بن الحسن الكليين)
الكلك: ٢١٩، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٣	الكلك: ٢١٩، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٣
٢٢٦، ٢٢٦، ٢٢٦	٢٢٦، ٢٢٦، ٢٢٦
كلوفر (ملك فرنجي): ١٤٦	كلوفر (ملك فرنجي): ١٤٦
كلودمي (ملك فرنجي): ١٤٥	كلودمي (ملك فرنجي): ١٤٥
كلوفس الاول: ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٥٩، ٥٩، ٥٩	كلوفس الاول: ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٥٩، ٥٩، ٥٩
١٤٧، ١٤٣، ١٤٠، ١٦٦	١٤٧، ١٤٣، ١٤٠، ١٦٦

(J)

لأجوس: ٩٤٠٩٢٠٧٦	لويس السابع: ٢٢٧
لانجر: ١٧٠٠١٣٩	ليبريوس: ١٧٩٠١٧٢٠١٦٧٠٧٣٠٧٢
اللا (أرض): ٢٠٩	ليتوبراند: ٢٥١٠٢٥٠٠٢٠٤
ليارويا: ٧٤٦٠٢٤٢	ليجوريا: ٢٤٩٠٢٤٢
الليارويين: ٢٠٦٠٢٠٤٠١٨٤٠١٣٠١٢	ليستر: ٢٢٦
٢٢٤٠٢١١٠٣٠٨٠٢٥٣-٢٣٧	ليو الأول (بابا): ٢٢
الوار (نهر): ٦١٠٥٩٠٥٧٠٥٦٠٢٦	ليو الأول (امير اطويو بطلي): ١٢٠
٢٦٤٠٢٠٢٠١٩١٠١٧٠٠١٤٦	ليو التاسع (بابا): ٣١١
٢٩٢٠٢٧٥٠٢٧٤٠٢٧٢	ليوفا الأول: ٧٥
لندن: ٢٦٨٠٢٦٦٠٢٦٥٠٢٣٤٠٢٢٩	ليوفا الثاني: ٩٠٠٨٨
٢٠٤٠٢٠٢	ليوفيجلد: ٨٩٠٨٨٠٨٥-٧٥٠٧٠
لنكشير: ٢٢٩	١٠٠٠٩٧٠٩٠
لور الأول (ملك فرنسي): ١٩٣٠١٩٢	ليركاديا (القديس): ١٠١
لور (ابن لويس الثاني): ٢٧٥٠٢٧٤	ليون: ١٩٩٠١٤١٠١٤٠٠١٣٨
لوزيتانيا: ٨٦٠٦٨٠٥٩	ليندو: ٨٠
لوكايا: ٢٤٣	ليونتيوس: ١٥٥
لونا: ٢٧٥٠٢٤٩	لينكون: ٢٢٩
لويس الثاني: ٢٧٥٠٢٧٢	
لويس الثالث: ٢٣٦٠٢٧٥	
لويس الجرطاني: ٢٧٥٠٢٧٤	

(٢)

صلى: ٣١٨	ماتيف: ٢٩١
السلون: ١٠٨-١١٢-٢٠٢-٢٠٤	طاجوريان: ١٢٨٠١٣٠
٢٠٧-٢٣٥-٢٥٢-٢٨١-٣٠٨-٣١١	ماركوس أوريليوس: ١٥
٣١٤-٣١٨-٣٢٠-٣٢٧	مارتن (القديس): ٢٢٤
المسيح: ٥٧٠٤٢	ماتر: ٣١٩
المسيحية: ١٦٤-٢٠٢-٢٥٠-٤٦٠-٩٣٠	مان (جزيرة): ٢٩٩
١١٩-٢٠٠-٢٠٧-٢١٩-٢٢٢-٢٢٣	ماترو: ٢٤٢-٤٧٠
٢٢٦-٢٣٠-٢٣٢-٢٣٥-٢٤٦-٢٤٨	مانويل كورنيل: ٣٢٨
٢٦٦-٢٧١-٢٧٩-٢٨٠-٢٨٢	مان (الليم): ٢٩١-٢٩٢-٢٩٩-٣٠٧
٢٨٢-٢٨٣	المان (نهر): ١٦٩٠٢٩٠٤
ميتي (ميتة): ٢١٤-٢١٦-٢٢٢	متر: ١٩٢-١٩٩
مصر: ٣٢٧	المر: ٣٥
للعز بن باذيس: ٣١٧	ميجلو: ١٨٢
للتارية: ١١٠-١١٩-١٢٤-١٢٨-١٣٢	الميط الاطلسي: ٤
للقول: ٢٠	مرسيا (ملكة): ٢٢٥-٢٣١-٢٣٤
ملق: ٣١٠-٣١٢	٢٦٥-٢٦٩
ملقا: ٨٢٠٧٣	مرسيليا: ١٧٠-٢٧٥
ملوك الطوائف: ٣١٩	مرليان: ٣١
المالك السبع: ٤٦	مريدا: ٧٣-٨٠-١١٢
المنصور الفاطمي (الخليفة): ٣١٥	المنصور الفاطمي (الخليفة): ٣١٦

المهدي: ٣٢٧	المهرفنجي (الميرفنجيون): ٦٦٠٤١
موريك (سبل): ٢٢	٢٠٥٠١٩٩-١٩٣٠٨٧
موريس (امبراطور): ٢٤٥٠٢٤٢:٨٣	٢٥٢٠٢١٤-٢٠٧
موسى بن قنص: ١١٢٠١١١	المن: ١٩٩
مورث جازجانو: ٣٠٨	ميلان: ٢٤٧٠٢٤٦٠٢٤١٠١٥٨
مورزيا: ١٦٩٠١٥٦	ميلان: ٣٠٨
ميتلان: ٢٨٩	

(٥)

لايل: ٢٠٩٠٢٥٠٠٢٤٣٠١٨٣٠١٨٠	نهر اريت: ٢٧٩
٢٢٩٠٣١٢	نهر ابرو: ٩٤٠٦٨
لاريون: ٨٦٠٧٧٠٧٥٠٦٤-٦٢٠٥٦	نهر الالب: ٢٧٤
٢٠٧٠١٩١٠١٧٢٠١٤٢٠١٠٣	نهر البير: ٢٤٥٠٢٤٢٠٢٤١٠١٦٤٠١٥٨
تلوسيس: ٢٤٠٠١٨٥-١٨٣	نهر الادر: ٢٨٢
تافار: ٩٤	نهر التير: ٢٤٤
تانت: ٢٧٣	نهر الجارون: ٢٧٤٠٦١٠٥٧٠٢٦
الترويج (الترويجين): ٢٦٠٠١٥٧٠١٢	نهر التورود: ٨٠٠٧٦٠٩٨
٢٠٢٠٢٧٠-٢٦٨٠٢٦٢٠٢٦١	نهر السوم: ٢٧٥٠٢٧٤
تستريا: ٢٠٦٠٣٠١٠١٩٩-١٩٥٠١٩٣	نهر التلد: ٢٧٥٠٢٧٤
٢٧٣٠٢١٤	نهر التستولا: ١٩
التكر: ١٦٩	نهر التورلما: ٢٧١

٢٠٩-٢٠٥٠٣٠-٢٨٥٠٢٨٥-٢٧٨	نهر الويز: ٢٧٤
نوريكوم: ١٥٤٠١٥٢٠١٥١	نهر المين: ٢٧٤
١٧٠٠١٦٩	نوار موييه: ٢٧٣
نوطس: ٣٢٠٠٢١٩٠٣١٤	نوتجهام: ٢٢٧
نوفجرو: ٢٧١	نور نميريا: ٢٢٥-٢٢٨٠٢٣١
نيس: ٢٤٩	٢٦٥٠٢٣٤
نيقا: ٢٢٨	النورمان (النورمن): ٢٧٨-٢٨١
نيقولا الثاني (بابا): ٣١٢	٢٨٥-٢٨٩٠٢٩٤٠٢٩٧٠٢٠٠
نيسر: ١٠٢٠٨٣٠٧٧٠٩٤	٢٠٢-٢٢٨٠٣٢٧٠٣٢٤
	نورمانديا: ٢٢٢٠٢٦٤٠٢٦٨٠٢٧٦

(٥)

٣١٢٠٢٩٦ (بابا): هلدبراند	٢١٩٠٢١٨ (سورمادريان): مادريان
٨٤-٧٩: هرمنجلد	٢٨٦: هارولد (ملك النيكنج)
١٧٤٠١٢٣٠١٢٧٠١٢٦: هلدويك	٢٦٠: هارولد (صاحب القصر الاشقر)
١٤١: هلفتيا	٢٦٨: هارولد (ملك انجلترا)
١٢٤٠١٢٣: هلدكات	٣٠٤-٣٠١
٢١٠٠٣٠٩: همفري هوتفيل	٣٠٣٠٣٠٢٠٢٦٨: هاستنجز
٢٢٧: هنجولو	٧٦٤٠٢٦١٠٢٦٠: هاسكنز
٢٣٩٠٢٣٨: هنري السادس	٢٧٣: هامبروج
٥٦٠٣٤٠٢٦٠٢٤٠٢٣: هنريوس	٢٤٨٠٢٤٥٠١٣٠٩٢: هرقل

موتفيل: ٢٣٠٠٣٢٢٢٠٢١٩٠٢٠٩	موتفيل: ١٥٢
مولد: ٢٠٠	المبيدوم: ١٢٤
الموت: ٤٠٠٣٧٠٣٢-٢٩٠٢١٠١٥	ميلديك (كونت في أسبانيا): ١٠
٢٢٧٠١٨٨٠١٣٧٠١٢١٠٥٧	ميلدفن: ١٠١
١٧٤٠١٢٥٠١٧٦-١٢٢	ميوكايه: ٢٩٢

(و)

٢٢١٠١٢٩	واتلنج شريف: ٢٢١٠١٢٩
٢٧٤٠٩٢٠٨١	الوادي الكبير: ٢٧٤٠٩٢٠٨١
٢٧٤٠	والشرف: ٢٧٤٠
٥٧٠٥٦	واليا: ٥٧٠٥٦
١١٢٠١١٠٠١٠٧-١٠١	وامبا: ١١٢٠١١٠٠١٠٧-١٠١
٣٠١٠٢٤٧٠٢٢٤٠٨٧	الزقان: ٣٠١٠٢٤٧٠٢٢٤٠٨٧
١٨١	وتجيس: ١٨١
١١١٠١٠٩٠١٠٦	وتيرا (غيطلة): ١١١٠١٠٩٠١٠٦
٢٢٩	ودمور: ٢٢٩
٢٢٩٠٢٢٨٠٢٢٧٠٢٢٥	وشكن: ٢٢٩٠٢٢٨٠٢٢٧٠٢٢٥
٢٦٤٠٢٣٤٠٢٣٧٠٢٣١	٢٦٤٠٢٣٤٠٢٣٧٠٢٣١
٢٦٧٠٢٦٥	٢٦٧٠٢٦٥
٢٢٧٠٢٣٢٠٢٢٠٠٢١٨٠٢١٧	وليم الاول (دوق نورمالديا الفاتح): ٢٢٧٠٢٣٢٠٢٢٠٠٢١٨٠٢١٧
٢٩٩٠٢٩٤-٢٩٠٠٢٦٨	٢٩٩٠٢٩٤-٢٩٠٠٢٦٨

(هـ)

٢١٨٠٦٠٥	يوليوس قيصر: ٢١٨٠٦٠٥
١٤٦	اليون: ١٤٦
١٠٨٠١٠٧٠٩٣٠٨٨٠٨٧	اليهود: ١٠٨٠١٠٧٠٩٣٠٨٨٠٨٧
٢١٢٠١٦٢٠١٠٩	٢١٢٠١٦٢٠١٠٩
٢٢	يوتريوس: ٢٢
١٧٨	يوحنا الاول (بابا): ١٧٨
٢٢٥	يورك: ٢٢٥
٢٢٩	يوركش: ٢٢٩

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	المصحوب
٦	١٤	على أهيه	على أهيه
١٩	٥	وغوزوم	وغوزوم
	١٠	انتصار سياجريوس	انتصار كلوفس على سياجريوس
٢٢	٢	وحصلوا	وحصلوا
	١٦	إذا	إذا
٢٣	١٠	هنوويوس	هنوويوس
٢٤	١	لقدمه	لقومه
٢٥	١٠	في أدك	في حين أدرك
٢٨	٩	بحكم أريوسيه	بحكم أريوسيه
٤١	٢	أيوسيه	أريوسيه
٦٣	٧	أماريك	أملريك
٦٧	١٥	Haspues	Haspues
١٤٤	٥	حوزنكم في	في حوزنكم
١٩٠	٤	الفرائجه	الفرنجية
٢٠١	٧	وثيس	وثيسا
٢٠٨	١٣	ومزارعوا	ومزارعو
٢٦٦	١٤	فساوا	فسادوا
٢٧٥	١٠	للمدن	المدينة
٢٩٩	١٥	يغعل	بغسل



دار الكتب الجامعية

الإدارة

١٨ شارع سينوستريس

تليفون ٨٠٥٨٩٠ الإسكندرية

مكتب القاهرة

١٣ شارع الدكتور محمد سعيد

قصر النيل تليفون ٩٠٠٠٤١ - ٥٠٩٠٩

فوكيل الاسكندرية

مكتبة هواة الكتب

٣٤ شارع سعد زغلول ق - ٨٠٨٠١٣

